[redacted]

بقلم

سيد قطب

الطبعة الخامسة

[١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨م]

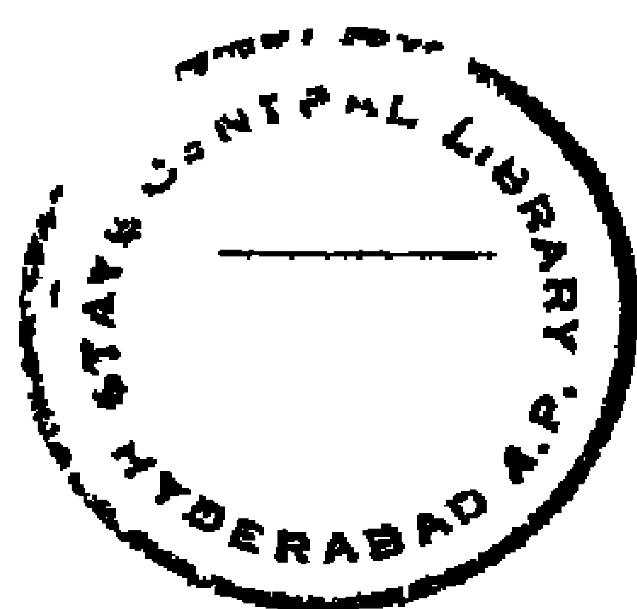
طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

العدالة الاجتماعية في الإسلام

بقلم

سيد قطب



الطبعة الخامسة

[١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م]

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

فى عالم الاقتصاد ، لايلجأ الفرد إلى الاستدانة ، وله رصيد مذخور ، قبل أن يراجع رصيده ، فيرى إن كان فيه غناء ؛ ولا نلجأ الدولة إلى الاستيراد قبل أن تراجع خزائنها ، وتنظر فى خاماتها ومقدراتها . . أفلا يقوّم رصيد الروح ، وزاد الفكر ، ووراثات القلب والضمير ، كما نقوّم السلع والأموال فى حياة الناس ؟

بلى ! ولكننا هنا فى مصر ، وفى العالم الإسلامى كله ، لانراجع رصيدنا الروحى وتراثنا الفكرى ، قبل أن نفكر فى استيراد المبادىء والخطط ، واستعارة النظم والشرائع ، من خلف السهوب ومن وراء البحار !

إننا ننظر فنرى واقعاً اجتماعياً لايسر : وننظر فنرى أوضاعاً اجتماعية لاتحقق العدالة. عندئذ نتجه بأبصارنا إلى أوربا وأمريكا وروسيا ، نستجلب منها الحلول لمشكلاتنا ، كما نستورد منها السلع لمعاشنا . غير أننا عند استيراد السلع نراجع أرصدتنا القديمة ، ونحصى موجوداتنا فى السوق ، وننظر فى قدرتنا على الإنتاج . فأما عند استيراد المبادىء والنظم والقوانين فلا نصنع شيئاً من هذا كله ؛ ولا نتحرج أن نلقى بكل تراثنا الروحى ، وكل مقوماتنا الفكرية ، وكل الحلول التى يمكن أن نتيحها لنا النظر فيما لدينا من أسس ومبادىء ونظريات ، لنستجلب المبادىء الديمقراطية ، أوالاشتراكية ، أو الشيوعية ؛ فنكل إليها حل مشكلاتنا الاجتماعية ؛ مهما اختلفت أوضاعنا ، وظروفنا ، وتاريخنا ، ومقومات حياتنا المادية والفكرية والروحية ، عن ظروف القوم فيما وراء البحار ، وفيما خلف السهوب !

ونحن فى الوقت ذاته نتخذ الإسلام ديناً رسمياً للدولة . ونزعم فيما بيننا وبين أنفسنا أننا

مسلمون ، إن لم نزعم أننا حماة الإسلام ودعاته ! ولكننا نقصى هذا الدين من حياتنا العملية ، ليبقى فى عزلة وجدانية ، لايحكم الحياة ، ولا يصرّف شؤونها ، ولايعالج مشكلاتها.. فالدين ـ كما يقال ـ صلة مابين العبد وربه ؛ أما صلات الناس ، وعلاقات المجتمع ، ومشكلات الحياة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ... فلا دخل للدين بها ، ولادخل لها بالدين . . هذا مايقوله الذين لاينكرون الدين . فأما الآخرون فيقولون : لاتذكروا لنا هذا الدين ؛ فالدين إن هو إلا مخدر يستغله الرأسماليون والحكام المستبدون ، لتنويم الطبقات الكادحة ، وتخدير الجماهير المحرومة !

من أين جئنا بهذه النظريات الغريبة على طبيعة الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ؟ . . لقد استوردناها هى الأخرى ـ كما نستورد كل شىء ـ من خلف السهوب ، ومن وراء البحار !

ذلك أن قصة العزلة بين الدين والدنيا لم تنبت فى الشرق الإسلامى ، ولم يعرفها الإسلام ؛ وقصة تخدير الدين للمشاعر لم تكن يوماً وليدة هذا الدين ، ولم تعرفها طبيعته . ولكننا نتلقفها تلقفاً كالببغاء ، ونحاكيها محاكاة كالقردة ، ولا نحاول أن نفتش عن أصلها ونشأتها ؛ ولا أن نعرف مصدرها ومورِدها . . فلننظر من أين جاءت وكيف جاءت هذه القولة الغريبة ؟ !

* * *

لقد نشأت المسيحية فى ظل الإمبراطورية الرومانية ؛ وفى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية : واستحالت طقوساً جامدة لاحياة فيها ، ومظاهر خاوية لاروح فيها . وكان للإمبراطورية الرومانية قوانينها المشهورة التى لاتزال ينبوعاً للقوانين الأوربية الحديثة ؛ وكان المجتمع الرومانى نظمه الوضعية ، ومقوماته الاجتماعية ؛ فلم تكن المسيحية

كما وصلت إلى الدولة الرومانية ، وفى الظروف التى كانت قائمة يومذاك ، بقادرة على أن تضع للدولة الرومانية الوطيدة ، وللمجتمع الرومانى المعقد ، قوانين ونظما وحدوداً للسير على هداها فى الدولة والمجتمع ، فانصرفت بحكم هذه الظروف إلى التهذيب الروحى ، والتطهير الوجدانى ؛ وعنيت بهذا الجانب بقدر ما كانت معنية بنقد الطقوس الجامدة ، والمظاهر الخاوية فى شعائر اليهودية ، ورد الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلى .

والمسيح عليه السلام إنما جاء داعية للصفاء الروحى والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد ، وتخفيف بعض القيود المفروضة على بنى إسرائيل ، أو التى ابتدعوها للتشديد . وكان يلمح من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح إلى قيود التقاليد من الكهان اللاويين والكتبة ، لأنها أعمال ظاهرية ، وهو كان موكلا بالبواطن والأرواح . . فقد أباح لتلاميذه سبت بنى إسرائيل ؛ وأحل لهم كل ما يدخل الفم لأنه لا ينجس ، أما الذى يخرج منه من « غش وزور وفسق . . . » فهو الذى ينجس ؛ وأباح للتلاميذ الإفطار فى أيام الصوم اليهودية ؛ ولم يرجم الزانية التى جىء له بها معترفة ، لأن الذين سيتولون رجمها ـ حسب شريعة موسى ـ ليس فيهم من هو خال من الذنب . ومن أقواله : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً : ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين »(١) .

وهذه الروح تبدو كذلك فى قوله : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تقتل ؛ ومن قتل يكون مستوجب الحكم ؛ وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ؛ ومن قال لأخيه « رقا »(٢) يكون مستوجب المجمع ؛ ومن قال : يا أحمق ،

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس . آيات (٣٨ ـ ٤١) .
(٢) [illegible]

يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح ، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك ؛ وحينئذ تعال، وقدم قربانك . كن مراضياً لخصمك سريعا مادمت معه فى الطريق . . . الخ » .

وقوله : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها . وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ؛ و إن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . . . إلخ » .

وقوله أيضاً : « سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تحنث ، بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا . لا بالسماء ، لأنها كرسى الله ؛ ولا بالأرض ، لأنها موطىء قدميه ؛ ولا بأورشليم ، لأنها مدينة الملك العظيم ؛ ولا تحلف برأسك ، لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء . بل يكن كلامكم : نعم نعم . لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير [1] » .

فبسبب من طبيعة الدعوة ذاتها ، مضافا إليها الظروف التى وصلت فيها إلى الدولة الرومانية اتجهت بكليتها إلى التطهير الروحى والتهذيب الوجدانى ؛ وصاغت نفسها على أساس أن « الدين صلة ما بين العبد والرب » وأن القانون صلة ما بين الفرد والدولة .

وكان هذا منطقياً مع نشأة المسيحية فى كنف الإمبراطورية الرومانية ، وعلى فترة من الديانة اليهودية .

(١) إنجيل متى [illegible] آيات من ٢١ ـ ٣٧) .

ولقد بلغت المسيحية فى التطهر الروحى ، والتجرد المادى ، والسماحة الوجدانية ، غاية ما بعدها غاية ؛ وأدت واجبها فى هـذا الجانب من حياة الإنسانية الروحية ، بقدر ما تستطيع ديانة أن ترتفع بالروح ، وأن تسمو بالوجدان ، وأن تنظف القلب والضمير ، وأن تـكبت الغرائز ، وتعلو على الضرورات ، وتهدف إلى أشواق مقدسة فى عالم المثال والخيال ، تاركة المجتمع للدولة تنظمه بقوانينها الأرضية ، فى عالم الظاهر والواقع ، إذ كانت هى معنية بعالم النفس والضمير ؛ وكانت بذلك منطقية مع نشأتها فى بيئة خاصة ، منطقية مع حاجة الأمة الإسرائيلية التى بعث لهـا عيسى ، وهى جزء صغير من كيان الدولة الرومانية الـكبيرة ، منطقية مع الفترة الموقوتة المقدرة للمسيحية حتى يظهر الدين العالمى الأخير .

ثم شاء الله أن تعبر المسيحية البحار إلى أوربا ، بكل سماحتها ، وكل تطهرها ، وكل تجردها من عالم المادة . . وهناك وجدت الرومان ورثة الحضارة الإغريقية المادية الوثنية ، كما وجدت أقواماً فى أنحاء أوربا حديثى العهد بالبربرية ، يتناحرون بجموعهم الـكثيفة على رقعة من الأرض ضيقة ، ذات طبيعة قاسية وعرة ضنينة شحيحة ، لا تمكن من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة ، ولا أن يلقى سلاحه لحظة ، ولا أن يركن فى واقع الحياة إلى نظريات المسيحية السمحة الموغلة فى السماحة : « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك و يأخذ ثو بك فاترك له الرداء أيضاً ! » .

لقد رأى هؤلاء الأقوام أن الدين لا يصلح للحياة ، فقالوا : إن الدين صلة ما بين العبد والرب . وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله فى الـكنيسة ؛ وأن يستروحوا نسماته فى الهيكل المقدس ؛ وأن يواجهوا صراع الحياة بعد ذلك فى المجتمع بتقاليدهم البربرية ؛ وأن يدعوا السيف يقضى بحكمه فى إبان همجيتهم ، و يدعوا القانون المدنى يقضى بحـكمه بعد أن يتحضروا . فأما الدين فقد بقى فى عزلته الوجدانية هناك فى القلوب والضمائر . وفى الهيكل المقدس و كرسى الاعتراف .

ومن هنا كانت تلك العزلة بين الدين والدنيا فى حياة الأوربيين . بل كانت الحقيقة الواقعة التى تنطق بها طبائع الأشياء ، وهى أن أوربا لم تكن مسيحية قط فى يوم من الأيام. وقد بقى الدين فى عزلة عن تكييف الحياة وتنظيمها من يوم دخوله إلى يومنا هذا .

ولكن رجال الدين من القساوسة ، والكرادلة ، والبابوات . . لا يستطيعون أن يضمنوا مصالحهم ، ولا أن يحافظوا على نفوذهم ، إذا بقيت الكنيسة فى عزلة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فلا بد إذن أن تكون الكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء ؛ ولا بد أن تستغل سلطانها الروحى فى ميدان الحياة العامة . وجاءت عصور كان للكنيسة أملاك وجيوش وسلطان لا تقل عن أملاك الملوك وجيوشهم وسلطانهم . ووقع النزاع ـ كما لا بد أن يقع ـ بين الكنيسة والسلطان ، بين البابوات والأباطرة ؛ وكان الدهماء فى الغالب فى صف الكنيسة . ثم وقع الوفاق ـ كما لا بد أن يقع ـ بين هاتين السلطتين ، لالتقاء مصلحتيهما فى تسخير الجماهير ، واستغلال الدهماء ، ما دامت مصالح مادية واقتصادية فى حقيقتها ، وما دام النزاع فى أصله على السلطة الزمنية .

وكان هذا . وقيل : إن الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين . لأنه هكذا كان عند الأوربيين !

* * *

وبقيت الكنيسة سلطة مقدسة ، تملك رقاب الناس فى الدنيا ، وفى الآخرة كذلك . بقيت تبيع « صكوك الغفران » وتصدر « قرارات الحرمان » ، وظلت تتحكم فى مشاعر الناس وأفكارهم على السواء ؛ ومن خلفها محاكم التفتيش . تقتل وتحرق كل من يرفع [illegible] وأن الكنيسة ما بيدها سلطان

من تفتح البصائر والمشاعر بعد القرون المظلمة ؛ ولم يكن هينا عليها أن تفقد سلطانها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النماء ؛ فانطلقت تقاوم وتجاهد لتكميم الأفواه الجريئة ، وتعطيل الأفكار الحرة ، التى تناقض النظريات البالية العتيقة ؛ فكان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منذ ذلك التاريخ . ولما كانت الكنيسة لا تريد أن تكتفى بالدين ، كما هى طبيعة المسيحية ؛ ولا أن تقنع بالتحكم فى الآخرة ، كما جرت البابوية ؛ فقد اصطدمت نظرياتها عن الأرض والأفلاك والمواد بنظريات العلم القائمة على الدرس والتمحيص والتجربة . ولما كانت نظريات العلم تؤيدها التجربة والواقع ؛ وفتوحات العلم لا تدع مجالا للشك فى عظمة هذه الأداة المستجدة . . فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها معا ؛ وتكن فى نفوسها العداوة والاشمئزاز للدين ولرجال الدين .

ومن هنا كانت الجفوة بين الدين والعلم ، وبين الكنيسة والفكر ، فى حياة الأوربيين !

* * *

ثم سارت الحياة فى طريقها ؛ وآتى العلم الحديث ثمراته ، ونشأ عنه فى عالم الصناعة ما يعرف بالإنتاج الكبير ؛ وتضخمت رؤوس الأموال ؛ وأصبح فى ميدان العمل معسكران منفصلان : معسكر أصحاب رؤوس الأموال ، ومعسكر العمال ؛ وانفرجت الهوة بين مصلحة كل من المعسكرين ؛ وانتقلت السلطة الحقيقية من يد الدولة إلى أيدى أصحاب رؤوس الأموال . ولما لم يكن بد للكنيسة أن تنضم للسلطة الحقيقية ، فقد انضمت إلى معسكر رأس المال !

ولا أحب أن أظلم رجال الكنيسة الأوربية جميعاً ؛ فقد يكون منهم المستنفع الذى يدرك مركز القوة فينضم إليه ؛ ويتخذ من الدين مخدراً لطاقات الكادحة ؛ ...

الثورة حقها ؛ ويخذلها عن طلب النصفة فى الدنيا ، ويمنيها العوض فى الآخرة . ولكن بعضهم لا بد أن يكون مخلصاً فى دعوة من هذا القبيل ، حسب فهمه لعقيدته المسيحية ، فالمسيحية فى جوهرها تزهد ، واحتقار للحياة الظاهرة ، وتطلع إلى ملكوت الرب ، وعالم السماء .

وعلى أية حال ، لقد وجدت الطبقات الكادحة التى نريد أن تصارع ، أن الدين لا يغذى رغبتها فى الصراع ؛ وأن الكنيسة تتخذ منه مخدراً للكادحين ؛ فأعلنت ثورتها الكاملة على الدين ؛ وقالت عنه : إنه مخدر الملايين .

ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين عند الشيوعيين !

* * *

ولكن نحن ! ما بالنا وهذا كله ؟ وظروفنا التاريخية ، وطبيعة الإسلام وظروفه ليست فى شىء من هذا جميعه ! لقد نشأ الإسلام فى بلاد مستقلة لا سلطان لإمبراطورية ولا لملك عليها ؛ ونشأ فى مجتمع بدوى ، ليست به أوضاع أو قوانين من نوع ما كان فى الإمبراطورية الرومانية . وكان هذا أنسب وضع لهذا الدين ، ليتولى إنشاء المجتمع الذى يريده بلا عوائق حقيقية ، ويضع له قوانينه ونظمه ؛ ويتولى فى الوقت ذاته ضميره وروحه ، كما يتولى سلوكه ومعاملاته ؛ ويجمع بين الدنيا والدين فى توجيهاته وتشريعاته . . وقد قام على أساس توحد عالم الأرض وعالم السماء فى نظام واحد، يعاش فى ضمير الفرد، كما يعيش فى واقع الجماعة؛ ولا ينفصل فيه النشاط العملى عن الوازع الدينى ؛ ولا تتعدد جوهره الموحد ، وإن اختلفت مظاهره ومسالكه .

ولم يكن الإسلام ـ وتلك نشأته وهذه طبيعته ـ يستطيع أن يعزل فى الوجدان البشرى ، فضلا عن الحياة العملية لأتباعه ، ولم يكن مضطراً من ناحية نشأته التاريخية كذلك

أن يضيق دائرة عمله خشية إمبراطورية أو سلطان ؛ فهو سيد نفسه ؛ وميدان عمله هو الحياة البشرية كلها ، روحيها وماديها ، دينيها ودنيويها .

ولن يستقيم هذا الدين فى عزلة عن المجتمع ؛ ولن يكون أهله مسلمين ، وهم لا يحكمونه فى نظامهم الاجتماعى والقانونى والمالى ؛ ولن يكون مجتمعهم إسلامياً ، وأحكام الإسلام وشرائعه منفية من قوانينهم ونظمهم ، وليس لهم من الإسلام إلا شعائر وعبادات :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً[1] » . « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[2] » . « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ[3] » .

ومما يجعل هذا الطريق متعيناً ، أن هذا الدين كل لا يتجزأ : عباداته ومعاملاته ، شرائعه وتوجيهاته . والشعائر التعبدية ليست منفصلة فى طبيعتها وأهدافها عن النظم والمعاملات ؛ فالصلاة وهى من أخص الشعائر التعبدية تعنى توجه الفرد وتوجه الجماعة إلى إله واحد عزيز قادر ، لا تعنو الجباه إلا له ، وإلى قبلة واحدة لا زيغ عنها ولا فسوق ؛ كما تعنى نوعا من المساواة أمام ديان واحد ، الكل له عبيد ، والكل أمامه سواء . لا بل إن « شهادة أن لا إله إلا الله » وهى من أخص المشاعر الاعتقادية ، لتعنى منهجا كاملا للحياة يقوم على التحرر الوجدانى من كل عبودية لغير الله . هذا التحرر الذى هو الخطوة الأساسية لتحقيق مجتمع صالح كريم ، الكل فيه متساوون .

وعلى أية حال فلن يرتاب باحث فى هذا الدين ، فى أن فكرة المجتمع واضحة بارزة فى شعائره ونظمه على السواء ؛ وأنها الفكرة الأولى القوية الشائعة فى كيانه كله . فإذا

---

(١) سورة النساء [٦٥] . (٢) سورة الحشر [٧] (٣) سورة المائدة [٤٤]

شاهدنا فى بعض العصور محاولة لتضخيم الجانب التعبدى فى هذا الدين وعزله عن الجانب الاجتماعى ، أو عزل الجانب الاجتماعى عنه ، فتلك آفة العصر لا آفة الدين .

وليس هذا الذى نقوله عن الإسلام بدعاً نبتدعه ، ولا تأويلا جديداً لحقيقته ؛ إنما هو الإسلام كما أبان عن وجهته ، وكما فهمه صاحبه الأول — محمد صلى الله عليه وسلم — وكما فهمه أصحابه المخلصون له ، والقريبون من منبعه الأصيل .

جاء فى القرآن الكريم : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ . ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللهِ [١] » وكلنا يعلم كم تستغرق الصلاة المفروضة من الزمن فى اليوم ، وما بقى فللسعى والعمل ؛ فوقت الصلاة نسبة ضئيلة فى حياة الإنسان ، وللمجتمع والحياة ما تبقى طوال الليل والنهار . وجاء فى موضع آخر : « وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا [٢] » لأن الغالب فى النهار هو المعاش لا الشعائر التعبدية .

على أن الإسلام لا يعد العبادة فيه هى مجرد إقامة الشعائر ، إنما هى الحياة كلها متوجها بكل نشاط فيها إلى الله . ومن ثم يعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير فيه عبادة . قال صلى الله عليه وسلم : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار [٣] » .

والحادثتان التاليتان قاطعتان فى الدلالة على روح الإسلام ، كما يفهمه صاحبه رسول الله : عن أنس رضى الله عنه قال : كنا مع النبى فى سفر ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر . قال فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلاًّ صاحبُ الكساء ، فمنا مَنْ يتقى الشمس بيده . قال : فسقط الصوام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب . فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله [٤] » .

---

(١) [illegible] (٣) البخارى والترمذى والنسائى .
(٤) [illegible] .

وعنه أيضاً أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ! قالوا : أين نحن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى [1] » .

ولم يكن ذلك من محمد — وهو أعرف بدينه — استهانة بأمر الصوم والصلاة ؛ ولكن إدراكاً لحقيقة روح هذا الدين ، الذى يعمل للحياة وهو يعمل للعقيدة ؛ فيمزج العقيدة بالحياة ؛ ولا يقف بها فى معزل وجدانى فى عالم الضمير .

وهذا مافهمه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين رأى رجلا يظهر النسك والتماوت ، فخفقه بالدِّرَّة وقال له : « لا تمت علينا ديننا أماتك الله » . أو حين شهد عنده شاهد ، فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنتَ رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى ! قال : نعم ! فقال : اذهب فلست تعرفه ! وقال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك !

فهذه من عمر كتلك من نبيه محمد . فهم صحيح لحقيقة هذا الدين ، ورأيه فى العبادة والسلوك ، وفى العقيدة المستسرة فى الضمير ، والعمل الواضح للعيان : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا [2] » . « وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ

(١) الشيخان والنسائى .

(٢) سورة القصص [٧٧] .

كَثِيراً (١) » . « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ؛ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٢) » . « لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ؛ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ ؛ وَآتَى ٱلْمَالَ - عَلَى حُبِّهِ - ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ؛ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ ؛ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ . . (٣) » . « مَن رأى منكم منكراً فليغيره . . (٤) »

فهذا هو قوام الإسلام فى العمل والاعتقاد . ولا عزلة إذن بين الدين والدنيا ، ولا بين العقيدة والاجتماع، كما كان الحال فى المسيحية المحرفة .

***

والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق ؛ فكل مسلم فى أطراف الأرض، وفى فجاج البحر ، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه ، بلا كاهن ولا قسيس . والحاكم الإسلامى لا يستمد ولايته من الحق الإلهى ولا من الوساطة بين الله والناس ؛ إنما يستمد مباشرته للسلطة من الجماعة الإسلامية ؛ كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة ، التى يستوى الكل فى فهمها وتطبيقها متى فقهوها ، ويحتكم إليها الكل على السواء .

فليس لرجل الدين من حق خاص فى رقاب المسلمين ؛ وليس للحاكم فى رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التى لا يبتدعها هو ، بل يفرضها الله على الجميع . أما فى الآخرة ، فالكل مصيرهم إلى الله : « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (٥) » .

فلا صراع إذن بين رجال الدين والسلطان على رقاب العباد ، ولا أموالهم ؛ وليست هنالك مصالح اقتصادية ولا معنوية يتنازعانها ؛ وليست هنالك سلطة روحية وأخرى زمنية فى الإسلام . فلا مجال للصراع عليها ، كما كان الحال بين الأباطرة والبابوات .

---

(١) سورة الحج [٤٠] (٢) سورة البقرة [١٩٠] . (٣) سورة البقرة [١٧٧] .
(٤) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . (٥) سورة مريم [٩٥] .

والإسلام لا يعادى العلم ولا يسكره العلماء ؛ بل يجعل العلم فريضة مقدسة داخلة فى الطاعات الدينية : « طلب العلم فريضة على كل مسلم [١] » . « من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » [٢] .

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر أو رجال العلم كما عرفتها محاكم التفتش . والمرات القليلة النادرة التى عوقب فيها رجال على أفكارهم، تعد شاذة فى تاريخ المسلمين ؛ وفى الغالب كانت تتلبس بها حالات سياسية ، وتكمن خلفها نزعات حزبية ، وهى على وجه العموم ليست طابعا بارزا للحياة الإسلامية ؛ وقد جاءت على أيدى أناس ينكر عليهم الإسلام أن يكونوا فهمة للإسلام .

وذلك طبيعى فى دين لم يعتمد على الخوارق والمعجزات ؛ ولم يقم على الغيبيات فى صميمه ، إنما قام على المشاهدة والتأمل والنظر فى آيات الكون ، وأسباب الحياة : « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٣] » . « يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُم مِن

(١) ابن ماجه . (٢) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٣) سورة البقرة [١٦٤]

....

فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١) » .

وذلك طبيعي أيضاً فى دين يربط التقوى بالعلم ؛ ويجعل العلم سبيلا إلى معرفة الله وخشيته : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء (٢) » . ويرفع منزلة العلماء على الجهال : « قلْ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٣) » . « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب (٤) »

فلا جفوة إذن بين الدين والعلم ، لافى طبيعة الإسلام ولا فى تاريخه ، كالجفوة التى وقعت بين الكنيسة وأحرار الفكر والعلماء فى عصر النهضة .

فأما وقوف رجال الدين فى صف السلطان وأصحاب المال ، وتخديرهم بالدين للعاملين والمحرومين ، فلا نكران لوقوعه فى بعض عهود التاريخ الإسلامى . ولكن روح الدين الحقيقية تنكر على هؤلاء موقفهم ؛ والدين يتوعدهم بالعذاب والنكال جزاء ما اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . ولقد حفظ التاريخ بجانب سير هؤلاء سيراً لنماذج أخرى من رجال الدين ، الذين لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، والذين جابهوا السلطان وأصحاب المال بحق الفقراء وحق الله ؛ كما حرصوا أصحاب الحقوق على حقوقهم ، وبسوها لهم ، وتعرضوا لظلم الحكام ، وللنفى أحياناً والاضطهاد .

* * *

ليس لدينا إذن سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع ، لامن طبيعته الخاصة ، ولامن ظروفه التاريخية ، كالأسباب التى لازمت المسيحية فى أوربا ؛ فعزلت الدنيا عن الدين ، وتركت للدين تهذيب الضمير وتطهير الوجدان ؛ بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة .

---

(١) سورة الروم [٢٠–٢٤] (٢) سورة فاطر [٢٨] (٣) سورة الزمر [٩]
(٤) [illegible] حديث رواه [illegible] .

كذلك ليست لدينا أسباب حقيقية للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية ، كالتى لابست العداوة بين المسيحية والشيوعية ؛ فالإسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ؛ ويضمن حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ؛ ويضع للحكم وللمال سياسة عادلة ؛ ولايحتاج لتخدير المشاعر،ولا دعوة الناس لترك حقوقهم على الأرض ، وانتظارها فى السماء . بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم الطبيعية ، تحت أى ضغط ، بسوء العذاب فى الآخرة ؛ ويسميهم « ظالمى أنفسهم » : « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ! قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً [1] » . ويحرضهم على القتال لحقهم « ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد [2] » .

فإذا اضطرت أوربا لتنحية الدين عن حياتها العامة ، فلسنا بمضطرين أن نجاريها فى هذا الطريق ؛ وإذا اضطرت الشيوعية أن تعادى الدين لتضمن حقوق الطبقات الكادحة فلسنا كذلك فى حاجة إلى معاداة الدين !

* * *

ولكن من الذى يضمن لنا أن هذا النظام الذى أقامه الإسلام فى عصر تاريخى خاص ، لا يزال يحمل عناصر النمو والتجدد الكفيلة بأن تجعله صالحا للتطبيق فى عصور تاريخية أخرى ، قد تختلف مقوماتها كثيراً أو قليلاً عن مقومات العصر التاريخى الذى نشأ فيه الإسلام ؟

ذلك سؤال فى الصميم .ولهذا لن يكون من المستطاع الإجابة الوافية عنه فى هذا الموضع ، فسنجيب عنه مفصلا وتطبيقاً فيما بعد ، بعد أن نعرض ذلك النظام نفسه . ونحدد أصوله وقواعده ، ونشهد تطبيقاته العملية فى واقع الحياة . ولكن يكفى هنا — ونحن فى صدد التمهيد الإجمالى — أن نقول : إن الإسلام — وهو من صنع بارئ هذا الكون ومنشئ وامبسه ،

---

(١) سورة النساء [٩٧] (٢) رواه النسائى .

والعالم بما يجدّ فيه وما يتطور ـ كان فى حسابه هذا التطور التاريخى ، وما يترتب عليه من تطور اجتماعى واقتصادى وفكرى عام . وإنه لهـذا وضع الخطوط المجملة ، والمبادىء العامة والقواعد الشاملة التى لا تخرج أطوار الإنسان فى النهاية عن حدودها ؛ وترك التطبيقات لتطور الزمان ، و بروز الحاجات، فى حدود مبادئه العامة، وقواعده الشاملة؛ ولم يدل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا فى المسائل التى لا تتغير حكمتها ، والتى تؤدى أغراضها كاملة فى كل بيئة ؛ وإنه بهذا الشمول وبهذه المرونة، قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مدى الأزمان.

ولقد بذل فقهاء هـذا الدين جهداً ضخما مشكوراً فى التطبيق والقياس والتفريع كفل لأحكام الإسلام أن تساير حاجات المجتمع المتجددة فى ذلك الزمان ، الذى كان المجتمع فيه محكوما بشريعة الإسلام .. ثم وقف هذا الجهد فترة طويلة، فوقف نمو الفقه الإسلامى عنده: حتى دبت فيه الحياة منذ طلائع هذا القرن ، عند ما دبت الحياة فى العالم الإسلامى كله على السواء .

ولم يكن العلاج لتلك الحـال أن ندع ديننا الاجتماعى فى عزلة تعبدية ، ونطلق إلى التشريع الفرنسى نستمد منه القانون ، أو إلى النظريات السياسية الغربيـة نستمد منها نظام الحـكم ، أو إلى النظريات الشيوعية نستمد منها نظام المجتمع ، قبل أن نحاول وصل ما انقطع من التشريع الإسلامى المستمد من الشريعة ، والذى قامت عليه مجتمعاتنا الأولى ؛ وقبل أن نيئس من صلاحية هذه الشريعة لإقامة المجتمع الحديث؛ ذلك أن النمو العضوى الطبيعى لأى نظام فى بيئة من البيئات ، يجعله أصلح بالقياس إلى هذه البيئة ـ على الأقل ـ من كل نظام معتسف غريب على طبيعة هذه البيئة ، لم ينم فيها نموه العضوى الرتيب .

ولـكنه الجهل بحقيقة هذا الدين ، وبطبيعة المجتمعات وقوانين الحياة ، والـكسل العقلى والنفسى عن مراجعة الرصيد القديم ، والتقليد المضحك للاتجاه الأوربى فى فصل الدين عن الحياة ، حيث اقتضت ذلك طبيعة نشأة الدين عندهم دون أن تقتضيها طبيعة نشأة الإسلام ؛ وحيث قامت هنالك الجفوة بين الدين والعلم والدولة لأسباب تاريخية بيناها ، ولا نظير لها فى تاريخ الإسلام .

• وليس معنى هذا أننا ندعو إلى عزلة فكرية وروحية واجتماعية عن ركب الإنسانية . فروح الإسلام تنفر من هذه العزلة ؛ والإسلام رسالة عالمية ونظام عام. ولكننا ندعو إلى مراجعة الرصيد المذخور ، ومعرفة أسسه العامة ، واختبار قدرته على البقاء والصلاحية قبل أن نعمد إلى تقليد مبتسر ، مفقود الأسس التاريخية فى حياتنا ، تضيع فيه شخصيتنا ، ونصبح معه ذيلا للقافلة الإنسانية . ودبننا يدعو إلى أن نكون دائما فى المقدمة : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (١) » . « وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (٢) » .

وقد يتبين لنا بعد المراجعة أن لدينا ما نعطيه لهذا العالم البائس المكدود ، الذى دفعته حضارته المادية الخاوية من الروح، إلى حربين عالميتين فى ربع قرن من الزمان ؛ والذى ما يزال يتخبط فى طريقه إلى حرب ثالثة تنذر حضارته كلها بالبوار .

وإلى هنا أقف فى هذا التمهيد ، فما أحب أن أتعجل القول بصلاحية هذا الدين للمجتمع الحديث استنادا إلى عقيدتى فيه وإدراكى لطبيعته ، قبل أن أكشف للآخرين عن حقيقة موقفه من الحياة الإنسانية ومشكلاتها جميعاً . وبخاصة فى ميدان العدالة الاجتماعية ، التى وقفت عليها هذا الكتاب .

---

(١) سورة آل عمران [١١٠]   (٢) سورة البقرة [١٤٣] .

طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام

لن ندرك طبيعة العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، حتى ندرك فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان . فليست العدالة الاجتماعية إلا فرعاً من ذلك الأصل الكبير، الذى ترجع إليه كل تعاليم الإسلام .

إن الإسلام وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعاً ، لم يعالج نواحيها المختلفة جزافا ، ولم يتناولها أجزاء وتفاريق . ذلك أن له فكرة كلية متكاملة عن الكون والحياة والإنسان؛ يرد إليها كافة الفروع والتفصيلات ؛ ويربط إليها نظرياته جميعاً وتشريعاته وحدوده ، وعباداته ومعاملاته ؛ فيصدر فيها كلها عن هذه الفكرة الجامعة المتكاملة ؛ ولا يرتجل الرأى لكل حالة ؛ ولا يعالج كل مشكلة وحدها فى عزلة عن سائر المشكلات .

ومعرفة هذه الفكرة الكلية للإسلام تيسر للباحث فيه فهم أصوله وقواعده ؛ وتسهل عليه أن يرد الجزئيات إلى الكليات ؛ وأن يتتبع فى لذة وعمق خطوطه واتجاهاته ، ويلحظ أنها متشابكة متكاملة ، وأنها كل لا يتجزأ ، وأنها لا تعمل عملا مثمراً للحياة إلا وهى متكاملة الأجزاء والاتجاهات .

وطريق الباحث فى الإسلام أن يتبين أولا فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان ، قبل أن يبحث عن رأيه فى الحكم أو رأيه فى المال ، أو رأيه فى علاقات الأمم والأفراد . . . فإنما هذه فروع تصدر عن تلك الفكرة الكلية ؛ ولا تفهم بدونها فهماً صحيحاً عميقاً .

والفلسفة الإسلامية الحقة لا تلتمس عند ابن سينا أو ابن رشد أو الفارابى وأمثالهم ممن يطلق عليهم وصف « فلاسفة الإسلام » : ففلسفة هؤلاء إنما هى ظلال للفلسفة الإغريقية

غريبة فى روحها عن روح الإسلام . وللإسلام فكرته الأصيلة الكاملة ، تلتمس فى أصوله النظرية : القرآن والحديث ، وفى سيرة رسوله وسننه العملية . وهذه الأصول حسب أى باحث متعمق ليدرك فكرة الإسلام الكلية التى يصدر عنها فى كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته .

وقد تناول الإسلام طبيعة العلاقة بين الخالق والخلق ، وطبيعة العلاقة بين الكون والحياة والإنسان ، وطبيعة العلاقة بين الإنسان ونفسه ، و بين الفرد والجماعة ، و بين الفرد والدولة ، و بين الجماعات الإنسانية كافة ، و بين الجيل والأجيال . ورد ذلك كله إلى فكرة كلية جامعة ، ملحوظة الخطوط فى سائر الفروع والتفصيلات . . وتلك هى فلسفة الإسلام . . وأنا أوثر أن أسميها « فكرة الإسلام » .

والبحث المفصل فى هذه الفكرة الكلية ليس مجاله هذا الكتاب ، وهو موضوع بحث مفصل أرجو أن يوفق الله إلى إخراجه للوجود . ولكننى سأشير فقط إلى رؤوس موضوعات عامة ، تمهيداً للحديث فى موضوع العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

* * *

لقد ظلت الإنسانية أدهارا طويلة لا تهتدى إلى فكرة شاملة عن الخالق والخلق وعن الكون والحياة والإنسان . ذلك أنها لم تكن قد تهيأت بعد لإدراك مثل هذه الفكرة الكلية الشاملة . . حتى جاء الإسلام .

فأما العلاقة بين الخالق والخلق (الكون والحياة والإنسان) فهى كامنة فى قوة الكلمة فى الإرادة المباشرة التى تصدر عنها المخلوقات جميعاً : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ (١) » فلا واسطة بين الخلق والخالق من قوة أو مادة . فعن إرادته المطلقة تصدر الموجودات صدوراً مباشراً ؛ و بإرادته المطلقة تحفظ وتنتظم وتسير : « يُدَبِّرُ الأَمْرَ

(١) سورة يس [٨٢] .

يُفَصِّلُ الْآيَاتِ [١] » . « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [٢] » . « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [٣] » . « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤] » .

وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة ، وحدة متكاملة ، كل جزء فيها ملحوظ فيه تناسقه مع سائر الأجزاء ؛ ولكل موجود فيه حكمة تتعلق بهذا التناسق الكامل الملحوظ: « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [٥] » . « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [٦] » . « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ . هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ [٧] » . « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [٨] » . « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [٩] » . وهكذا وهكذا يبدو أن لكل موجود حكمة تتناسق مع غاية الوجود ، وأن الإرادة التى يصدر عنها الوجود أولا ، ويحفظ بها وينتظم ثانيا ، تلاحظ فى كل موجود تناسقه ونفعه الكلى للوجود .

ولأن الوجود وحدة متكاملة الأجزاء ، متناسقة الخلقة والنظام والاتجاه ، بحكم صدوره المباشر عن الإرادة الواحدة المطلقة الكاملة ، كان مهيئاً وصالحاً ومساعداً لوجود الحياة بصفة عامة ، ولوجود الإنسان ــ أرقى نماذج الحياة ــ بصفة خاصة ؛ فليس الكون عدواً للحياة ولا عدواً للإنسان ؛ وليست « الطبيعة » بتعبيرنا العصرى الحديث خصماً للإنسان يصارعه ويغالبه ، إنما هى صديق لا تختلف اتجاهاته عن اتجاهات الحياة والإنسان ؛ وليست وظيفة الأحياء أن يصارعوا الطبيعة ، وهم فى أحضانها نشأوا ، وهى وهم من ذلك الوجود الواحد الصادر

(١) سورة الرعد [٢] . (٢) سورة الحج [٦٥] . (٣) سورة يس [٤٠]
(٤) سورة الملك [١] (٥) سورة الفرقان [٢] . (٦) سورة القمر [٤٩] .
(٧) سورة الملك [٣ ، ٤] (٨) سورة فصلت [١٠] . (٩) سورة الروم [٤٨] .

عن الإرادة الواحدة . والإنسان بالذات إنما يعيش فى جو صديق وبين أصدقاء من الموجودات: فالله حين خلق الأرض «جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ». « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (١) » . « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (٢)». « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (٣)» . « خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (٤) » . والسماء بكواكبها جزء من الكون متكامل مع سائر أجزائه ، وكل ما فيها وما فى الأرض صديق ومعاون متناسق مع سائر أفراده . « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً (٥)» . « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً (٦) » .

وهكذا تقرر العقيدة الإسلامية أن الله رب الإنسان قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاونا . أما سبيله إلى كسب هذه الصداقة فهو أن يتأمل هذه القوة ، ويتعرف إليها ويتعاون معها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ، ولم يعرف الناموس الذى يسيرها .

والخالق — مع هذا — لايدع الأحياء والناس لذلك الكون الصديق بلا رعاية مباشرة، وعناية متصلة ؛ فإرادته المباشرة متصلة بالكون كله ، ومتصلة بكل فرد من موجوداته فى الوقت نفسه : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا (٧) » . « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ

---

(١) سورة النحل [١٥] . (٢) سورة الرحمن [١٠] . (٣) سورة الملك [١٥] .
(٤) سورة البقرة [٢٩] . (٥) سورة فصلت [١٢] . (٦) سورة النبأ [٦–١٦] .
(٧) سورة هود [٦] .

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١) » . « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٢) » . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ (٣) » . . . الخ .

ولأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة ؛ ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه ؛ ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة مع الكون . . لم يكن بد إذن أن تكون متعاونة متناسقة فيما بينها . لذلك كانت نظرية الإسلام أن الإنسانية وحدة ، تفترق أجزاؤها لتجتمع ؛ وتختلف لتتسق ؛ وتذهب شتى المذاهب لتتعاون في النهاية مع بعضها البعض ، كي تصبح صالحة لتتعاون مع الوجود الموحد : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (٤) » .

ونظام الحياة الإنسانية لا يستقيم حتى يتم هذا التعاون والتناسق ؛ وتحقيقه واجب لصالح الإنسانية كلها ، حتى ليباح استخدام القوة لإرجاع من يشذ عن هذا النهج إليه : « إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ (٥) » . « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا (٦) » . « وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ (٧) » .

فالأصل هو التعاون والتعارف والتناسق ؛ ومن شذ على هذا الأصل ، فليرد إليه بكل طريق ؛ لأن سنة الكون الكبرى أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات ؛ والتكافل بين الجميع يتفق مع غاية الكون الواحد ، وغاية خالقه الواحد سبحانه .

فإذا نحن وصلنا إلى الإنسان الجنس ، والإنسان الفرد ، فهو وحدة متكاملة ، وقواه

---

(١) سورة ق [١٦] .
(٢) سورة غافر [٦٠] .
(٣) سورة الأنعام [١٥١] .
(٤) سورة الحجرات [١٣] .
(٥) سورة المائدة [٣٣] .
(٦) سورة الحجرات [٩] .
(٧) سورة البقرة [٢٥١] .

المختلفة الظاهر موحدة الاتجاه فى الحقيقة ، شأنه فى ذلك شأن الكون كله ذى القوة الواحدة المتعددة المظاهر .

ولقد ظلت الإنسانية أدهاراً طويلة لا تهتدى إلى فكرة شاملة عن القوى الكونية والإنسانية . ظلت تفرق بين القوى الروحية والقوى المادية ، تنكر إحداهما لتثبت الأخرى ، أو تعترف بوجودهما فى حالة تعارض وخصام ؛ وتصوغ عالميها على أساس أن هناك تعارضاً أساسياً بين هذه القوى وتلك ؛ وأن رجحان إحداهما مرهون بخفة الأخرى ؛ وأنه لامفر من رجحان كفة وخفة كفة ، لأن التعارض فى نظرها أساسى فى فطرة الكون والناس .

والمسيحية التى بين أيدينا اليوم من أظهر الأمثال على فكرة هذا التعارض فى الإنسان ؛ وهى متفقة إلى حد ما فى هذه الفكرة مع الهندوكية ، ثم مع البوذية — على اختلاف بينهما فيها — فخلاص الروح مرهون بكبت الجسد أو بتعذيبه ، أو بإفنائه ، أو على الأقل بإهماله والكف عن لذائذه .

وهذا الأصل الكبير فى المسيحية المحرفة ، وفى الديانات التى تشبهها ، تترتب عليه نزعات كثيرة فى النظر إلى الحياة ومتاعها ، وإلى سلوك الفرد وسلوك الجماعة حيالها ، وفى النظر إلى الإنسان وما يضطرب فى كيانه من قوى وطاقات .

وقد ظلت المعركة قائمة بين هذه القوى وتلك ؛ وظل الإنسان ممزقاً فى هذه المعركة . حيران لا يهتدى إلى قرار .. حتى جاء الإسلام ، فإذ هو يعرض فكرة جديدة كاملة متناسقة . لا عوج فيها ولا اضطراب ، ولا تعارض فيها ولا خصام . جاء ليوحد القوى والطاقات جميعاً . ويمزج الأشواق والنزعات والميول . وينسق بين اتجاهاتها جميعاً ، ويعترف بها وحدة متكاملة فى الكون والحياة والإنسان . جاء ليجمع بين الأرض والسماء فى نظام الكون : والدنيا والآخرة فى نظام الدين ؛ والروح والجسد فى نظام الإنسان . والعبادة والعمل فى نظام الحياة .. ويسلكها جميعاً فى طريق موحد . هو الطريق إلى الله !

فالكون وحدة ، مركبة من الظاهر المعلوم والمغيب المجهول ، والحياة وحدة مركبة من طاقات مادية وطاقات روحية لا ينفصل أبداً إلا وقع الاختلال بينهما والاضطراب

والإنسان وحدة مركبة من الأشواق الروحية المتطلعة إلى السماء والنزعات الجسدية اللاصقة بالأرض ؛ ولا انفصام بين هذه وتلك فى طبيعة الإنسان ، لأنه لا انفصام بين السماء والأرض أو بين المعلوم والمجهول فى طبيعة الكون ؛ ولا عزلة بين الدنيا والآخرة أو السلوك والعبادة فى طبيعة الدين .

ومن وراء هذا جميعه قوة الأزل والأبد . تلك التى لا أول لها يعرف ، ولا آخر لها بوصف ، تسيطر فى النهاية على الكون والحياة والناس . . إنها قوة الله .

والفرد الفانى يملك أن يتصل بهذه القوة الخالدة ، وهى توجهه فى الحياة ، وهو يستمدها فى الشدائد . يملك أن يتصل بها وهو فى المحراب يصلى و يتطلع إلى السماء ، كما يملك أن يتصل بها وهو فى الأرض يعمل مشغولا بمعاشه ومحياه .

والفرد يملك أن يعمل للآخرة ، وهو يصوم فيمنع عن الجسد كل لذائذه ؛ وهو يفطر فيستمتع بكل طيبات الحياة . ما دام يعمل هذا أو ذلك متوجهاً بقلبه إلى الله .

والحياة الدنيا بما فيها من صلاة وعمل ، وبما فيها من متاع وحرمان ، هى وحدها الطريق إلى الآخرة بما فيها من جنة ونار ، ومن عقاب ورضوان .

إنها الوحدة بين أجزاء الكون وقواه ، والوحدة بين كل طاقات الحياة ؛ والوحدة بين الإنسان ونفسه ، و بين واقعه و رؤاه !

إنها الوحـدة التى تعقد السلام الدائم بين الـكون والحياة ، وبين الحياة والأحياء ، و بين الجماعة والفرد ، و بين أشواق الفرد ونزعاته . وفى النهاية بين الدنيا والدين ، و بين الأرض والسماء .

وهى لا تعقد هذا السلام على حساب الجسد ولا على حساب الروح ، بل تطلق لـكل منهما نشاطه . لتوحد هذا النشاط ، وتتجه به إلى الخير والصلاح والنماء .

ولا تعتدى على حساب الفرد أو على حساب الجماعة ، أو لحساب طائفة على طائفة ، أو لحساب جنس على جنس ، تعطى كل حقوقه وتكلف كل واجباته على قدم العدل والمساواة .

والفرد والجماعة والطائفة والأمة والجيل والأجيال كلها يحكمها قانون واحد ، ذو هدف واحد : أن ينطلق نشاط الفرد وأن ينطلق نشاط الجماعة ـ غير متعارضين ـ وأن يعمل الجيل وتعمل الأجيال لبناء الحياة و إنمائها ، والتوجه بها إلى خالق الحياة .

* * *

الإسلام دين الوحدة بين القوى الكونية جميعاً فلا جرم هو دين التوحيد : توحيد الإله ، وتوحيد الأديان جميعاً فى دين الله ، وتوحيد الرسل فى التبشير لهذا الدين الواحد منذ فجر الحياة [1] : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ [2] » .

والإسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والسلوك ، والروحيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسماء !

وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه ، وتوجيهاته وحدوده ، وآراؤه فى سياسة الحكم وسياسة المال ، وفى توزيع المغانم والمغارم ، وفى الحقوق والواجبات . وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات .

وحين ندرك هذه الفكرة الكلية فى طبيعة النظرة الإسلامية للكون والحياة والإنسان، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الإسلام .

فهى قبل كل شىء عدالة إنسانية شاملة لا عدالة اقتصادية محدودة ؛ وهى إذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك ،والضمائر والوجدانات. والقيم التى تتناولها هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية على وجه عام . إنما هى هذه ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعاً .

وحينما تنظر المسيحية المحرفة للإنسان من خلال أشواقه الروحية وحدها، وتحاول أن تكبت نزعاته لتطلق أشواقه . وحينما تنظر الشيوعية إلى الإنسان من خلال حاجاته المادية وحدها ؛

---

(١) يراجع فصل القصة فى القرآن من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » مؤلف .
(٢) سورة الأنبياء [٩٢] .

وتنظر إلى الإنسانية ، بل إلى الكون كله ، من خلال المادة بمفردها . . بنظر الإسلام إلى الإنسان على أنه وحدة لا تنفصل أشواقه الروحية من نزعاته الجسدية ، ولا تنفك حاجاته المعنوية عن حاجاته المادية ؛ وينظر إلى الكون والحياة هذه النظرة الشاملة التي لا تعدد فيها ولا انفصام . . وهذا هو مفرق الطريق بين الشيوعية والمسيحية والإسلام !

ثم إن الحياة في نظر الإسلام تراحم وتواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم ، بين المسلمين على وجه خاص ، وبين جميع أفراد الإنسانية على وجه عام . وهي كذلك في نظر المسيحية ، ولكنها لا تقوم على تشريع واضح مرسوم . بينما هي في نظر الشيوعية تنازع وصراع بين الطبقات ، ينتهي إلى انتصار طبقة على طبقة ، فيتم الحلم الشيوعي الكبير ! ومن هنا يبدو أن المسيحية رؤيا في عالم المثال المجرد تلوح للبشر من آفاق السماء ؛ وأن الإسلام هو حلم الإنسانية الخالد ، مجسماً في حقيقة تعيش على الأرض ؛ وأن الشيوعية هي حقد البشرية العارض في جيل من أجيال الناس !

* * *

على هذين الخطين الكبيرين : الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة ، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، يسير الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية ، مراعياً العناصر الأساسية في فطرة الإنسانية ، غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية .

يقول القرآن الكريم عن الإنسان : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (١) » حب الخير لذاته ولما يتصل بذاته . ويقول في وصف الإنسان المتخلف فطرة وطبعاً : « وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ (٢) » . فهو حاضر فيها أبداً . ووردت فيه صورة فنية معجبة لهذه الفطرة البشرية : « قُلْ : لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ، إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ . وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُوراً (٣) » على حين تقرر أن رحمته وسعت كل

(١) سورة العاديات [٨] (٢) سورة النساء [١٢٨] (٣) سورة الإسراء [١٠٠]

شيء . فيبرر بهذه السعة و بذلك الإمساك مدى الشح فى فطرة الإنسان ، لو ترك بلا تهذيب أو توجيه !

وعند ما يضع الإسلام نظمه وتشريعاته ، ونصائحه وتوجيهاته ، لايغفل ذلك الحب الفطرى للذات ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ؛ ولكنه يعالج الأثرة ، ويعالج الشح ، بالتوجيه و بالتشريع ، فلا يكلف الإنسان إلا وسعه ، ولايغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها ، وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال .

و إذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطغى مطامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فإنه من الظلم كذلك أن تطغى الجماعة على فطرة الفرد وطاقته . إنه من الظلم لا لهذا الفرد وحده ، بل للجماعة ذاتها . فتحطيم نشاط الفرد بتحطيم ميوله ونوازعه لايقف أثره السيىء عند حرمان هذا الفرد ماهو حق له ، بل يتجاوزه إلى حرمان الجماعة أن تنتفع بكامل طاقته . ومتى كفل النظام للجماعة حقها فى جهد الفرد وطاقته ؛ ووضع لحرية الفرد ونوازعه وأطماعه الحدود الكابحة ؛ فلا ينبغى أن يغفل حق الفرد فى انطلاق نشاطه ، فى الحدود التى لا تضار بها الجماعة ، ولا يضار بها هذا الفرد ذاته ؛ ولا تصطدم بأهداف الحياة العليا . فالحياة تعاون وتكافل فى نظر الإسلام ، لا حرب وتنازع وخصام ! كما أنها إطلاق للطاقات الفردية والعامة ؛ وليست كبتاً وحرماناً وسجناً . وكل مالس حراماً فهو مباح ؛ والمرء يثاب على كل نشاط حيوى يراعى فيه وجه الله ، و يحقق به الغايات العليا للحياه .

وانفساح المجال فى نظر الإسلام إلى الحياة ، وتجاوزه القيم الاقتصادية البحتة إلى سائر القيم التى تقوم الحياه عليها . . يجعله أقدر على إيجاد توازن وتعادل فى المجتمع . وعلى تحقيق العدالة فى الدائره الإنسانية كلها ؛ و يعفيه من التعسر الضيق للعدالة كما تفهمها الشيوعية . فالعدالة فى نظر الشيوعية مساواه فى الأجور تمنع التفاوت الاقتصادى ــ وإن كانت حين اصطدمت بالتطبيق العملى لم تستطع تنفيذ هذه المساواه الآلية التحكمية ــ والعدالة فى نظر الإسلام مساواه إنسانية ، نظر فيها إلى تعادل جميع القيم ، بما فيها القيمة الاقتصادية البحتة .

وهى على وجه الدقة تكافؤ فى الفرص ، وترك المواهب بعد ذلك تعمل فى الحدود التى لاتتعارض مع الأهداف العليا للحياة .

ولأن القيم فى نظر الإسلام كثيرة متمازجة كانت العدالة فى مجموعها أيسر ؛ لذلك لم يضطر إلى تحتيم المساواة الاقتصادية بمعناها الحرفى الضيق ، الذى يصطدم بالفطرة ، ويتعارض مع طبيعة المواهب المتفاوتة ، ويعوق الاستعدادات الفائقة ، ويسوى بينها وبين الاستعدادات الضعيفة ، ويمنع أصحاب المواهب من إنفاق مواهبهم لخير أنفسهم ، ولخير الأمة ، فيحرم الأمة ، ويحرم الإنسانية نتاج هذه المواهب .

إنه لاجدوى من المغالطة فى أن استعدادات الأفراد الطبيعية ليست متساوية ؛ فنحن إذا غالطنا فى المواهب الكامنة — ولاسبيل للمغالطة فيها عند ماتجرى الحياة العملية مجراها — فإننا لانستطيع أن نغالط فى أن بعض الأفراد يولد باستعدادات فطرية للصحة والاكتمال والاحتمال ، وبعضهم يولد باستعدادات جسدية للمرض والنقص والضعف ، ولاسبيل إلى تسوية جميع الاستعدادات والمواهب ، مادامت الآلة لم تستطع بعد صنع الأحياء ، لتصبهم فى قالب واحد ، على نظام الأجهزة والآلات !

إن إنكار الاستعدادات الجسدية والفكرية والروحية الفائقة هو ضرب من العبث لايستحق المناقشة . فلا بد أن نحسب حسابها ؛ وأن نمنحها الفرصة لتؤتى أقصى مانستطيع من ثمراتها . ثم نحاول بعد ذلك أن نأخذ من هذه الثمرات مانراه لازما لمصلحة المجتمع ، لا أن نقطع الطريق على هذه الاستعدادات فنظلمها بتسويتها بالاستعدادات الضعيفة ، ونغلها عن العمل ، ونبددها على الأمة والإنسانية تبديداً .

ولقد قرر الإسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ؛ ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل : كما وضع فى الميزان قيما أخرى غير القيم الاقتصادية : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١) » . « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا

(١) سورة الحجرات [١٣]

ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(١) » . « ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٢) » .

وهكذا يبدو أن هناك قيما أخرى غير القيم الاقتصادية البحتة ، يحسب الإسلام حسابها؛ ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس ، بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة ، لا على الوسائل المنكرة التى يحرمها الإسلام تحريما (كما سيأتى فى فصل سياسة المال) .

لا يفرض الإسلام إذن المساواة الحرفية فى المال ، لأن تحصيل المال تابع لاستعدادات ليست متساوية . فالعدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضا فيها ، مع تحقق العدالة الإنسانية : بإتاحة الفرص المتساوية للجميع؛ فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ، ولا أصل ولا جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود . و بإدخال القيم الأخرى فى الحساب . و بتحرير الوجدان البشرى تحريراً كاملا من ضغط القيم الاقتصادية البحتة ؛ ووضع هذه القيم فى مكانها الحقيقى المعقول؛ وعدم إعطائها قيمة معنوية ضخمة كالتى تعطاها فى المجتمعات البشرية التى تفقد الإحساس بالقيم المعنوية ، أو تصغر من أهميتها ، وتجعل للمال وحده القيمة الأساسية الكبرى .

و إن الإسلام ليرفض أن يجعل للمال كل هذه القيمة ؛ و يأنف أن تستحيل الحياة لقمة خبز ، وشهوة جسد ، ودراهم معدودات . . . ولكنه فى الوقت ذاته يحتم الكفاية لكل فرد ، وأحيانا ما فوق الكفاية ، ليرفع عنه ضغط العوز . و يحرم الترف الذى يطلق العنان للمتاع والشهوات ، و يخلق الفوارق والطبقات . و يرتب فى الأموال حقوقاً للفقراء بقدر حاجتهم ، و بقدر ما يصلح المجتمع ، و يضمن له التكافؤ والتعادل والنماء . و بذلك لا يغفل جانباً واحداً من جوانب الحياة المادية والشعورية ، الدنيوية والدينية . . دون مراعاته ؛ لتنصهر هذه الجوانب كلها ، وتستحيل وحدة متماسكة ، يصعب إهمال عنصر من عناصرها الممتزجة المتناسقة ؛ ولتنسق وحدتها مع وحدة الكون الكبير ، ووحدة الحياة والإنسان .

---

(١) سورة المجادلة [١١] . (٢) سورة الكهف [٤٦] .

أسس العدالة الاجتماعية فى الإسلام

يقيم الإسلام هذه العدالة الاجتماعية التى كشفنا عن طبيعتها إجمالا ، على أسس ثابتة ؛ ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة ؛ فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجملة ، فهو بطبيعته دين تنفيذ وعمل فى واقع الحياة ، لا دين دعوة وإرشاد مجردين فى عالم المثال .

وقد رأينا هناك إجمالا أن للإسلام فكرة أساسية عن الكون والحياة والإنسان ؛ وأدركنا أن فكرة « العدالة الاجتماعية » متأثرة بتلك الفكرة الأساسية ، داخلة فى إطارها العام : وأن طبيعة نظر الإسلام إلى الحياة الإنسانية ، تجعل العدالة الاجتماعية عدالة إنسانية ، ولا تقف عند الماديات والاقتصاديات ، وأن القيم فى هذه الحياة مادية معنوية فى الوقت ذاته ، لا يمكن الفصل بين صفتيها المتحدتين ؛ وأن الإنسانية وحدة متكافلة متناسقة ، لا جماعات متعارضة متنافرة .

وربما بدا فى بعض الأحيان أن الواقع يخالف هذه الفكرة الأساسية للإسلام ، فيجب أن نعرف أولا ما هو هذا الواقع ؟

إن الواقع الذى يعده الإسلام حقيقة، ليس واقع فرد،ولا واقع شعب ، ولا واقع جيل .. فهذا إنما هو الواقع الصغير المحدود الموقوت ، الذى تقف عنده مدارك الأفراد البشريين العابرين ، حين يكفون بصرهم عن الاستشراف لما هو أكبر وأشمل فى حياة البشرية الكبرى وحياة الكون كله منذ الأزل إلى الأبد . وأما الإسلام فإنه يمد ببصره إلى جميع الآفاق ؛ ويحسب حسابا لجميع المصالح ؛ ويهدف إلى تحقيق غاية تشمل الإنسانية كلها منذ البدء إلى النهاية . فما يبدو تعارضا فى الواقع المحدود ، قد لا يبدو كذلك حين نتجاوزه إلى الواقع الشامل . واقع الإنسانية كلها لا واقع فرد ولا شعب ولا جيل .

وهذه النظرة الكلية البعيدة الأهداف إلى العدالة الاجتماعية ، هى التى تفسر لنا فيما بعد نظما عدة فى الإسلام ، لا تفهم حق الفهم إذا هى أخذت جزئيات وتفاريق ؛ وإذا حسب فيها حساب الفرد وحده فى جماعة ، أو حساب الجماعة وحدها فى شعب ، أو حساب الشعب وحده فى جيل ، أو حساب الجيل وحده فى أجيال . . . وهى التى تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الإرث ، ونظام الزكاة ، ونظام فريضة التركات ، ونظام الحكم ، ونظام المعاملات . . . إلى آخر ما يتضمنه الإسلام من نظم ، تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك كله ، فسنقتصر إذن على تناول الأسس العامة التى أقام عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية ، فى حدود فكرته الكلية . وسنرى من طبيعتها أن الإسلام قد نظر إلى وحدة الروح والجسد فى الفرد ، وإلى وحدة المعنويات والماديات فى الحياة . كما نظر إلى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة فى الشعب الواحد ، ووحدة الغاية بين الشعوب الإنسانية ، ووحدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصالح القريبة المحدودة .

هذه الأسس التى أقام عليها الإسلام العدالة هى :

١ ـ التحرر الوجدانى المطلق .

٢ ـ المساواه الإنسانية الكاملة .

٣ ـ التكافل الاجتماعى الوثيق .

فلنفرد لكل أصل من هذه الأصول كلمة نكشف عن طبيعته وغايته.

التحرر الوجدانى

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ، ما لم تستند إلى شعور نفسي باطن ، باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة إليها ، وبعقيدة فى أنها تؤدى إلى غاية إنسانية عليا ؛ وما لم تستند كذلك إلى واقع مادى يهيىء للفرد أن يتمسك بها ، ويحتمل تكاليفها ويدافع عنها . ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور . ولن تحافظ الجماعة على التشريع إن وجد ، إلا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وإمكانيات عملية تؤيده من الخارج . . وهذا ما فطن إليه الإسلام فى توجيهاته وتشريعاته جميعاً .

وتذهب المسيحية إلى أن التحرر الوجدانى من لذائذ الحياة وشهواتها ، والتوجه إلى ملكوت الرب فى السماء ، واحتقار الحياة الدنيا ، كفيل بأن يضمن للإنسان حريته ، وللضمير سعادته . وهذا حق . ولكنه ليس الحق كله . فدوافع الحياة لا تقهر فى جميع الأحوال ، وضروريات الحياة الواقعة لا تغلب أبد الدهر ؛ ولابد أن يخضع الإنسان لضغطها فى أكثر الأحيان .

على أن قهر دوافع الحياة وكبتها ليس خيراً دائما ؛ فالله خالق الحياة لم يخلقها عبثا ؛ ولم يخلقهاليعطلها البشر ويقفوا نموها . وإنه لمن الخير أن يسمو الإنسان على ضروراته ، وأن يرتفع على شهواته ؛ ولكنه ليس من الخير أن يعطل الحياة ذاتها بذلك السمو وهذا الارتفاع .

فإذا كان هناك طريق لأن تنطلق القوى المكنونة فى كيان البشرية ؛ وأن يرتفع الإنسان على الخضوع المذل لضروراته ، فذلك هو الطريق الأقوم والأسلم . وهذا ما هدف إليه الإسلام وهو يوحد ضرورات الجسد وأشواق الروح فى نظام ؛ ويكفل التحرر الوجدانى بالشعور الباطن والإمكان الواقع ، ولا يغفل عن هذا أو ذاك .

وتذهب الشيوعية إلى أن التحرر الاقتصادى وحده كفيل بالتحرر الوجدانى ؛ وأن ضغط الاقتصادى على الفرد هو الذى يجعله يتخلى عما تكفل له القوانين النظرية أحيانا من عدالة ومساواة . . وهـذا حق . ولكنه ليس الحق كله . فالتحرر الاقتصادى ذاته لا يكفل له البقاء فى المجتمع إلا بالتحرر الوجدانى من داخل الضمير . فهو عرضة لضغط آخر. ضغط الضرورات والاستعدادات والميول ، التى لا تكفى التشريعات وحدها لمقاومتها . والفرد الذى تقعد به استعداداته الطبيعية عن مجاراة الآخرين فى الإنتاج ، وعن مجاراتهم فى التطلع والطموح . . هـذا الفرد لابد أن يفقد حرصه على المساواة ، التى قد يكفلها له القانون ، لإحساسه الباطن بأنه أقل من سواه ، ولو تبجح فترة وكابر . والفرد ذو الاستعدادات الفائقة والنتاج الموفور ، لابد أن يغالب قانون المساواة المطلقة ، فإن لم يستطع حقد عليه وحنق ؛ فإما أن يتمرد ، وإما أن يخبو ذكاؤه ، وتنكمش استعداداته ، ويقل نتاجه.

فأما حين تستند المساواة إلى تحرر وجدانى عميق ، كما تستند إلى التشريع والتنفيذ ، فإن الشعور بها يكون أقوى عند القوى وعند الضعيف . إنها تستحيل فى الضعيف تساميا ، وفى القوى تواضعاً ؛ وتلتقى فى النفس بالعقيدة فى الله ، وفى وحدة الأمة وتكافلها ، بل فى وحدة الإنسانية وتضامنها . . وهذا ماهدف إليه الإسلام حين حرر الوجدان البشرى تحريراً مطلقاً كاملا ؛ بعد ما كفل فى الوقت ذاته حاجات الجسد ، وضرورات الحياة ، بحكم القانون ، وبحكم الضمير سواء .

* * *

لقد بدأ الإسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لأحد غير الله . فما لأحد عليه غير الله من سلطان ؛ ومامن أحد يميته أو يحييه إلا الله ؛ وما من أحد يملك له ضراً ولا نفعاً ؛ وما من أحد يرزقه من شىء فى الأرض ولا فى السماء ؛ وليس بينه وبين الله وسيط ولاشفيع ؛ والله وحده هو الذى يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولالغيرهم شيئاً .

« قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » (١) .

و إذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه الجميع إليه : فلا عبادة لسواه ، ولا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على أحد إلا بعمله وتقواه :

« قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » (٢) .

ويحرص الإسلام على هذا المعنى حرصاً شديداً ؛ فيتكىء عليه القرآن في مناسبات شتى . ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه إليهم الناس بشيء من العبادة ، أو ما في معناها على وجه من الوجوه ، فقد عنى الإسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريراً كاملاً .

يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ » (٣) .

ويخاطب هذا النبي في صراحة قوية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » (٤) . كما يخاطبه في موضع آخر بما يشبه التهديد : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا . إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً » (٥) .

ويأمره أن يجهر بحقيقة موقفه جهراً : « قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ : إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » (٦) .

ويتحدث عن ألوهية عيسى ابن مريم ، فيصمهم بالكفر والسخف : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ

---

(١) سورة الإخلاص . (٢) سورة آل عمران : [٦٤] . (٣) سورة آل عمران : [١٤٤] .
(٤) سورة آل عمران : [١٢٨] (٥) سورة الإسراء : [٧٤ ، ٧٥] .
(٦) سورة الجن . [٢٠ ـ ٢٢] .

قَالُوا: إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ؟! [١] » .

ويقول عن المسيح في موضع آخر : « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » [٢] .

ويعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة يستجوب فيه عيسى ابن مريم عما زعمه بعض الناس عنه من ألوهية ؛ ويثبت براءة عيسى من هـذا الزعم الذى لا يد له فيه ، فى أسلوب قوى أخاذ : « وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ : يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » [٣] .

وهكذا . وهكذا . يستمر القرآن فى توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها ، ليصل إلى تحرير الوجدان البشرى من كل شبهة شرك فى ألوهية أو قداسة ، قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، إن يكن نبياً أو رسولا ، فإنه عبد من عباده لا إله !

فإذا انتفى أن يكون عبد بذاته أميز عند الله من عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ؛ فلا كهانة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ، يتصل شخصه الضعيف الفانى بقوة الأزل والأبد ، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمتها وعنايتها وعطفها ، فيشتد إيمانه وتقوى معنويته .

والإسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة، وإشعار الفرد أنه يملك الاستعانة

(١) سورة المائدة : [١٧].
(٢) سورة الزخرف : [٥٩].
(٣) سورة المائدة : [١١٦ـ١١٨] .

بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار. « اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ » (١) « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (٢) . « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (٣) . « قُلْ: يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » (٤) .

وقد شرع الإسلام خمس صلوات، يقف فيها العبد كل يوم أمام ربه، ويتصل فيها المخلوق بخالقه، فى أوقات منظمة، غير ما يعن له هو أن يقف أمام إلهه، أو يتصل به فى توجهه ودعائه.

وليس الغرض من الصلاة أو الدعاء ألفاظا وحركات، بل القصد هو التوجه الكامل بالقلب والفكر والجسد فى وقت واحد إلى الله، تمشياً مع فكرة الإسلام الكلية عن وحدة الإنسان فى كونه، ووحدة الخالق فى ألوهيته: « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (٥) .

* * *

فإذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والقداسة لعبد من عباد الله، وامتلأ بالشعور بأنه على اتصال كامل بالله، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة . . . وهو شعور خبيث يغض من إحساس الفرد بنفسه؛ وقد يدعوه إلى قبول الذل، وإلى التنازل عن كثير من كرامته، وكثير من حقوقه. ولكن الإسلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة، وأن يبث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق، والمحافظة على العدل؛ وأن يضمن بذلك كله ــ علاوة على التشريع ــ عدالة اجتماعية مطلقة، لا يفرط فيها إنسان . . لهذا كله يعنى عناية خاصة بأن يقاوم الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق

(١) سورة الشورى : [١٩].
(٢) سورة البقرة : [١٨٦].
(٣) سورة يوسف : [٨٧].
(٤) سورة الزمر : [٥٣].
(٥) سورة الماعون : [٤ــ٥]

وعلى المسكانة ، فالحياة بيد الله ، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة ، بل ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص منها نفساً واحداً من أنفاسها ، كذلك ليس له أن يخدشها خدشاً خفيفاً بضرر خفيف :

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، كِتَاباً مُؤَجَّلًا » (١). « قُلْ : لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا » (٢) . « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٣) .

وإذن فلا كان الجبن والجبناء ، والحياه والأجل ، والنفع والضر بيد الله دون سواه : « قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » (٤) . « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » (٥) . « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » (٦) . « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللهُ » (٧) . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ » (٨) . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » (٩) . « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » (١٠) .

ويقرر القرآن أن خوف الفقر إنما هو من إيحاء الشيطان ، ليضعف النفس ، ويصدها

(١) سورة آل عمران : [١٤٥] .
(٢) سورة التوبة : [٥١] .
(٣) سورة يونس : [٤٩] .
(٤) سورة الأنعام : [١٤] .
(٥) سورة الرعد : [٢٦] .
(٦) سورة العنكبوت : [٦٠] .
(٧) سورة يونس : [٣١] .
(٨) سورة فاطر : [٣] .
(٩) سورة الأنعام : [١٥١] .
(١٠) سورة التوبة : [٢٨] .

عن الثقة فى الله ، وعن الثقة فى الخير : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١) .

و إذن فلا يجوز أن يذل الاسترزاق رقاب الناس ، فإنما رزقهم بيد الله ؛ و بيد الله وحده ؛ ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان ، ولا أن يضيق عليه فى الرزق شيئاً . وهذا لا ينفى الأسباب والملابسات ، ولكنه يقوى القلب و يشجع الضمير ، و يجعل الفقير المسترزق يواجه من يظن أن بيده رزقه بكل قوة و بكل شجاعة ، فلا يقعده شعور الخوف عن المطالبة بحقه ، وعن الاعتزاز بنفسه ، و يدعوه إلى ترك بعض أجره أو بعض كرامته ، احتفاظاً برزقه . وعلى هذا النحو يجب أن نفهم توجيه القرآن واتجاه الإسلام ، فهذا هو الفهم الحق الذى يتمشى مع فكرته العامة فى التوجيه والتشريع .

والخوف على المركز والمكانة قد يكون عدلا للخوف من الموت والأذى ، والخوف من الفقر والعيلة . والإسلام يحرص على أن يتحرر الفرد من هذا الخوف أيضاً ، فلن يملك مخلوق لمخلوق فى هذا الأمر شيئاً :

« قُلِ : اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢) . « قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » (٣) . « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ » (٤) . « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً (٥) » « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٦) » .

---

(١) سورة البقرة : [٢٦٨] .
(٢) سورة آل عمران : [٢٦] .
(٣) سورة المؤمنون : [٨٨-٨٩] .
(٤) سورة آل عمران : [١٦٠] .
(٥) سورة فاطر : [١٠] .
(٧) سورة المنافقون : [٨] .

و إذن فلا خوف من هذه الناحية أيضا ، فإن القدرة لله وحده ، و إن العزة لله جميعاً: « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » (١) .

* * *

ولكن النفس البشرية قد تتحرر من عبودية القداسة ، ومن عبودية الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة ؛ ثم تتأثر بعبودية القيم الاجتماعية . قيم المال والجاه والحسب والنسب ، ولو لم ينلها منها نفع ولا ضر . فإذا استشعر الوجدان عبودية معنوية لأية قيمة من هذه القيم ، فلن يملك حريته كاملة إزاءها ، ولن يشعر بالمساواة الحقة مع أصحابها . وهنا يتصدى الإسلام لهذه القيم جميعاً ، فيضعها فى موضعها الحقيقى بلا إغفال ولا مغالاة ، ويرد القيم الحقيقية إلى اعتبارات معنوية ذاتية ، كامنة فى نفس الفرد ، أو واضحة فى عمله . و بذلك يضعف تأثير تلك القيم المادية ، وتضؤل آثارها النفسية ؛ فيكون هذا ـ بجانب ما يكفله الإسلام من ضمانات معيشية وقانونية ـ وسيلة للتحرر الوجدانى الكامل :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (٢). والكريم عند الله هو الكريم حقاً وصدقاً.

« وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قل : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » (٣) .

فليكونوا أكثر أموالا وأكثر أولاداً ، فما لهذا من قيمة تجعل لهم ميزة أو استعلاء : « إلا من آمن وعمل صالحاً » فالإيمان ، وهو قيمة مكنونة فى الضمير ، والعمل الصالح وهو قيمة بارزة فى الحياة ، هما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار .

---

(١) سورة الأنعام : [١٨] . (٢) سورة الحجرات : [١٣] . (٣) سورة سبأ : [٣٥ـ٣٧] .

والإسلام لا يغضُّ مع هذا من قيمة المال ولا من قيمة الأبناء : « المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . زينة ولكنهما ليسا قيمة من قيمها التى ترفع وتخفض : « والباقياتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا »(1) .

و يضرب القرآن للقيم المادية والقيم المعنوية مثلاً فى نَفْسَىْ رجلين ، لايدع مجالًا للشك فى إيثار إحداهما على الأخرى ، فى الوقت الذى يرسم صورة واضحة قوية للنفس المؤمنة ، وحقيقة القيم فيها :

« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ـ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ـ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ لٰكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّى ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ . إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ؛ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ـ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ـ وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا »(2) .

وهكذا يبرز اعتزاز المؤمن بإيمانه ، واستهانته بتلك القيم التى اعتز بها صاحبه وهو يحاوره . ومما لفت النظر أن صاحبه هذا المعتز بجنته لم يظهر الشرك بالله ، ولكن القرآن

(1) سورة الكهف : [٤٦] .
(2) سورة الكهف : [٣٢ ــ ٤٣] .

عدّه مشركاً ، وجعله يعترف بإشراكه فى النهاية . ذلك أنه أشرك قيمةمادية صرفة ، وجعل لها هذا الاعتبار فى وجدانه . والمؤمن الحق لا يشرك بالله شيئا .

وفى قصة « قارون » يعرض صورتين نفسيتين بإزاء فتنة المال والثراء : صورة لنفوس تزدهيها هذه القيم فتضعف وتتضاءل ، وتحس بالصغر أمام الأغنياء ؛ وصورة لنفوس مؤمنة تعتز وتقوى ولاتصغر أو تضعف أبدا : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ؛ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ . إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ؛ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ ؟ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَيْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »(١) .

ويرتب الإسلام على نظرته هذه نتائجها ؛ فينهى الله نبيه محمداً أن يعطى قيمة لما يتمتع به بعضهم من متاع خلاب :

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ »(٢) .

---

(١) سورة القصص [٧٦ — ٨٢] . (٢) سورة طه : [١٣١] .

و يفهم بعضهم أن هذه الآيةونظائرها إنما تدعو إلى ترك الأغنياء لغناهم ، ورضى الفقراء بأوضاعهم . وهو فهم خاطىء لا يلتفت إلى روح الإسلام العامة . وهو تفسير المحترفين من رجال الدين فى عصور الاستبداد لتنويم الشعور العام ، وكفه عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية. وعليهم وزرهم ، والإسلام من تأويلهم برىء . فإنما جاءت هذه الآية وأمثالها لرد اعتبار القيم الإنسانية ؛ ولإنقاذ أنفس الفقراء مما يلحقها من ضعف أو انكسار أمام القيم المادية البحتة من مال ومتاع .

ومما يؤيد اتجاهنا هذا أمر الله لنبيه بألا يقيم وزناً لهـذه القيم ؛ وألا يرتب اعتبارات الناس عليها :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ، تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (١) ». « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٢) » .

وفى هذا المجال تعرض قصة محمد مع الرجل الأعمى الفقير «ابن أمّ مكتوم» ومع «الوليد ابن المغيرة » سيد قومه . تلك القصة التى عتب الله فيها على نبيه عتبا شديدا :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ! كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٣) ».

لقد كانت لحظة حرص بشرىّ ساورت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ طمعا فى أن يهدى الله الوليد إلى الإسلام ؛ وكان بأمره مشغولا حينما جاءه ابن أم مكتوم يطلب شيئا من القرآن ، و يدعوه مرة ومرة ، وهو بأمر الوليد مشغول ؛ فتضايق منه النبى وعبس فى وجهه ؛

(١) سورة الكهف : [٢٨].
(٢) سورة التوبة : [٥٥].
(٣) سورة عبس : [١ـ١٢].

فعاتبه ربه هـذا العتاب القاسى ، الذى كاد يبلغ حد التأنيب ؛ تصحيحاً للقيم التى يعتز بها الإسلام ، وتحقيقاً لنهجه الصحيح ، واتجاهه القويم ، فى تحرير الوجدان .

* * *

وأخيراً فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ؛ ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ؛ ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ؛ ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة للذاتها وشهواتها ، مستذلة لمطامعها وأهوائها ؛ فيأتى لها القيد من داخل حين تنفلت منه من خارج ؛ فلا تبلغ التحرر الوجدانى الـكامل الذى يريده الإسلام لها ، ليحقق لها العدالة الاجتماعية الإنسانية الـكبرى .

والإسلام لا يغفل هذا الخطر الـكامن على التحرر الوجدانى ، فيلقى إليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارها ؛ وتدل على اهتمامه بكل استعداداتهـا وملابساتها ؛ ويلم بما تلم به المسيحية وتجعله غاية غاياتها :

« قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ ، وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ .. فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ ، وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (١) » .

وهـكذا يجمع فى آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والرغائب ونقط الضعف فى نفس الإنسان ، ليضعها فى كفة ، ويضع فى الـكفة الأخرى حب الله ورسوله ، وحب الجهاد فى سبيله ، لتـكون التضحية كاملة ، والتخلص من أوهاف الشهوات كاملا . فالنفس التى تتحرر

---

(١) سورة التوبة : [٢٤] .

من هذا كله هي النفس التي يتطلبها الإسلام ، ويدعو إلى تكوينها لتستعلي على الضرورات المذلة ، وتملك قياد أمرها ، وتنزع إلى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة .

أو يقول : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ : مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١) » .

وما كان هذا تخديرا ولا دعوة إلى الزهد وترك طيبات الحياة ، كما يحلو لبعضهم أن يفسر القرآن ، أو كما يحلو لبعضهم أن يتهم الإسلام ؛ إنما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز ، ثم لا ضرر بعد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الإنسان ولا تملكه : « قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ! » (٢) . « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » (٣) .

وفي هذا الاتجاه نفسه كانت فريضة الصوم ، لترتفع النفس على ضرورات الفطرة القوية فترة من الوقت ، تقوى بها إرادتها وتستعلي ، ويسمو بها الإنسان على ذاته حين يرتفع على ضروراته .

ويسلك القرآن إلى هذه الغاية شتى السبل ، ومن بينها التحذير الإيحائي من فتنة الأموال والأولاد حين يقول : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » (٤) . وبذلك يتبر عامل الحذر من الاندفاع وراء الضعف البشري بإزاء الأموال والأولاد . فكثيراً ما يؤتى المرء من ناحية حرصه على ماله أو بنيه ، فيقبل ما لم يكن يقبل ، ويخضع لما لم يكن يخضع . ويرتكب ما لم يكن ارتكب . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول : « إِنَّكُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَتُجَبِّنُونَ وَتُجَهِّلُونَ (٥) » .

---

(١) سورة آل عمران : [١٤–١٥] (٢) سورة الأعراف : [٣٢] (٣) سوره القصص : [٧٧] .
(٤) سورة التغابن : [١٥] . (٥) الترمذي .

وبعد ، فلقد يتحرر المرء من كل ما يغض شعوريا من كرامته ، ولكنه يحتاج . يحتاج إلى اللقمة فيذل ، فليس أشد من الحاجة إذلالا ؛ والبطن الجائعة لا تعرف المعانى العالية . ولقد يضطر للاستجداء فتذهب كرامته كلها ضياعا . هنا يتولى الإسلام الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة ؛ ولإزالتها حين توجد : فيجعل للفرد حقه فى الكفاية مفروضاً على الدولة وعلى القادرين فى الأمة ، فرضاً يعاقب عليه فى الآخرة ويقاتل عليه فى الدنيا (وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على التكافل الاجتماعى فى الإسلام) . ثم ينهى عن الاستجداء فيصف جماعة من المسلمين الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ؛ وصف استحسان بأنهم : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » [1] . والنبى صلى الله عليه وسلم يعطى سائلا درهماً ثم يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه [2] » . ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » [3] . فيحض على الاستغناء بوسائل أخرى غير وسيلة الاستجداء التى يراها الإسلام ضرورة مكروهة . أما أموال الزكاة فهى حق : حق يؤخذ ، لا فضل يعطى : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » [4] . حق تأخذه الدولة فتنفق منه فى مصالح المسلمين بما يدفع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصون عزة الوجدان . فإن لم يكف شرعت من الفرائض والوظائف فى أموال القادرين والأغنياء بقدر ما يسد حاجة الضعفاء والفقراء (وسيأتى بيان هذا فى فصل سياسة المال) .

* * *

وكذلك يأخذ الإسلام الأمر من وجوهه كلها ، ومن مناحيه جميعاً ، فيكفل التحرر الوجدانى تحرراً مطلقاً ، لا تقوم على المعنويات وحدها ، ولا على الاقتصاديات وحدها ، ولكن تقوم عليهما جميعا . فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقتها ؛ ويستثير فى الطبيعة

(١) سوره البقرة [٢٧٣] .
(٢) الشيخان واللفظ للبخارى .
(٣) الشيخان .
(٤) سورة الداريات [١٩] .

البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتها ؛ ويدفع بها إلى التحرر الوجدانى كاملا صريحاً . فبغير التحرر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ؛ ولن تتطلب نصيبها من العدالة الاجتماعية ؛ ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها .

وهذا التحرر هو أحد الأسس الركينة لبناء العدالة الاجتماعية فى الإسلام . بل هو الركن الأول الذى تقوم عليه الأركان .

المساواة الإنسانية

إذا استشعر الضمير كل هذا التحرر الوجدانى ؛ فخلص من كل ظل للعبودية ؛ وأمن الموت والأذى والفقر والذل إلا بإذن الله ؛ وأفلت من ضغط القيم الاجتماعية والمالية ؛ ونجا من ذل الحاجة والمسألة ؛ وتسامى على شهواته ومطامعه ؛ وتوجه إلى الخالق الواحد الأحد الذى تتوجه له الجميع بلا استثناء ولا استعلاء ؛ ووجد بعد ذلك كله كفايته من ضرورات الحياة مكفولة له بحكم التشريع والنظام .

إذا استشعر الضمير البشرى هذا كله، فلن يكون فى حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً وقد استشعرها فى أعماقه معنى ، ووجدها فى حياته واقعاً ؛ بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقاً . سيطلب حقه فى المساواة ؛ وسيجاهد لتقرير هذا الحق ؛ وسيحتفظ به حين يناله ؛ ولن يقبل منه بد لا ؛ وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به ، والذياد عنه ، مهما بذل فى ذلك من جهد وتضحية .

ولن يكون الفقير والضعيف وحدهما الحريصين على مبدأ المساواة النابع من الضمير ، المصون بالتشريع ، المكفول بالاكتفاء ؛ بل إن الغنى والقوى سينزلان عنده بحكم استشعار ضميرهما تلك المعانى . التى حرص الإسلام على تقريرها وتثبيتها فيما أسلفنا . . وذلك ما وقع بالفعل فى المجتمع الإسلامى قبل أربعة عشر قرناً ؛ مما سيأتى فى موضعه فى هذا الكتاب .

ولـكن الإسلام مع ذلك لم يكتف بالمفهومات الضمنية المستفادة من التحرر الوجدانى ، فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليـكون كل شيء واضحاً مقرراً منطوقاً . وفى الوقت الذى كان بعضهم يَدَّعى ويُصَدَّق أنه من نسل الآلهة ، وبعضهم يدعى ويُصدَّق أن الدماء التى تجرى فى عروقه ليست من نوع دماء العامة ، إنما هو الدم الأزرق الملوكى النبيل ! وفى الوقت الذى كانت بعض الملل والنحل تفرق الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله فهى مقدسة ، وخلق بعضها من قدميه فهى منبوذة ! وفى الوقت الذى كان الجدل يدور حول المرأة أهى ذات روح أم لا روح فيها ! وفى الوقت الذى كان يباح فيه للسيد أن يقتل عبيده ويعذبهم ، لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة . . .

فى هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر وحـدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا وفى الآخرة ، لا فضل إلا للعمل الصالح ، ولا كرامة إلا للأتقى .

لقد كانت وثبة بالإنسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ؛ ولا تزال إلى هـذه اللحظة قمة لم ترتفع إليها البشر أبداً ذلك أن مافرضته القوانين البشرية نظرياً فى الثورة الفرنسية وما تلاها ، حققه الإسلام عملياً فى صورة أعمق وأعلى قبل نيف وثلاثة عشر قرناً .

كلا ! لم يتسلل الإله أحداً : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » . « وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً : أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْداً ، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً [1] » .

ثم كلا ! ليس هنالك من دم أزرق ، ودم عادى ، وما خلق أحـد من رأس وخلق

---

(١) سورة مريم : [٨٨ـ٩٥] .

آخر من قدم : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ من مَاءٍ مَهِينٍ . فجعلناهُ في قَرَارٍ مَكِينٍ . إلى قَدَرٍ معلومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ[1] » . « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[2] » . « وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا . وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ . إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ[3] » . « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ؛ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ؛ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ[4] » .

ويمضى القرآن يكرر هذا المعنى فى مواضع كثيرة ، ليقر فى خلد « الإنسان » وحدة أصله ونشأته : الجنس كله من تراب ، والفرد – كل فرد – من ماء مهين ؛ ويكرر النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى أحاديثه : أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب[5] كيما يزيد استقرارا فى المشاعر والأخلاد .

فإذا انتفى أن يكون فرد أفضل بطبيعته من فرد ؛ فليس هنالك من جنس وليس هنالك من شعب هو بنشأته وعنصره أفضل – كما لا يزال بعض الأجناس إلى هذه اللحظة يتشدق – كلا . « يا أيها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيراً ونساء[6] » فهى نفس واحدة وزوجها منها ، ومنهما انبثت الرجال والنساء . فهم من أصل واحد ، وهم إخوة فى النسب ، وهم متساوون فى الأصل والنشأة : « يا أيها النَّاسُ إنا خلقناكُمْ من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم[7] » . فليست هذه الشعوب والقبائل لتتفاخر أو تتناكر ، بل لتتعارف وتتآلف . وكلها عند الله

(١) سورة المرسلات : [٢٠–٢٣] .
(٢) سورة الطارق : [٥–٧] .
(٣) سورة فاطر : [١١] .
(٤) سورة المؤمنون : [١٢–١٤] .
(٥) مسلم وأبو داود .
(٦) سورة النساء : [١] .
(٧) سورة الحجرات : [١٣] .

سواء ، لا تتفاضل إلا بالتقوى . وتلك مسألة أخرى لا علاقة لها بالأصل والنشأة ، ذلك أن الناس كلهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

وهذه المساواة تقوم على نظرة إنسانية كاملة مبرأة حتى من العصبية الدينية،فإن الإسلام يمنح المشركين حقوقاً مساوية لحقوق المؤمنين فى الدماء مادام بينهم و بين المسلمين ميثاق : « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ـ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ـ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ[١] ».وهكذا تكون كفارةالقتيل منالمشركين الذين بينهم و بين المسلمين ميثاق هى نفس كفارةالقتيل المؤمن سواء بسواء .

ومما يلاحظهنا أن الإسلام جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة ، مما يدل على أنه يجعل عتق الرقيق إحياء لنفس ، فيه تعويض عن النفس التى ذهب بها القتل الخطأ ، فالرق موت ، أو كالموت ، والعتق حياة ، أو كالحياة فى نظر الإسلام .

أما القتل العمد ، والتمثيل والتشويه ، فإن « النفس بالنفس » لافرق بين أمير وحقير ، ولا بين سيد وعبد . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه[٢] » .

ولقد برىء الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه الحضارة الغربية إلى يومنا هذا . الحضارة التى تبيح للضمير الأمريكى إفناء عنصر الهنودالحمر إفناء منظماً تحت سمع الدول و بصرها ، وتبيح لحكومة جنوب إفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين ، وتبيح لحكومات روسيا والصين والهند إفناء المسلمين .

* * *

---

(١) سورة النساء [٩٢] (٢) الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

ويتعقب الإسلام مظان التفاوت والتفاضل فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعاً . فهذا النبى محمد ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ذاته يكرر هذا المعنى ، أن كان نبياً محبوباً من قومه مبجلا ، فخاف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تسويد أو تفضيل . فها هو ذا يقول لقومه : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله » (١) ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبجيلًا : « من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» (٢) .

ولما كان أهل محمد مظنة أن يفضلوا نبيهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى أنه لا يملك لهم من الله شيئاً : « يامعشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . وياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . . . » (٣) .

وحين أصابت محمداً الإنسان لحظة حرص بشرى ، فانصرف عن الرجل الفقير ابن أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذى يشبه التأنيب ، ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة .

وحين كان بعض ذوى الثراء والأنساب يأنف أن يزوّج أو يتزوّج من الفقراء والفقيرات جاء أمر الله : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٤) .

* * *

فأما بين الجنسين فقد كفل المرأة مساواة تامة مع الرجل من حيث الجنس ؛ ولم يقرر التفاضل إلا فى بعض الملابسات المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة ، مما لا يؤثر على حقيقة

---

(١) البخارى
(٢) أبو داود والترمذى .
(٣) متفق عليه .
(٤) سورة النور [٣٢] .

الوضع الإنسانى للجنسين ؛ فحيثما تساوى الاستعداد والدربة والتبعة تساويا ، وحيثما اختلف شىء من ذلك كان التفاوت بحسبه .

فى الناحية الدينية والروحية يتساويان: « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهوَ مُؤمِنٌ ، فأولٰئك يدخلونَ الجنَّة ولا يُظْلَمونَ نقيرا » [1] . « من عمِلَ صالحاً من ذكرٍ أوْ أُنثى وهوَ مؤمن ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ » [2] . « فاستجاب لهم ربهم أنِّى لا أُضيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أُنثى ؛ بعضُكُم من بعض » [3] .

وفى ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادى يتساويان : « للرِّجال نصيبٌ مِمَّا تركَ الوالِدَانِ والأقربون ، وللنِّسَاءِ نصيبٌ مِمَّا تركَ الوالِدَانِ والأقربونَ » [4] . « للرِّجال نصيبٌ مِمَّا اكتسبوا وللنِّسَاءِ نصيبٌ مِمَّا اكتسبن » [5] .

فأما إيثار الرجل بضعف نصيب المرأة فى الميراث ، فمردُّهُ إلى التبعة التى يضطلع بها الرجل فى الحياة ؛ فهو يتزوج امرأة يكلف إعالتها ، وإعالة أبنائهما ، وبناء الأسرة كله هو مكلف به . فمن حقه أن يكون له مثل حظ الأنثيين لهذا السبب وحده . بينما هى مكفولة الرزق إن تزوجت ، بما يعولها الرجل ، ومكفولة الرزق إن عنست أو ترملت ، بما ورثت من مال ، أو بكفالة قرابتها من الرجال . فالمسألة هنا مسألة تفاوت فى التبعة اقتضى تفاوتاً فى الإرث .

وأما أن الرجل قوام عليها: « الرِّجالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بما فضَّلَ اللهُ بعضهم عَلَى بعض وبما أنفقُوا منْ أموالهم » [6] فوجه التفضيل هو الاستعداد والدربة والمرانة فيما يختص بالقوامة . فالرجل بحكم تخلصه من تكاليف الأمومة يواجه أمور المجتمع فترة أطول، ويتهيأ لها بقواه الفكرية

(١) سورة النساء : [١٢٤] .
(٢) سورة النحل : [٩٧] .
(٣) سورة آل عمران : [١٩٥] .
(٤) سورة النساء : [٧] .
(٥) سورة النساء : [٣٢] .
(٦) سورة النساء : [٣٤].

جميعاً ، بينما تحتجز هذه التكاليف المرأة معظم أيامها ؛ فوق أن تكاليف الأمومة تنمى فى المرأة جانب العواطف والانفعالات ، بقدر ماتنمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير ، فإذا جعلت له القوامة على المرأة فبحكم الاستعداد والدربة لهذه الوظيفة ، فوق أنه المكلف بالإنفاق ؛ وللناحية المالية صلة قوية بالقوامة ؛ فهو حق مقابل تكليف ، ينتهى فى حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف فى محيط الجنسين ومحيط الحياة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة »[1] . هى درجة القوامة التى بينا أسبابها .

فأما حين يرد الأمر إلى الدائرة الإنسانية المجردة من ملابسات الوظائف العملية ، فللمرأة من حق الرعاية أكثر مما للرجل . وهو الحق الذى يقابل حق القوامة : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك »[2] .

ولقد يبدو أن هنالك تفضيلا آخر فى مسألة الشهادة : « واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشُّهداء ، أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما الأخرى »[3] . . . وفى الآية نفسها بيان العلة . فالمرأة بطبيعة وظائف الأمومة تنمو فى نفسها جانب العواطف والانفعالات بقدر ما ينمو فى الرجل جانب التأمل والتفكير كما أسلفنا . فإذا نسيت أو جرفها انفعال ، كانت الثانية مذكرة لها . فالمسألة هنا مسألة ملابسة عملية فى الحياة ، لا مسألة إيثار جنس لذاته على جنس وعدم مساواة .

وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب ؛ وما حقق لها من ضمانات فى الزواج بإذنها ورضاها ، دون إكراه ولا إعضال : « لا تنكح الثيب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت »[4] وفى مهرها : « وآتوهن أجورهن فريضة »[5] . وفى سائر حقوقها الزوجية ، زوجة أو مطلقة : « فأمسكوهن

(١) سورة البقرة [٢٢٨] (٢) الشيخان . (٣) سورة البقرة [٢٨٢]
(٤) الشيخان (٥) سورة النساء [٢٤] .

بمعروف أو سَرِّحُوهُنَّ بمعروفٍ ، ولا تمسكوهُنَّ ضِرارا لِتَعْتَدُوا »[١] . « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »[٢] .

ويجب أن نذكر أن الإسلام ضمن للمرأة هذه الحقوق ، ووفر لها كل هذه الضمانات بروح إسانية خالصة ، ليست مشوبة بضغط الاقتصاديات والماديات . فلقد حارب فكرة أن المرأة عالة يحسن التخلص منها وهى وليده ؛ فحارب عادة الوأد التى كانت معروفة فى حياة بعض القبائل العربية حربا لا هواده فيها ؛ وعالج هذه العادة بنفس الروح الإسانية الخالصة التى ينظر بها إلى البشر، فنهى نهى تحريم عن القتل عامة لم يستثن : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حرَّم اللهُ إِلَّا بالحقِّ »[٣] ونهى بالتخصيص عن قتل الأولاد — وما كان يقتل من الأولاد سوى الإناث : « وَلَا تقتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خشْيَةَ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »[٤] وقدم رزق الأولاد فى هذه الآية لأنهم سبب الخشية من الإملاق ، ليملأ صدور الآباء ثقة برزق الله وكفالته للأولاد قبل الآباء ! ثم استجاش وجدان العدل والرحمة وهو يقول عن يوم القيامة : « وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ : بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ »[٥] فجعل هذا موضع سؤال استنكارى بارز ظاهر فى ذلك اليوم الرهيب .

فالإسلام إذن حين منح المرأة حقوقها الروحية والمادية كان ينظر إلى صفتها الإسانية ، ويسير مع نظرته فى وحدة الإسان : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا »[٦] ؛ وكان يريد رفعها إلى حيث يجب أن تكون شطر « النفس » الواحده .

ويجب إذ نذكر هذا للإسلام ، أن نذكر بجانبه أن الحرية التى منحها الغرب المادى للمرأة لم تنبعث من هذا النبع الإسانى الكريم ؛ ولم تكن دوافعها هى دوافع الإسلام البريئة .

---

(١) سورة البقرة : [٢٣١] . (٢) سورة النساء : [١٩] . (٣) سورة الأنعام : [١٥١] .
(٤) سورة الإسراء : [٣١] . (٥) سورة التكوير : [٨–٩] . (٦) سورة الأعراف : [١٨٩] .

ويحسن ألا ننسى التاريخ ؛ وألا نفتن بالقشور الخادعة التى تعاصرنا اليوم . يحسن أن نذكر أن الغرب أخرج المرأة من البيت تعمل ، لأن الرجل هناك نكل عن كفالتها وإعالتها ، إلا أن يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها !

عندئذ فقط اضطرت المرأة أن تعمل !

ويحسن أن نذكر أنها حين خرجت للعمل انتهز الغرب المادى حاجتها ، واستغل فرصة زيادة العرض ، ليرخص من أجرها ، واستغنى أصحاب الأعمال بالمرأة الرخيصة الأجر عن العامل الذى بدأ يرفع رأسه ويطالب بأجر كريم !

وحين طالبت المرأة هناك بالمساواه ، كانت تعنى أولا وبالذات المساواة فى الأجور لتأكل وتعيش ! فلما لم تستطع هذه المساواة طالبت بحق الانتخاب ليكون لها صوت يحسب حسابه ؛ ثم طالبت بدخول البرلمانات ليكون لها صوت إيجابى فى تقرير تلك المساواة !

ويحسن ألا ننسى أن فرنسا ظلت إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة لا تمنح المرأة حق التصرف فى مالها ـ كما يمنحها الإسلام ذلك ـ إلا بإذن وليها ، على حين منحتها حق الدعارة . كاملا بصفة علنية أو سرية ! وهذا الحق الأخير هو الحق الوحيد الذى حرمه الإسلام المرأة ! لأنه حرمه الرجل كذلك ، رعاية لكرامة الإنسان وشعوره ، ورفعاً لمستوى العلاقات الجنسية أن تكون علاقة أجساد لا تربطها رابطة من بيت ولا أسرة .

ويجب حين نرى الغرب المادى يقدم المرأة اليوم فى بعض الأعمال على الرجل ، وبخاصة فى المتاجر والسفارات والقنصليات وفى الأعمال الإخبارية كالصحافة ونحوها . . يجب ألا نغفل عن المعنى الكريه الخبيث فى هذا التقديم . إنه معنى النخاسة والرقيق فى جو من دخان العنبر والأفيون ! إنه استغلال للحاسة الجنسية فى نفوس « الزبائن » . فصاحب المتجر ، كالدولة التى تعين النساء فى السفارات والقنصليات ، كصاحب الجريدة الذى يدفع بالمرأة إلى النقاط الأخبار والأسرار . . . كل منهم يدرك فيم يستخدم المرأة ؛ ويعرف كيف تحصل المرأة على النجاح فى هذه الميادين ؛ ويعلم ماذا تبذل للحصول

على هذا النجاح ! فإن لم تبذل هى شيئاً ــ وهو فرض بعيد ــ فهو يدرك أن شهوات جائعة ، وعيوناً خائنة ، ترف حول جسدها وحول حديثها ؛ وهو يستغل ذلك الجوع للكسب المادى والنجاح الصغير ! لأن المعانى الإنسانية الكريمة منه بعيد بعيد !

فأما الشيوعية فذات دعوى عريضة فى مساواة المرأة بالرجل . والمساواة هى المساواة فى العمل والأجر . ومتى استوى العمل والأجر ، فقد تحررت المرأة وأصبح لها حق الإباحية كما هو حق للرجل ! لأن المسألة فى عرف الشيوعية لاتعدو المال . فكل الدوافع البشرية ، وكل المعانى الإنسانية ، كامنة فى هذا العنصر وحده من عناصر الحياة !

والحقيقة فى صميمها هى نكول الرجل عن إعالة المرأة ، واضطرارها أن تعمل مثله وفى دائرته لتعيش ، فالشيوعية ــ بهذا ــ هى التكملة الطبيعية لروح الغرب المادية ، الفاقدة للأريحية ، وللمعانى الروحية فى حياة البشرية .

يجب أن نذكر هذا كله قبل أن يخدع أبصارنا الوهج الزائف . فالإسلام قد منح المرأة من الحقوق منذ أربعة عشر قرناً مالم تمنحه إياها فرنسا إلا قريبا جدا . وهو قد منحها حق العمل وحق الكسب الذى منحته لها الشيوعية اليوم ؛ ولكنه أبقى لها حق الرعاية فى الأسرة ، لأن الحياة عنده أكبر من المال والجسد ، وأهدافها أعلى من مجرد الطعام والشراب ؛ ولأنه ينظر إلى الحياة من جوانبها المتعددة ، ويرى لأفرادها وظائف مختلفة ، ولكنها متكافلة متناسقة . وبهذه النظرة يرى وظيفة الرجل ووظيفة المرأة ؛ فيوجب على كل منهما أن يؤدى وظيفته أولا لتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ؛ ويفرض لكل منهما الحقوق الضامنة لتحقيق هذا الهدف الإنسانى العام .

* * *

وأخيراً فإن للجنس البشرى كله كرامته ، التى لا يجوز أن نستذل : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [١] » .. كرّمناهم بجنسهم ، لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم . فالكرامة

---

(١) سورة الإسراء : [٧٠] .

للجميع على سبيل المساواة المطلقة ، فكلهم لآدم . و إذا كان آدم من تراب ، و إذا كان آدم قد كرم ، فأبناؤه جميعاً سواء فى هذا وفى ذاك !

وللناس جميعاً كراماتهم التى لا يجوز أن تلمز ، ولا أن يسخر منها أحد : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . بِئْسَ ٱلِاسْمُ : ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ »[1] . والتعبير العميق الجميل : « ولا تلمزوا أنفسكم » ذو دلالة عجيبة ، فلمز إنسان لإنسان هو لمزه لنفسه ، لأن الناس كلهم من نفس واحدة !

وللناس جميعاً حرماتهم : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ؛ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ؛ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[2] » . « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا[3] » .

وقيمة هذا الإجراء هو إشعار كل فرد بأن له حرمة لا يجوز أن ينتهكها عليه الآخرون ؛ ولا تقل حرمة أحد عن حرمة أحد ؛ فهم فيها سواء ، وهم جميعاً مؤمَّنون .

* * *

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية ، ليؤكد فيها معنى المساواة توكيداً . وما كان فى حاجة كما قلنا لأن يتحدث عن المساواة لفظاً وصورة ، بعد ما حققها معنى وروحا ، بالتحرر الوجدانى الكامل من جميع القيم ، وجميع الملابسات ، وجميع الضرورات . ولكنه يحرص على المساواة حرصاً شديداً ، ويريدها إنسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا سلالة ولا بيت ولا مركز ؛ كما يريدها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها . مما وقفت عنده المذاهب الغربية المادية .

(١) سورة الحجرات [١١] (٢) سورة النور : [٢٧–٢٨] (٣) سورة الحجرات [١٢].

التكافل الاجتماعى

لاتستقيم حياة يذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحرّيته المطلقة إلى غير حد ولا مدى، يغذيها شعوره بالتحرّر الوجدانى المطلق من كل ضغط ، و بالمساواة المطلقة التى لا يحدها قيد ولا شرط ؛ فإن الشعور على هذا النحو كفيل بأن يحطم المجتمع كما يحطم الفرد ذاته . فللمجتمع مصلحة عليا لا بد أن تنتهى عندها حرية الأفراد ؛ وللفرد ذاته مصلحة خاصة فى أن يقف عند حدود معينة فى استمتاعه بحرّيته ؛ لكى لا يذهب مع غرائزه وشهواته ولذائذه إلى الحد المردى؛ ثم لكى لاتصطدم حرّيته بحرّية الآخرين ، فتقوم المنازعات التى لاتنتهى ؛ وتستحيل الحرية جحيماً ونكالاً ؛ و يقف نموّ الحياة وكمالها عند حدود المصالح الفردية القريبة الآماد .

والإسلام يمنح الحرية الفردية فى أجمل صورها ، والمساواة الإنسانية فى أدق معانيها ، ولكنه لا يتركهما فوضى ، فللمجتمع حسابه ، وللإنسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها . لذلك يقرر مبدأ التبعة الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية ؛ و يقرر إلى جانبها التبعة الجماعية التى تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها . وهذا ما ندعوه بالتكافل الاجتماعى .

والإسلام يقرر مبدأ التكافل فى كل صوره وأشكاله . فهناك التكافل بين الفرد وذاته، و بين الفرد وأسرته القريبة ، و بين الفرد والجماعة ، و بين الأمة والأمم ، و بين الجيل والأجيال المتعاقبة أيضاً .

هناك تكافل بين الفرد وذاته ، فهو مكلف أن ينهى نفسه عن شهواتها ؛ وأن يزكيها و يطهرها ؛ وأن يسلك بها طريق الصلاح والنجاة ؛ وألا يلقى بها إلى التهلكة : « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ، فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ؛ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ[١] » . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

---

(١) سورة النازعات : [٣٧ــ٤١] .

وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١) » . « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (٢) وهو مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لاتفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلاينهكها و يضعفها: « وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٣) » ... « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٤) » .

والتبعة الفردية كاملة ، فكل إنسان وعمله ، وكل إنسان وما يكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أوسيئة ، ولن يجزى عنه أحد فى الدنيا ولافى الآخرة : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٥) » . « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٦) » . « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٧) » . « فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٨) » . « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ (٩) » .

و بذلك كله يقف الإنسان من نفسه موقف الرقيب،يهديها إن ضلت ، و يمنحها حقوقها المشروعة ؛ و يحاسبها إن أخطأت ، ويحتمل تبعة إهماله لها . و بذلك يقيم الإسلام من كل فرد شخصيتين ، تتراقبان وتتلاحظان ، وتتكافلان فيما بينهما فى الخير والشر ، فى مقابل منح هذا الفرد التحرر الوجدانى الكامل ، والمساواة الإنسانية التامة . فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان .

* * *

---

(١) سورة الشمس : [٧ــ١٠].
(٢) سورة البقرة : [١٩٥].
(٣) سورة القصص : [٧٧]
(٤) سورة الأعراف : [٣١] .
(٥) سوره المدثر: [٣٨]
(٦) سورة النجم : [٣٦ــ٤١] .
(٧) سورة البقرة : [٢٨٦] .
(٨) سورة الزمر : [٤١] .
(٩) سورة النساء : [١١١].

وهناك تكافل بين الفرد وأسرته القريبة : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا[1] » . « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ »[2] . «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»[3] . « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ »[4] .

وقيمة هذا التكافل فى محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها ؛ والأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، ولا مفر من الاعتراف بقيمتها ؛ وهى تقوم على الميول الثابتة فى الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة ؛ كما أنها العش الذى تنشأ فيه وحوله مجموعة الآداب والأخلاق الخاصة بالجنس ، وهى فى صميمها آداب المجتمع الذى ارتفع عن الإباحية الحيوانية والفوضى الهمجية .

ولقد حاولت الشيوعية أن تقضى على الأسرة بحجة أنها تنمى أحاسيس الأثرة الذاتية ، وحب التملك ؛ وتمنع شيوعية الثروة ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد . . . ولكنها فيما يبدو قد فشلت فى هذا فشلا تاما ، فالشعب الروسى شعب عائلى ، وللعائلة مكانها فى نفسه وفى تاريخه ، فوق أن الأسرة نظام بيولوجى ونفسى لا نظام اجتماعى فحسب ، فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيا وأفلح لإنجاب الأطفال . وقد لوحظ أن المرأة التى يتداولها عدة رجال تعقم بعد فترة معينة أو لايصح نسلها . أما من الوجهة النفسية فمشاعر المودة والرحمة تنمو فى جو الأسرة خيراً مما تنمو فى أى نظام آخر ، وتكوين الشخصية يتم فى هذا المحيط خيراً مما يتم فى أى نظام آخر . وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن ، أن

(١) سورة الإسراء : [٢٣-٢٤] .
(٢) سورة لقمان : [١٤] .
(٣) سورة الأحزاب : [٦] .
(٤) سورة البقرة : [٢٣٣] .

الطفل الذى تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتتفسكك ، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون ؛ كما أن الطفل الذى لا والد له يعانى مركب النقص ، ويهرب من هذا الواقع بتخيل والد لاوجود له ، يتصل به فى الخيال ، ويصوره فى شتى الصور والأشكال (١)

وليست العوامل البيولوجية والنفسية وحدها ، فهناك مقتضيات الضرورة والمصلحة التى تربط بين رجل وامرأة لتكوين بيت ورعاية أطفال ، ثم العلاقات التى تربط بين أفراد الأسرة الواحدة ، وتجعل منهم وحدة اجتماعية متعاونة فى الخير والشر ، متكافلة فى الجهد والجزاء ، جيلا بعد جيل . .

ومن مظاهر التكافل العائلى فى الإسلام ذلك التوارث المادى للثروة المفصل فى الآيات التاليات : « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ، فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ . فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ ، وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ، فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ، مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا . فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ، فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَد فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم . مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ (٢) » . « يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ: ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ : إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ، فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ

---

(١) عن « أطفال بلا أسر » تأليف أنا فرويد ودرثى برلنجهام وترجمة الأستاذ محمد بدران ومرى [illegible] .

(٢) سورة النساء : [١١ — ١٢] .

مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ . يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[1] ...

أما الوصية التى أشير إليها فى الآيتين الأوليين فهى لا تتجاوز الثلث بعد وفاء الدين . ولا تكون لوارث لحديث : « لا وصية لوارث[2] » . إنما شرعت لتدارك بعض الحالات التى لا يرث فيها من توجب الصلة العائلية أن يصله المورّث ويبره ؛ ولتكون مجالا لإنفاق شىء من التركة فى وجوه البر والخير .

هذا النظام الذى شرعه الإسلام مظهر من مظاهر التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، و بين الأجيال المتتابعة — فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة لئلا تتضخم تضخما يؤذى المجتمع (وسنتحدث عن هذا فى فصل « سياسة المال ») أما هنا فنكتفى بالقول بأن فى نظام الإرث الإسلامى عدلا بين الجهد والجزاء ، و بين المغانم والمغارم فى جو الأسرة . فالوالد الذى يعمل — وفى شعوره أن ثمرة جهوده لن تقف عند حياته القصيرة المحدودة ، بل ستمتد لينتفع بها أبناؤه وحفدته ، وهم امتداده الطبيعى فى الحياة — هذا الوالد يبذل أقصى جهده ، و ينتج أعظم نتائجه ؛ وفى هذا مصلحة له وللدولة وللإنسانية ، كما أن فيه تعادلا بين الجهد الذى يبذله والجزاء الذى يلقاه . فأبناؤه جزء منه يشعر فيهم بالامتداد والحياة .

أما الأبناء فعدل أن ينتفعوا بجهود آبائهم وأمهاتهم ، إذ الصلة بين الوالدين والأبناء لا تنقطع لو قطعت صلة الميراث المالى ؛ فالآباء والأمهات يورثونهم صفات واستعدادات فى تكوينهم الجثمانى ، والعقلى ؛ وهذه الاستعدادات تلازمهم فى حياتهم ، وتفرض عليهم كثيراً من أوضاع مستقبلهم — إن خيراً و إن شراً — دون أن تكون لهم يد فى رد هذه الوراثة أو تعديلها . ومهما جاهدت الدولة أو جاهد المجتمع فلن يهب طفلا وجهاً جميلا إذا ورّثه أبواه وجهاً قبيحاً ؛ ولن يمنحه سلامة أعصاب ، واعتدال مزاج ، إذا ورثاه اختلالا واضطراباً ؛ ولن يعطيه عمراً طويلا وصحة موفورة ، إذا وَرَّثاه استعدادات للبلى السريع

(١) سورة النساء : [١٧٦].

(٢) رواه صاحب مصابيح السنة وقال : إنه حسن .

والمرض الملازم . . فإذا كان عليه أن يرث هذا كله غير مخيَّر ، فإنه من العدل الاجتماعى أن يرث جهود أبويه المادية أيضا ، ليكون هناك شيء من التعادل بين المغانم والمغارم !

وقد ضرب القرآن مثلاً للتكافل بين الآباء والأبناء فى قصة موسى مع عبد «من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدُنّا علماً» ... « فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ » . وقد قال له موسى : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا »[1] ما دام أهل القرية لم يطعموهما . فكشف له عن السرّ فى تقويته للجدار فقال : « أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » [2] .

وهكذا انتفع الولدان بصلاح الوالد ، وورثا ما خلفه لهما من مال وصلاح . وهذا عدل وحق لا شك فيه .

فأما حين يخشى من حبس المال فى محيط خاص ، فالوسيلة موجودة فى يد الدولة لتعديل الأوضاع؛ والإسلام يكفل هذا التعديل بوسائله الخاصة ؛ كما سيجيء فى فصل « سياسة المال » وفصل « حاضر الإسلام ومستقبله » .

* * *

وهناك تكافل بين الفرد والجماعة ، و بين الجماعة والفرد ، يوجب على كل منهما تبعات ؛ و يرتب لكل منهما حقوقا . والإسلام يبالغ فى هذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما فى النهوض بتبعاته فى شتى مناحى الحياة المعنوية والمادية على السواء .

---

(١) سورة الكهف : [٧٧] . (٢) سورة الكهف : [٨٢] .

فكل فرد مكلف أولا أن يحسن عمله الخاص . وإحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ (١) » .

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها ، موكل بها . والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعاً مسؤولون عن سلامتها ؛ وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً »(٢) وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحدها ، بإزاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية ؛ ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل هذه الأحوال .

وليس هنالك فرد معفى من رعاية المصالح العامّة ، فكل فرد راعٍ ورعية فى المجتمع : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » (٣) .

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حدود البرّ والمعروف : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(٤) . « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (٥) » .

وكل فرد مسؤول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فإن لم يفعل فهو آثم وهو معاقب بإثمه : « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا

---

(١) سورة التوبة : [١٠٥] .
(٢) البخارى والترمذى واللفظ للبخارى .
(٣) الشيخان .
(٤) سورة المائدة : [٢] .
(٥) سورة آل عمران : [١٠٤] .

حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » [1] وعدم الحض على طعام المسكين يُعَدُّ علامةً من علامات الكفر والتكذيب بالدين : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [2] » .

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذي يراه : « مَن رأى منكم مُنْكَراً فليغيِّرْه بيده، فمن لم يستطع فبلسانه : فمن لم يَسْتَطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان » [3] . وهكذا يصبح كل فرد مسؤولا عن كل منكر يقع فى الأمة ولو لم يكن شريكا فيه ، فالأمة وحدة ، والمنكر يؤذيها ، وعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها .

والأمة كلها تؤاخَذ و ينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة إذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها ،فهى مكلفة أن تكون قوّامة على كل فرد فيها : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » [4] . ولو كان فيها الكثيرون لم يفسقوا ، ولكن سكوتهم على الفسق جعلهم مستحقين للتدمير : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [5] » وما فى هذا ظلم ، فالأمة التى تشيع فيها الفاحشة ، ويجهر فيها بالمنكر فلا تغيره ،أمة منحلة متهافتة ، صائرة إلى الزوال ؛ والدمار الذى يصيبها أمر طبيعى ، ونتيجة لازمة .

ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ، ودالت دولتهم ، وذهبت ريحهم، لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [6] » . وفى الحديث : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتْهم علماؤهم فلم ينتهوا ؛ فجالسوهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم (ثم جلس وكان متكئاً فقال) :

---

(١) سورة الحاقة . [٣٠ـ٣٧] .
(٢) سورة الماعون : [١ ـ ٣] .
(٣) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٤) سورة الإسراء : [١٦] .
(٥) سورة الأنفال : [٢٥] .
(٦) سورة المائدة : [٧٨ ـ ٨٩] .

« لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً [١] » فأما المؤمنون حقاً فهم الذين يقول عنهم القرآن : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ [٢] » .

وقد فهم بعضهم من آية : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [٣] » . أنها تجيز السكوت عن رد المنكر و تغييره ، فنبههم أبو بكر رضى الله عنه إلى سوء فهمهم لها قال :

«يا أيُّهَا النَّاسُ إنكم تقرأون هذه الآية . . . و إنكم تضعونها على غير موضعها ، و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » . و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب [٤] » .

وهذا هو التفسير الصحيح الذى ينطبق على مرامى الإسلام . إنما كل مافى الآية هو تقرير التبعة الفردية . والضلال السلبى الذى ليس له أثر إيجابى مسألة تخص صاحبها ؛ وعلى الآخرين أن يحاولوا الهداية ، فإذا لم يهتد الضال فهو وما كسبت يداه .

والأمة مسؤولة عن حماية الضعفاء فيها ؛ ورعاية مصالحهم وصيانتها ، فعليها أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم : « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟ [٥] » . وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً [٦] » . وفى الحديث : « السَّاعى على الأرملة والمسكين

(١) أبو داود والترمذى . (٢) سورة التوبة : [٧١] . (٣) سورة المائدة : [١٠٥] .
(٤) أبو داود والترمذى (٥) سورة النساء : [٧٥] . (٦) سورة النساء : [٦] .

كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل ، الصائم النهار »[١] .

وهى مسؤولة عن فقرائها ومعوزيها أن ترزقهم بما فيه الكفاية؛ فتتقاضى أموال الزكاة وتنفقها فى مصارفها ؛ فإذا لم تكف فرضت على القادرين بقدر مايسد عوز المحتاجين، بلا قيد ولا شرط إلا هذه الكفاية . فإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها تبيت آثمة مالم تتحاض على إطعامه : « كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ، وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ . . يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ! فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ[٢] » . وفى الحديث « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى »[٣] و « من كان معه فضلُ ظَهْرٍ فليعدْ به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له[٤] » . و « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . . . و إن أربع فخامس أو سادس »[٥] .

والأمة الإسلامية كلها جسد واحد ، يحس إحساساً واحداً ، وما يصيب عضواً منه يشتكى له سائر الأعضاء . وهى صورة جميلة أخاذة يرسمها الرسول الكريم فيقول : « مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٦] ، كما رسم للتعاون والتكافل بين المؤمن والمؤمن صورة أخرى معبرة دقيقة : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[٧] » وذلك أسمى مايتصوره الخيال للتعاون والتكافل فى الحياة .

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود فى الجرائم الاجتماعية ، وشددت تشديداً . لأن التعاون

---

(١) الشيخان والترمذى والنسائى (٢) سورة الفجر : [١٧ـ٢٦] .
(٣) المسند للامام أحمد بن حنبل نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر حديث رقم : [٤٨٨٠] .
(٤) مسلم وأبو داود . (٥) متفق عليه (٦) متفق عليه (٧) الشيخان .

لا يقومْ إلا على أساس صيانة حيــاة كل فرد وماله وحرماته : « كُل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » (١) . . . لذلك شرع القصاص فى القتل والجروح جزاء وفاقا . وجعل جريمة القتل كجريمة الـكفر فى العقوبة : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا (٢) » . « وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً » (٣) . « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَٱلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ » (٤) ، وحث على القصاص فجعله حياة للأمة : « وَلَــكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّــكُمْ تَتَّقُونَ » (٥) و إنه لحياة لما فيه من ضمان الحياة بالـكف عن القتل ، و بما فيه من حفظ كيان الجماعة وحيويتها وتماسكها .

وشدد عقوبة الزنا لما فيه من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة فى الجماعة ، ينشأ عنه تفــكــكها بعــد فترة ؛ وتدليس فى الأنساب ، وسرقة لعواطف الآباء بالبنوة المزورة !

شدد هذه العقوبة فجعلها للمحصن والمحصنة الرجم ، ولغير المحصنين والمحصنات الجلد ، وهو متلف فى أحيان كثيرة : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ (٦) » .

وجعل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات و يفترون عليهن ، و يلوثون أعراضهن كذباً ، لأن جريمة الإفك هنا قريبة من جريمة الزنا ، فهى اعتداء على السمعة والعرض ، ونشر للعداوة والبغضاء ، وإشاعة للفاحشة بالسماع :

---

(١) الشيخان .
(٢) سورة النساء : [٩٣] .
(٣) سورة الإسراء : [٣٣] .
(٤) سورة المائدة : [٤٥] .
(٥) سورة البقرة : [١٧٩].
(٦) سورة النور [٢] .

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا (١) » .

وشدد عقوبة السرقة لما فيها من اعتداء على أمن الناس وطمأنينتهم والثقة المتبادلة بينهم ؛ فجعلها قطع اليد : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ (٢) » .

ولقد يستفظع بعضهم هذه العقوبة اليوم حين يقيسها إلى سرقة مال من فرد ؛ ولكن الإسلام إنما نظر فيها إلى أمن الجماعة وسلامتها وتضامنها ؛ كما نظر إلى طبيعة ظروفها ؛ فهى جريمة تتم فى الخفاء ، وجرائم الخفاء فى حاجة إلى تشديد العقوبة ليعدل عنها مرتكبها ، أو ليترك من اضطرابه وخوفه من العقوبة دليلا عليه وعليها !

على أن هذه العقوبة الحازمة لا تنفذ إذا كانت السرقة اضطرارية لدفع غائلة الجوع عن النفس أو الأولاد . فالقاعدة العامة : أن لا حرج على المضطر: « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (٣) ». والحد يدرأ بالشبهة : « ادرأوا الحدود بالشبهات »(٤) والجوع شبهة ؛ وعلى هذا جرى عمر فى خلافته كما سيجىء (٥) .

أما الذين يهددون أمن الجماعة العام فجزاؤهم التقتيل أو التصليب أو تقطيع الأيدى والأرجل أو النفى من الأرض : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ (٦) » . لأن الائتمار والاجتماع على الإفساد والفتنة جريمة أكبر من الجرائم الفردية ، وأحق بالحسم وقسوة العقوبة .

* * *

وهكذا فرض الإسلام التكافل الاجتماعى فى كل صوره وأشكاله . تمشيا مع نظرته

(١) سورة النور : [٤] . (٢) سورة المائدة : [٣٨] (٣) سورة البقرة : [١٧٣] .
(٤) رواه عبد الله بن عباس (كتاب الكامل لابن عدى) . وفى مسند أبى حنيفة للحارثى .
(٥) يراجع فصل الجريمة والعقاب فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .
(٦) سورة المائدة : [٣٣]

الـكبرى فى وحدة الأهداف الـكلية للفرد والجماعة ؛ وفى تناسق الحياة وتـكاملها . فيدع للفرد حرية كاملة فى الحدود التى لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ؛ ويجعل للجماعة حقوقها ، ويكلفها من التبعات فى الوقت ذاته كفاء هـذه الحقوق ؛ لتسير الحياة فى طريقها السوىّ القويم ، وتصل إلى أهدافها العليا التى يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء.

* * *

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجدانى المطلق ، والمساواة الإنسانية الـكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق ، تقوم العدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الإنسانية .

وسائل العدالة الاجتماعية فى الإسلام

من داخل النفس لا من خارجها يعمل الإسلام ، ومن أعماق الضمير لا من السطح يحاول الإصلاح ؛ ولكنه لا يغفل أبدا عن الواقع العملى فى محيط الحياة ؛ ولا عن حقيقة النفس البشرية ، وما يعتورها من ارتفاع وهبوط ، وتطلع وانكماش ، وأشواق طائرة وضرورات مقيدة ، وطاقة محدودة على كل حال ، دون الكمال المطلق فى جميع الأحوال .

وعلى قدر علمه العميق بأغوار النفس البشرية يشرع ويوجه؛ويصوغ أوامره ونواهيه ؛ ويضع حدوده وينفذها ؛ ثم يهتف للضمير البشرى أن يتسامى فوق التكاليف المشروعة ما استطاع .

والحياة تصبح ممكنة وصالحة إذا نحن نفذنا التكاليف المشروعة فى هذا الدين ؛ ولكنها تكون دون الكمال الذى يهدف إليه الإسلام ، ما لم ترتفع بما يوجه إليه الضمير البشرى من تسامح وارتفاع وتسام ؛ فالتوجيه الوجدانى فى هذا الدين هو الجزء المكمل للتكليف التشريعى فيه ؛ ثم هو الكفيل بتنفيذ هذا التكايف عن طواعية ورضى وإقبال ، ويمنح الحياة البشرية قيمتها الإنسانية الكريمة المترفعة عن القيود والضرورات ، وعن ضغط القانون ، ودفع التشريع .

وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة . وأن يكون التشريع وحده هو الذى يكفلها : فجعلها عدالة إنسانية شاملة ، وأقامها على ركيزتين قويتين : الضمير البشرى من داخل النفس . والتشريع القانونى فى محيط المجتمع ، يزاوج بين هذه القوة وتلك ، مفرغا فى الوجدان الإنسانى أعمق انفعالاته

غير غافل عن ضعف الإنسان ، وحاجته إلى الوازع الخارجى كما يقول عثمان بن عفان : يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

وكل من ينظر فى هذا الدين نظرة فاحصة منصفة يدرك الجهد الضخم الذى بذله لتهذيب النفس البشرية من جميع جوانبها وفى جميع اتجاهاتها وملابساتها . فهذا الدين هو الذى يجعل أقصى الثناء على نبيه أن يقول : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١). فالخلق هو الدعامة الأولى لبناء المجتمع المتماسك الركين ، ولاتصال الأرض بالسماء ، والفناء بالخلود ، فى ضمير الإنسان الفانى المحدود .

ولم يبخل الإسلام بثقته على الضمير البشرى بعد تهذيبه ؛ فأقامه حارساً على التشريعات ينفذها ويرعاها ؛ وجعل تنفيذ الكثير منها فى ضمانته ؛ فالشهادة هى أساس إقامة الحدود فى أحوال كثيرة ، وفى إثبات الحقوق كذلك . والشهادة مسألة مردها إلى الضمير الفردى ، وإلى رقابة الله على هذا الضمير : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »(٢). « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ »(٣) . . وحتى عند ما يأمر بالكتابة يجعل الشهادة واجبة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ،

---

(١) سورة القلم : [٤] .
(٢) سورة النور : [٤]
(٣) سورة النور : [٦ـ٩] .

وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ » (١) .

والشهادة واجب وتكليف فى البدء : « وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » (٢) وهى واجب وتكليف عند التقاضى : « وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » (٣) . وهكذا يمنح الثقة للضمير البشرى فى الحدود التى قد تصل إلى الجلد والرجم ، وفى الحقوق المالية على السواء . وهى ثقة لابد منها لتكريم الإنسان ورفعه إلى مستواه المرموق المطلوب .

ولكن الإسلام لم يدع هذا الضمير لذاته ، وهو ينوط به هذه الشؤون الخطيرة ، ويقيمه حارساً على تنفيذ التشريع والتكليف ، ويدعوه إلى السمو فوق ما يوجبه التشريع والتكليف .. لقد أقام عليه رقيباً من خشية الله ، وصوّر له رقابة الله فى صور فريدة رائعة مؤثرة : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٤) .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (٥) . « فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَىٰ » (٦) ...

ولقد بشره وأنذره ، وجعل كل عمل من أعماله محسوباً عليه فى الدنيا والآخرة لامفر من عاقبته ، ولا فكاك من جزائه : « وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا . وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٧) » .

---

(١) سورة البقرة : [٢٨٢] . (٢) سورة البقرة : [٢٨٢]. (٣) سورة البقرة : [٢٨٣].
(٤) سورة المجادلة : [٧] . (٥) سورة ق: [١٦-١٨] .
(٦) سورة طه : [٧] (٧) سورة الأنبياء : [٤٧] .

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ ٱلْإِنْسَانُ مَا لَهَا ؟ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(١) . . . وهكذا وهكذا مما يقيم على هذا الضمير رقابة من الخشية والتقوى ، ويجعله أداة صالحة لرقابة التنفيذ فى كل ما شرع الدين من حدود وتكاليف .

***

على هذا الضمير الذى رباه الإسلام ، وعلى التشريع الذى جاءت به شريعته ، اعتمد فى إرساء قواعد العدالة الاجتماعية . وبهذه الوسيلة المزدوجة نجح فى إنشاء مجتمع إنسانى متوازن متناسق ، سنعرض صوراً منه فى فصل آت . أما الآن فنكتفى باستعراض نموذج من تلك الطريقة فى التشريع والتوجيه ، ونختار موضوع الزكاة والصدقة لعلاقته القوية بموضوع هذا الكتاب .

فرض الإسلام الزكاة حقاً فى أموال القادرين للمحرومين . حقًّا تتقاضاه الدولة بحكم القانون وبقوة السلطان . ولكنه راح يحفز الوجدان على أداء هذا الحق ، حتى يجعل أداءه رغبة ذاتية من القادرين على الأداء .

فالزكاة ركن من أركان الإسلام ، وضرورة من ضرورات الإيمان : « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ »(٢) . « تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ. ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »(٣) .

والمشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤدون الزكاة : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ

(١) سورة الزلزلة : [١ـ٨] .
(٢) سورة المؤمنون : [١ـ٤] .
(٣) سورة النمل : [١ـ٣] .

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ »[١] .

وأداء الزكاة وسيلة من وسائل الحصول على رحمة الله : « وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[٢] .

والنصر من عند الله لمن يؤدون هذا الحق ، ويقومون بواجبهم للمجتمع ، فيستحقون التمكين لهم في الأرض : « وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ[٣] » .

والزكاة شريعة إنسانية خالدة تضمنتها أوامر الأنبياء قبل الإسلام ؛ فلا دين بغير هذا الواجب الاجتماعي العريق . يقول عن إسماعيل : « وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا[٤] » . ويقول عن إبراهيم : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ[٥] » .

والويل لمن لا يؤدي هذا الواجب المفروض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ، يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمته — يعني شدقيه — يقول : أنا مالك أنا كنزك »[٦] . وهي صورة مفزعة مروعة مخيفة .

هذه الزكاة حق مفروض بقوة القانون ، مقدر في المال بحساب معلوم . وبجانبها الصدقة : وهي متروكة لضمير الفرد بلا حساب ؛ وهي وحي الوجدان والشعور ، وثمرة التراحم والإخاء

---

(١) سورة فصلت : [٦ — ٧] .
(٢) سورة النور : [٥٦]
(٣) سورة الحج : [٤٠ — ٤١] .
(٤) سورة مريم : [٥٤ — ٥٥]
(٥) سورة الأنبياء : [٧٢ — ٧٣] .
(٦) البخاري والنسائي .

اللذين عنى بهما الإسلام كل العنـاية ، تحقيقاً للترابط الإنسانى والتـكافل الاجتماعى ، عن طريق الشعور الشخصى بالواجب ، والإحساس النفسى بالرحمـة ، ليبلغ بذلك هـدفين : التهذيب الوجدانى العميق ؛ والتضامن الإنسانى الوثيق . وإن الإسلام ليجعل هذا التراحم إنسانياً خالصاً لاتقف حدوده عند الأخوة الدينية ؛ فيقول القرآن : « لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ»[1]. ويقول الرسول : « ارحموا أهل الأرض يرحمـكم من فى السماء »[2] فيضرب المثل العالى فى التراحم الإنسانى ، الخالص حتى من عصبية الدين .

ثم يخطو الخطوة الـكبرى فيشمل بالرحمة كل من تنبض فيه الحياة . قال نبى الإسلام الـكريم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ؛ فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ؛ فقال الرجل : لقد بلغ هـذا الـكلب من العطش مثل الذى بلغ منى . فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الـكلب ، فشكر الله له ، فغفرله » قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : « نعم ، فى كل كبد رطبة أجر »[3] . وقال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض »[4] .

فالرحمة فى الإسلام أساس الإيمـان وعلامته ، لأنها دليل تأثر الضمير بالدين ، وتغلغله فيه ، كما هى شاهد الروح الإنسانية التى لادين بغيرها فى عرف الإسلام .

وعلى هذا الأساس توجه الإسـلام إلى الصـدقة والبر ، ويحبب فى الإنفاق طوعاً واحتساباً ، وانتظاراً لرضاء الله وعوضه فى الدنيـا ، وثوابه فى الآخرة ، واجتناباً لغضبه ونقمته وعذابه .

(١) سورة الممتحنة : [٨].
(٢) أبو داود والترمذى .
(٣) الشيخان .
(٤) البخارى .

فالبشرى للمخبتين الطائعين لله الذين ينفقون من أموالهم لرضاه : « وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ، ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَٱلصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١) » . وهى صورة مؤثرة فى الوجدان حقا ، يعيد رسمها فى مناسبة أخرى فيقول : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) » .

كما يصور الإيثار صورة جميلة رقيقة فى نفوس أهل المدينة الذين استقبلوا المهاجرين فآووهم وشاركوهم مالهم وبيوتهم فى رحابة صدر وسماحة نفس : « وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ — وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ — وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣) » .

وهى صورة للإنسانية العليا فى أجمل صورها وأبدعها . وهنا صورة لا تقل عنها جمالا ورقة وانعطافاً لجماعة من عباد الله ، نذكر بعض المراجع أنهم علىّ وزوجه فاطمة بنت الرسول وأهل بيتهما : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ — عَلَى حُبِّهِ — مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ، وَدَانِيَةً

---

(١) سوة الحج : [٣٤ — ٣٥] (٢) سورة السجدة : [١٥ — ١٧] .
(٣) سورة الحشر : [٩] .

عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ، وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُوراً ، وَإِذَا رَأَيْتَ ، ثَمَّ ، رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا ، عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ . وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً [١] » .

والصدقة قرض لله مضمون الوفاء : « مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ [٢] » . « إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ [٣] » .

أو هي تجارة رابحة مجزية: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [٤] » .

وعلى أية حال فهي مخلفة وليس فيها خسارة ولا ظلم : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ [٥] » .

والجنة في الآخرة جزاء كريم للمنفقين : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ : ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ، وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ : وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ [٦] » .

---

(١) سورة الدهر : [٧ ــ ٢٢] .
(٢) سوره الحديد : [١١] .
(٣) سوره الحديد : [١٨] .
(٤) سوره فاطر : [٢٩ ــ ٣٠] .
(٥) سورة البقرة : [٢٧٢] .
(٦) سوره آل عمران : [١٣٣ــ١٣٤] .

والصدقة تطهير للنفس والمال ، وقد أمر الرسول أن يأخذ من قوم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم قسطاً من مالهم ينفق في الخير تطهيراً وتزكية لهم : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا . عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١) » .

والإنفاق يتسق مع الوفاء بعهد الله والخشية منه والخوف من سوء الحساب ؛ ويدل على العقل والتبصر . والكف عنه قطع لما أمر الله به أن يوصل ؛ ونوع من نقض العهد والإفساد في الأرض : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ . وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » (٢) .

والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله هالكة : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (٣) : التهلكة الفردية بتعريض النفس للعذاب في الآخرة من الله ، والنقمة في الدنيا من الناس ؛ والتهلكة الجماعية بما يشيعه عدم الإنفاق في المجتمع من تفاوت وظلم ، وفتن وأحقاد ، وضعف وانحلال .

(١) سورة التوبة : [١٠٢ ــ ١٠٤] . (٢) سورة الرعد : [١٩ ــ ٢٥] .
(٣) سورة البقرة : [١٩٥] .

ومنع الخير اعتداء : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ »(١) . « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »(٢) . معتد على حق الله ، وحق الجماعة ، وحق نفسه كعضو فى الجماعة .

والبرّ تؤدى إلى الجنة ويجتاز بالبارّ العقبة إليها . والعقبة هى فك الرقاب ، و إطعام الطعام يوم الجوع والمتربة : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » (٣) .

والكف عن البر تؤدى إلى النار ، و يسلك صاحبه مع الكفار : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ »(٤) . « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٥) . « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »(٦) .

* * *

وليس الكنز هنا هو مجرد الامتناع عن الزكاة ، فكل مازاد على الحاجة ولم ينفق كان كنزه أذى . عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، و إن تمسكه شر لك » (٧) .

(١) سورة ق : [٢٤ – ٢٥] . (٢) سورة القلم : [١٠ – ١٢]
(٣) سورة البلد : [١٢ – ١٦] : (٤) سورة المدثر : [٤٢ – ٤٧]
(٥) سورة آل عمران : [١٨٠] . (٦) سورة التوبة : [٣٤ – ٣٥]
(٧) مسلم والترمذى .

وعن بلال رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مارزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع . فقلت : يارسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار » [1] .

لا بل إن العقاب قد يحلّ بالباخلين فى الدنيا جزاء مابخلوا ومنعوا الخير ؛ و يضرب القرآن الكريم مثلاً فى قصة قصيرة ، قصة جماعة كانت لهم حديقة يطعمون من ثمرها الفقراء ، ثم خطر لهم أن يبخلوا و يمنعوا ، فدارت الدائرة على الحديقة ، وذهب الله بثمرها ، فأصبحوا نادمين : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَلَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ ! بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ! قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا : يَاوَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » [2] .

لذلك يدعو القرآن الكريم الناس للبذل قبل فوات الأوان : « قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا : يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ » [3] . « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ! وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا » [4] .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب والحاكم وقال : صحيح الإسناد (٢) سورة القلم : [١٧ ـ ٣٣] . (٣) سورة إبراهيم : [٣١]
(٤) سورة المنافقون : [١٠ ـ ١١] .

ويحذرهم الشح ليقوا أنفسهم منه ، فلا يدفعهم حرصهم على الأموال والأولاد إليه ، فإنما هذه فتنة لهم واختبار : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[1] .

والنبي يوجب الصدقة على كل مسلم ولو كان لا يجد ، وتفسير ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يستطع أن يفعل ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال فيمسك عن الشر فإنه له صدقة[2] ».. وهكذا يستوى الناس جميعاً فى البذل، كل بقدر ما يملك ، وكل بقدر ما يستطيع .

* * *

وأبواب الإنفاق تدور مع الحاجة ومواضعها ؛ فالأقربون أولى بالمعروف ؛ ولكن سواهم موصولون بهم يذكرون فى معرض الحض على البر جنباً لجنب مع الأقربين ؛ فالبر عاطفة إنسانية قبل أن تكون وجدان قرابة ؛ وذكر البر موصول غالباً بذكر الإيمان ، إذ كان دليل الإيمان كما أسلفنا : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؛ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ، وَالْيَتَامَىٰ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ؛ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[3] » . « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »[4] .

(١) سورة التغابن : [١٥ ـ ١٦] .
(٢) الشيخان واللفظ للبخارى .
(٣) سورة النساء : [٣٦ ـ ٣٧] .
(٤) سورة البقرة: [٢١٥] .

وهكذا يتصل الجار والصاحب بالوالدين والأقربين، كما يتصل بالجميع اليتامى والمساكين وابن السبيل . كلهم سواء ، حتى الذين تقع منهم مساءة ، كالتى وقعت من « مسطح » قريب أبي بكر ، الذى اشترك فى حديث الإفك عن ابنة أبى بكر ، عائشة زوج النبي . فإن الإسلام يدعو للصفح عنهم ، وينهى عن حرمانهم . فلما حلف أبو بكر وهو فى ثورة غضبه على عرضه المنهوك كذباً ، أن يحرم مسطحا ما كان يبره به ، نزلت الآية : « وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ[1] » ؟ .

وهكذا يرتفع بالشعور الإنسانى فى هذا المجال إلى مستوى رفيع كريم ، تشرف به الإنسانية فى أعصارها جميعاً ؛ وتفخر به فى الماضى والحاضر والمستقبل إلى ما شاء الله .

ثم يرتفع بالبر ذاته ، فيجعله براً بالله سبحانه ، ويرسم له هـذه الصورة المبدعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ! قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى! قال يارب : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ ياابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ! قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندى[2] » .

ثم يجعل للصدقة آداباً ترفعها عن أن تكون تفضلا واستعلاء من الواجد على المحروم ، أو أن تكون رياء صادراً عن شعور غير كريم ؛ لأن الصدقة إن هبطت دوافعها ، أو تبعها المن على آخذها ، استحالت عملا خسيساً يؤذى النفس والخلق والضمير . ويؤذى المجتمع

---

(١) سورة النور [٢٢] (٢) رواه مسلم .

كذلك فى أفراده وفى روابطه . وليس كالمن بالإحسان شىء يمض النفس ويذلها ، أو يصرفها عن قبول الإحسان ؛ وليس كالرياء بالصدقة مفسد للضمير حقير فى عرف الأخلاق . والإسلام يعمل على رفع نفوس المعطين والآخذين جميعاً ؛ ويحرص على ذلك حرصاً شديداً: « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ؛ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ، أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (١) » .

ولهذا يستحسن إخفاء الصدقة ودفعها سراً للمعوزين . حفظاً لكرامتهم من جهة ؛ ومنعاً للاختيال والفخر من جهة أخرى : « إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ؛ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » (٢) . ويتحدث النبي صلى الله عليه وسلم مثنياً على

---

(١) سورة البقرة : [٢٦١ ــ ٢٦٦]   (٢) سورة البقرة : [٢٧١] .

الرجل « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه »[1] وهو تصوير بارع جميل لكتمان البر واحتسابه فى غير مفخرة ولا إعلان .

* * *

والإسلام يقدر غريزة حب الذات وحب المال ؛ ويقرر أن الشح حاضر فى النفس الإنسانية لايغيب : « وأُحضرتِ الأنفسُ الشُّحَّ »[2] فيعالج هذا كله علاجاً نفسياً بما تقدم من الترغيب والتحذير والحض والتصوير ، حتى ليتم له مايريد ، وحتى ليطلب إلى هذه النفس الشحيحة أن تجود بما هو حبيب إليها عزيز عليها : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[3] فتستجيب إليه ، وتتلمس الطيب تجود به ، وبذلك يصل إلى غاية البذل وأصعب الجود وأكرم العطاء ، النابع من أعماق الشعور ؛ ويرفع الإنسان على نفسه ؛ ويغلب جانب التسامى فيه على جانب الضرورة ، وجانب الوجدان على جانب الغريزة ؛ وذلك فى ذاته هدف إنسانى رفيع يستحق الجهد فيه ، فكيف وهو هدف اجتماعى ، لإيجاد التوازن ، ومكافحة الحرمان ، وتحقيق التكافل بين القادرين والعاجزين ، وتكوين مجتمع متناسق متعاون سليم ؟

* * *

على هذا النهج ـ الذى توسعنا فى عرض نموذج منه ـ يسير الإسلام ، فيهتم بالإقناع الوجدانى كلما شرع تكليفاً ؛ ويقف بالتكاليف عند الحد الضرورى لسلامة المجتمع ، وفى حدود الطاقة العامة لجماهير الناس ؛ ثم يخاطب الوجدان للإقناع بالتكليف ، وللسمو فوقه ما استطاع ؛ ليرتفع بالحياة الإنسانية ويجذبها دائماً بخيط التصعود ؛ ويدع المجال فسيحاً بين الحد الأدنى المطلوب والحد الأعلى المرغوب ، تتسابق فيه الأفراد والأجيال ، على مدى الأزمان والقرون .

(١) الشيخان .　　(٢) سورة النساء : [١٢٨] .　　(٣) سورة آل عمران : [٩٢]

وعلى هذا النهج قد سار فى تحقيق العدالة الاجتماعية .. وفى الفصلين التاليين من هـذا الـكتاب حديث مفصل عن « سياسة الحـكم » و « سياسة المـال » وفيهما يتجلى اعتماد الإسلام على وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه فى تحقيق العدالة الـكبرى فى كل حقل من حقول الحياة .

ولقد آتى هذا النهج ثمراته كاملة فى فجر الإسلام ، وظل يؤتيها فى فترات القرون الأربعة عشر التى تلت . وإنه لقادر على أن يعيدها فى الحـاضر والمستقبل ، حين يفهم على حقيقته ، وحين يوجه وجهته ، وحين يسلك الناس طريقه الحق القويم .

سياسة الحكم في الإسلام

كل حديث عن « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » لا بد أن يلم بالحديث عن « سياسة الحكم فى الإسلام » تبعاً للقاعدة التى أسلفنا عند الحديث على « طبيعة العدالة الاجتماعية » فيه ؛ وأنها تتناول جميع مظاهر الحياة ، وجميع ألوان النشاط ؛ كما تتناول القيم المعنوية والمادية متمازجة متناسقة .

وسياسة الحكم ذات علاقة بهذا كله ؛ فضلا على أنها المنوط بها فى النهاية تنفيذ التشريع ؛ وتعهد المجتمع من كل جوانبه ؛ وتحقيق العدالة والتوازن فيه ؛ وتوزيع المال حسب القواعد التى سنها الإسلام .

والكلام عن « سياسة الحكم فى الإسلام » يطول ويحتاج إلى مبحث خاص ؛ ولما كان قصدنا فى هذا الكتاب بيان ما يختص بالعدالة الاجتماعية من هذه السياسة ، فسنحاول بقدر الإمكان أن نتناول هذا الجانب وحده ؛ وإن كانت الصعوبة فى دراسة الإسلام أن الباحث يجد كل جوانبه متماسكة ؛ وليس هناك انعزال بين هذه الجوانب . فهذا الدين كله وحدة : العبادات والمعاملات . سياسة الحكم وسياسة المال . التشريعات والتوجيهات . العقيدة والسلوك . الدنيا والآخرة . . كلها أجزاء منسقة فى جهاز متكامل ؛ يصعب إفراد جزء منها بالحديث ، دون التطرق إلى بقية الأجزاء . ولكن سنحاول بقدر الإمكان !

* * *

بعض من يتحدثون من المسلمين عن النظام الإسلامى يجتهدون فى أن يعقدوا الصلات

والمشابه بينه و بين أنواع النظم التى عرفتها البشرية قديماً وحديثاً ، قبل الإسلام و بعده . و يعتقد بعضهم أنه يجد للإسلام سنداً قوياً حين يعقد الصلة بينه و بين نظام آخر من النظم العالمية القديمة أو الحديثة .

إن هذه المحاولة إن هى إلا إحساس داخلى بالهزيمة أمام النظم الغربية؛ فما يعتز الإسلام بأن يكون بينه و بين هـذه النظم مشابه ؛ وما يضيره ألّا تـكون . فالإسلام يقدم للبشرية نموذجاً من النظام المتـكامل لا تجد مثله فى أى نظام عرفته الأرض ، من قبل الإسلام ومن بعده سواء . والإسلام لا يحاول ولم يحاول أن يقلد نظاماً من النظم ، أو أن يعقد بينه و بينها صلة أو مشابهة ؛ بل اختار طريقه متفرداً فذاً ، وقدم للإنسانيـة علاجاً كاملاً لمشكلاتها جميعاً .

ولقد يحدث فى تطور النظم البشرية ، أن نلتقى بالإسلام تارة ، وأن تفترق عنه تارة . ولـكنه هو نظام مستقل متـكامل ، لا علاقة له بتلك النظم ؛ لا حين تلتقى معه ، ولا حين تفترق عنه . فهذا الافتراق وذلك الالتقاء عرضيان ، وفى أجزاء متفرقة ؛ ولا عبرة بالاتفاق أو الاختلاف فى الجزئيات والعرضيات ، إنما المعول عليه هو الفـكرة الأساسية ، والفلسفة الخاصة . وللإسلام فـكرته الأساسية وفلسفته الخاصة ، وعنهـا تتفرع الجزئيات ؛ فتلتقى أو تفترق عن جزئيات فى النظم الأخرى ؛ ثم يمضى الإسلام فى طريقه المتفرد بعد كل اتفاق أو اختلاف .

وليست وظيفة الباحث الإسـلامى حين يعرض للحديث عن النظام الإسـلامى أن يلتمس له المشـابه والموافقات مع أى نظام آخر قديم أو حـدث ؛ فهذه المشابه والموافقـات ــ فضلا على أنهـا سطحية وجزئية ، ووليده مصادفات فى الجزئيـات ، لا فى الفلسفة العامة والفـكره الأساسيـة ــ لا تـكسب الإسلام قوة كما يظن بعض المسلمين . وطريقتهم الصحيح أن يعرضوا أسس دينهم لذاتها ، و بإيمان كامل بأنهـا أسس كاملة ؛ سواء وافقت جميع النظم الأخرى أو خالفتهـا جميعاً ؛ ومجرد تطلب

التأييد لنظم الإسلام من مشابه وموافقات مع النظم الأخرى ، هو إحساس بالهزيمة كما قلنا ، لا يقدم عليه باحث مسلم ، يعرف هذا الدين حق معرفته ، و يبحثه حق بحثه .

لقد عرف العالم فى نشأنه وتطوره نظما عدة . وليس النظام الإسلامى واحداً من هذه النظم ، وليس خليطاً منهـا ، وليس مستمداً من مجموعها .. إنما هو نظام قائم بذاته مستقل بفكرته منفرد بوسائله ؛ وعلينا أن نعرضه مستقلا ، لأنه نشأ مستقلا ، وسار فى طريقه مستقلا .

لهذه الاعتبارات لم استسغ تعبير الدكتور هيكل عن العالم الإسلامى بأنه « الإمبراطورية الإسلامية » ، ولا قوله : « إن الإسلام إمبراطورى » . فليس أبعد عن فهم روح الإسلام الحقيقية من القول بأنه إمبراطورى ، مهما فرقنا بين مدلول الإمبراطورية الإسلامية ومدلول الإمبراطورية المعروف ؛ وليس أبعد من فهم حقيقة الصلات فى العالم الإسلامى من القول بأنه إمبراطورية إسلامية !

ومن الغريب أن الدكتور هيكل فى حديثه عن حكم الإسلام فى « حياة محمد » أو « الصديق أبو بكر » أو « الفاروق عمر » يلمس الخلاف الحقيقى الداخلى بين طبيعة الإسلام، وطبيعة سائر النظم التى عرفها العالم ، ولكنه ينساق إلى هذين التعبيرين انسياقاً ، بحكم قوة إيحاء المظاهر الأجنبية ! ثم تشابه بعض المظاهر بين الإسلام والإمبراطورية .

ولعل المظهر الشكلى هو تكون العالم الإسلامى من عدة أقاليم متباينة الأجناس والثقافات ، يرجع أمر الحكم فيها إلى مركز واحد . وهذا هو مظهر الإمبراطورية ! ولكنه مجرد مظهر . والمعول عليه هو طبيعة نظر هذا المركز إلى الأقاليم ؛ وطبيعة العلاقات بينه وبينها .

والمتتبع لروح الإسلام وطريقته فى الحكم ، يجزم أنها أبعد ما تكون عن الإمبراطوريات المعروفة . فالإسلام سوى بين المسلمين فى جميع أرجاء العالم ؛ و يُنكر

العصبيات الجنسية والإقليمية ، بل يتجاوز عن العصبية الدينيةفى مواضع كثيرة ـ كما أسلفنا ـ ونبعاً لهذه الروح لايجعل الأقاليم مستعمرات ولا مواضع استغلال ، ولا منابع تصب فى المركز لفائدته وحده . فكل إقليم هو بضعة من جسم العالم الإسلامى ، ولأهله سائر الحقوق التى لأهل المركز . وإذا كان بعض الأقاليم يحكمها والٍ من قِبَل المركز الإسلامى ، فإنما يحكمها بوصفه رجلا مسلماً صالحاً للولاية ، لا بوصفه حاكما مستعمراً ؛ على أن كثيراً من هذه الأقاليم المفتوحة كان يحكمها واحد من أهلها ، لا بصفته من أهلها ، ولكن بوصفه مسلماً صالحاً لهذه الولاية ؛ وكذلك كان ما يجبى من أموال الأقاليم ينفق فيها أولا ، فإن فضل منه شىء رد إلى بيت مال المسلمين ، لينفق على المسلمين كافة عند الحاجة ، لا ليخصص لأهل المركز الإسلامى ولو افتقرت الأقاليم ، كما هو العهد فى الإمبراطوريات .

وكل هذا يجعل المسافة بعيدة بين العالم الإسلامى ، أو الأمة الإسلامية بتعبير أدق ، وبين الإمبراطورية ؛ ويكون القول بأن الإسلام « إمبراطورى » انزلاقاً مع اصطلاح غريب على روح الإسلام وعلى تاريخه سواء ؛ والأولى أن نقول : إنه كان إنسانى النزعة ، لما فيه من فكرة قوية عن وحدة الإنسانية ، ولما يرمى إليه من ضم هذه الإنسانية كلها إلى لوائه متساوية متآخية .

لقد كان الدكتور طه حسين أدق فى تعبيره وهو يتحدث فى مقدمة كتابه « الفتنة الكبرى. عثمان » عن نظام الحكم الإسلامى ، بالقياس إلى جميع النظم الأخرى ، فيرى أنه يختلف فى طبيعته الأصلية عن سائرها ؛ فذلك هو الحق عند النظر إلى روح الحكم وطبيعته ، لا إلى مظاهره وجزئياته .

والإسلام كما قلت يقدم حلولا مستقلة لمشكلات الإنسانية ، يستمدها من فكرته الموحدة ومن أسسه الأصيلة ، ومن وسائله المتميزة ؛ وعبثاً حين نحاول أن نكله إلى مبادئ ونظريات أخرى نفسره ، أو نضيف إليه ؛ فهو فلسفة متكاملة ، ووحدة متجانسة ؛ وإدخال أى عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده ، كالجهاز الدقيق الكامل ، أية قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله ، ولو بدا كأنها رقعة فيه !

وأنا أدلي بهذه الكلمة المجملة هنا ، لأن كثيراً ممن اندست في ثقافتهم وأفكارهم قطع غريبة من أجهزة النظم الأجنبية ، يحسبون أنهم يكسبون الإسلام قوة جديدة ، إذا هم طعموه بتلك النظم . وهو وهم خاطىء يفسد الإسلام ؛ ويعطل روحه عن العمل ؛ وهو في الوقت ذاته إحساس خفي بالهزيمة ، ولو لم يعترفوا صراحة بالهزيمة !

* * *

يقوم النظام الإسلامي على فكرتين أساسيتين مستمدتين من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان : فكرة وحدة الإنسانية في الجنس ، والطبيعة، والنشأة . وفكرة أن الإسلام هو النظام العالمي الخالد في مستقبل البشرية .

فأما فكرة وحدة الإنسانية جنساً وطبيعة ونشأة . فقد تحدثنا عنها من قبل بالتفصيل عند الكلام على « أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام » وأشرنا إلى أن الحقوق التي يرتبها للذميين ، وللمشركين المعاهدين على المسلمين ، قائمة على أساس إنساني بحت ، لا يفرق بين أهل دين ودين ، عند ما ينتهي الأمر إلى الملابسات الإنسانية العامة. فإذا كان الإسلام يأمر بقتال المشركين ، فإنما هي الحرب لرد العدوان وكفالة حرية الدعوة وحرية الإيمان : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللَّهُ . وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا . وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (١) ». « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٢) » .

فهي الحرب لدفع العدوان المادي عن المسلمين كي لا يفتنوا عن دينهم ، ولإزالة العقبات المادية من طريق الدعوة ، حتى تبلغ إلى الناس جميعا.

ويبلغ الإسلام في الوفاء بعهوده لغير المسلمين إلى حد أن يقعد عن نصرة بعض المسلمين على المعاهدين : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ (٣) » . وهذا حد مثالي في رعاية الوفاء بالعهد ، القائم على نظرة إنسانية

---

(١) سورة الحج : [٣٩-٤٠] . (٢) سورة البقرة : [١٩٠] . (٣) سورة الأنفال : [٧٢] .

عالمية واسعة ، تتجاوز المصالح المحلية ، والأغراض المحدودة ، حتى فيما يتعلق بالدين .

وأما فكرة أن الإسلام هو النظام العالمى الخالد فى مستقبل البشرية ، فهى مستمدة من أن محمداً رسول الله إلى الناس كافة ، وأنه خاتم النبيين ، وأن دينه أقوم دين : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ »[1] . « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »[2]. « ... رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »[3] . « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً »[4] . « إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »[5] . . . ولكن الإسلام مع هذا لايقسر الآخرين على اعتناقه : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ »[6] بل يدع لهم أقصى الحرية والحماية فى مزاولة شعائرهم الدينية . ويبلغ من دقة حسه بهذه الحرية أن يفرض على المسلمين وحدهم « الزكاة » ويأخذ فى مقابلها من أهل الذمة « الجزية » إذ هم شركاء فى حماية الدولة الإسلامية لهم ، وعليهم جميعاً نفقاتها ، ولكنه لايجعلها على أهل الذمة « زكاة » إلا إذا ارتضوها هم وقبلوها ، لأن الزكاة فريضة إسلامية وعبادة خاصة بالمسلمين ، وهو لايريد أن يقسر أهل الذمة على عبادة من عبادات المسلمين ؛ فيأخذ المال منهم بصفته المالية وحدها ؛ وينفى عنه الصفة التعبدية الملحوظة فى فريضة الزكاة ! وهذا منتهى دقة الحساسية بالعدل فى معاملة الآخرين .

والإسلام إذ يدع للآخرين حريتهم فى هذه الحدود يتأثر بروحه الإنسانية العامة ؛ وهو على ثقة بأنهم متى أتيح لهم أن ينظروا فى الإسلام نظر تدبر وإمعان ، دون حيلولة من قوة مادية ، أو جهالة فكرية ، فإنهم بفطرتهم يفيئون إلى الإسلام الذى يحقق التوازن الكامل بين جميع الأهداف التى رمت إليها الديانات من قبله ، وبين جميع النزعات والأشواق فى الفطرة البشرية ؛ ويضمن للجميع المساواة المطلقة والتكافل التام ؛

---

(١) سورة سبأ : [٢٨] .
(٢) سورة الأنبياء : [١٠٧] .
(٣) سورة الأحزاب : [٤٠].
(٤) سورة المائدة : [٣] .
(٥) سورة الإسراء : [٩] .
(٦) سورة البقرة : [٢٥٦]

ويرمى إلى تحقيق الوحدة الإنسانية فى دائرة الشعور ودائرة النظام .

وقيام النظام الإسلامى على هاتين الفكرتين كان ذا أثر فى كيانه واتجاهه ، جعله يلحظ فى التشريعات والتوجيهات ، وفى سياسة الحكم ، وسياسة المال ، وسائر النظم التى تضمنها ، أنه لا يشرع لجنس ، ولا لجيل ؛ إنما للأجناس جميعاً ، وللأجيال جميعاً ؛ فاتبع الأسس الإنسانية الشاملة فى كل تشريعاته ونظمه ؛ ووضع القواعد العامة ، والمبادىء الواسعة ؛ وترك التطبيقات لتطوّر الزمان وبروز الحاجات .

وهذا الاتجاه إلى القواعد الكلية واضح فى « سياسة الحكم » التى نعقد لها هذا الفصل بصفة خاصة .

***

تقوم « سياسة الحكم فى الإسلام » على أساس العدل من الحكام ، والطاعة من المحكومين ، والشورى بين الحاكم والمحكوم . . . وهى خطوط أساسية كبيرة ، تتفرّع منها سائر الخطوط :

(١) العدل من الحكام : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » (١) . « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » (٢) . « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » (٣) . « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » (٤) .

« إنَّ أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً : إمام عادل ؛ وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدّهم عذاباً : إمام جائر » (٥) .

فهو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض ؛ ولا تغير قواعده المودة والشنآن . العدل الذى لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام ، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً ، لا فرق بينهم حسب ولا نسب ، ولا مال ولا جاه ؛ كما تتمتع به الأقوام الأخرى ، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن ، وتلك قمة فى العدل لا يبلغها أى قانون

---

(١) سورة النحل : [٩٠] . (٢) سورة النساء : [٥٨] . (٣) سورة الأنعام : [١٥٢] .
(٤) سورة المائدة : [٨] . (٥) الشيخان والترمذى .

دولى إلى هذه اللحظة ، ولا أى قانون داخلى كذلك .

والذين يمارون فى هذا عليهم أن يراجعوا عدالة الأقوياء والضعفاء بين الأمم ؛ وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس إلى بعض . ثم عليهم أن يراجعوا عدالة البيض للحمر والسود فى الولايات المتحدة ؛ وعدالة البيض للملونين فى جنوب أفريقية ؛ وعدالة الشيوعيين والوثنيين للمسلمين فى روسيا والصين والهند [1] . . . وفى الإشارة ما يغنى . فهى أحوال معاصرة يعلمها كل إنسان .

والمهم فى عدالة الإسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ؛ بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة، فحفظ « الواقع التاريخى » أمثلة متواترة ، وسيأتى تفصيلها فى موضعها الخاص . إذ نحن هنا بصدد عرض « النظريات » الإسلامية مجردة كما تدل عليها النصوص .

(ب) والطاعة من المحكومين : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ [2] » . وللجمع فى الآية بين الله والرسول وأولى الأمر معناه فى بيان طبيعة هذه الطاعة وحدودها ؛ فالطاعة لولى الأمر مستمدة من طاعة الله والرسول ، لأن ولى الأمر فى الإسلام لا يطاع لذاته ، وإنما يطاع لقيامه على شريعة الله ورسوله ؛ ومن تنفيذه لهذه الشريعة دون سواه يستمد حق الطاعة ؛ فإذا انحرف عنها سقطت طاعته ، ولم يجب لأمره النفاذ . يقول صاحب الشريعة : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة [3] » . ويقول : « اسمعوا وأطيعوا — وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى [4] » . وواضح فى هذا الحديث توقيت السمع والطاعة بإقامة كتاب الله تعالى . فليست هى الطاعة المطلقة لإرادة الحاكم ، وليست هى الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

---

(١) تراجع فصول « المسلمون متعصبون » فى كتاب « دراسات إسلامية » للمؤلف .

(٢) سورة النساء : [٥٩] . (٣) الشيخان . (٤) البخارى .

ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، و بين استمداده سلطاناً من الدين . فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها من السماء ، كما كان لبعض الحكام فى القديم . إنما هو يصبح حاكما باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة ، لا يقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك فى أسرة . ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ الشريعة . فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ؛ و إذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

ومن هنا ندرك حكمة النبي — صلى الله عليه وسلم — فى أنه لم يعين خليفته من بعده . إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينية من استخلاف الرسول له .

إن الإسلام لا يعرف هيئة « دينية » مثل « هيئة الإكليروس » فى الكنيسة المسيحية. والحكم الإسلامى ليس هو الذى تقوم به هيئة معينة ؛ ولكنه كل حكم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية . فإذا كان معنى الحكومة الدينية فى أية ديانة أن طائفة معينة هى التى تتولى الحكم ، فإن هذا المعنى ينتفى فى الإسلام انتفاء كاملا ؛ وليس هناك مبرر لأن يفهم أحد أن الحكم فى الإسلام يحتاج إلى أكثر من تنفيذ القانون الإسلامى .

كل حكم تنفذ فيه الشريعة الإسلامية هو حكم إسلامى أيا كانت صورة الحكم أو عنوانه . وكل حكم لا تنفذ فيه هذه الشريعة ، لا يعترف به الإسلام ، ولو قامت عليه هيئة دينية ، أو حمل عنواناً إسلامياً .

والطاعة من المحكومين منوطة وموقوفة فقط بتنفيذ الحاكم لشريعة الإسلام ، بلا شرط آخر غير العدل فى الحكم وطاعة الله .

(ح) والمشورة بين الحكام والمحكومين : « وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ [1] » . . . « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ [2] » . فالشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام ،

---

(١) سورة آل عمران [١٥٩] . (٢) سورة الشورى : [٣٨] .

أما طريقة الشورى ، فلم يحدد لها نظاماً خاصاً ، وتطبيقها إذن متروك للظروف والمقتضيات . فقد كان الرسول يستشير المسلمين — فيما لم يرد فيه وحى — ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شؤون دنياهم ، كمواقع الحرب وخططها ؛ سمع لرأيهم فى غزوة بدر ، فنزل على ماء بدر بعد أن كان قد نزل على مبعدة منه ؛ وسمع لرأيهم فى حفر الخندق ؛ وسمع لهم فى الأسرى مخالفاً رأى عمر ، حتى نزل الوحى بتأييد عمر . . أما ما كان فيه وحى ، فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال ، فهو مقرر من مقررات الدين . وتلك خاصية بالطبع للرسول الأمين .

وكذلك سار الخلفاء فى استشارة المسلمين : استشار أبو بكر فى شأن مانعى الزكاة وأنفذ رأيه فى محاربتهم ؛ وكان عمر يعارض أولا ؛ ولكنه فاء إلى رأى أبى بكر اقتناعاً به ، بعد مافتح الله قلبه له ، وهو يرى أبا بكر يصر عليه . واستشار أهل مكة فى حرب الشام على رغم معارضة عمر . واستشار عمر فى دخول الأرض الموبوءة وانتهى إلى رأى ، ثم وجد نصًّا من السنة يؤيده فالتزمه . . . وهكذا كانت الشورى لا على نظام مقرر مرسوم ؛ لأن ظروف العصر لم تكن تقتضى إلا هذا اللون من الشورى . ولكن عمومية الأمر تدع المجال مفتوحاً لأشكال متعددة من النظم والطرق لا يحددها الإسلام ، اكتفاء بتقرير المبدأ العام .

* * *

ليس للحاكم إذن — فيما عدا الطاعة لأمره ، والنصح له والمعونة على إقامة الشريعة — حقوق أخرى ليست لأى فرد من عامة المسلمين .

ومع أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يكن حاكما فحسب ، بل كان صاحب الشريعة ، فقد سن للحاكم حدوده فى دائرة مايمنحه الإسلام من حقوق ؛ وسار خلفاؤه على هداه — كما سيجىء فى فصل الواقع التاريخى — فكان يقص من نفسه إلا أن يعفو صاحب الحق عنه ؛ وجاءه صاحب دين فأغلظ عليه ، فهمّ المسلمون به فأشار عليهم أن

يدعوه ، لأن لصاحب الحق مقالا ! وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل لى من غنائمكم هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم [1] » .

وقال لعشيرته وأهله الأقربين : « يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . و ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا فاطمة بنت محمد سلينى ماشئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً [2] » . وقال لعلى وفاطمة ، أحب الناس إليه : « لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تلوى بطونهم من الجوع » وقال لهما فى مرة : « لا أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوى [3] » . وقال : « إن بنى إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، و إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . لو كانت فاطمة لقطعت يدها [4] » .

فليس للحاكم إذن حق زائد فى الحدود ، ولا فى الأموال ؛ وليس لأهله حق فيها غير ما لرجل من عامة المسلمين .

وليس للحاكم أن يعتدى على أرواح الناس وأجسادهم ، ولا حرماتهم أو أموالهم . فإذا هو أقام الحدود ، ونفذ الفرائض ، فقد انتهى إلى آخر حدوده ؛ وانقطعت سلطته على الناس ، وعصمهم الله من سلطانه : أرواحاً وأجساداً وحرمات وأموالا . . .

ولقد ضمن الإسلام فى أوامر صريحة عامة ، تلك الأرواح والأجساد والحرمات والأموال ، بصورة لا تدع مجالا للشك فى مدى حرصه على ضمانة الأمن والسلام والكرامة للجميع :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا [5] » . « وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا [6] » . « وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ

---

(١) أبو داود والنسائى . (٢) متفق عليه .
(٣) حديث رقم ٥٩٦ من المسند نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر . (٤) رواه الجماعة .
(٥) سورة النور : [٢٧] . (٦) سورة البقرة : [١٨٩] .

مِنْ أَبْوَابِهَا[١] » . « وَلَا تَجَسَّسُوا[٢] » . والحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » [٣] . . والنفس بالنفس . . والجروح قصاص .

* * *

وحين يضيق الإسلام سلطة الحاكم فيما يختص بشخصه ، يوسع له إلى أقصى الحدود فى رعاية المصالح المرسلة للجماعة ، تلك المصالح التى لم يرد فيها نص والتى تتجدد بتجدد الزمان والأحوال . فالقاعدة العامة : أن للسلطان أن يحدث من الأقضية بقدر مايجد من مشكلات ، تنفيذاً لقوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » [٤] وتحقيقاً لأهداف الدين العامة ، فى إصلاح حال الفرد وحال الجماعة ، وحال الإنسانية كلها ، فى حدود المبادىء المقررة فى الإسلام ، و بشرط العدل الذى يجب توافره فى الإمام .

فكل مايوقع بالأمة ضرراً من أى نوع ، على السلطان أن يزيله ؛ وكل مايحقق للأمة نفعاً من أى نوع ، عليه أن يقوم به ، على ألا يخالف نصًّا من نصوص الدين .

وهى سلطات واسعة تتناول جوانب الحياة كلها . وتحقيق العدالة الاجتماعية بكل ملابساتها داخل فى هذه السلطات . فله أن يتجاوز فى الناحية المالية مثلا ، فريضة الزكاة إلى ضرائب أخرى يتحقق بها التعادل والتوازن ، وتزول بها الأحقاد والضغائن ؛ وترتفع بها عن الأمة مضار الترف ، ومضار الشظف ، ومضار الغلاء المصطنع نتيجة لتضخم الأموال . . إلى آخر الاعتبارات المبررة لتصرف السلطان .

والواقع التاريخى فى حياة الأمة الإسلامية قد حوى نماذج كثيرة من رعاية المصالح المرسلة ؛ وهناك تطبيقات مستطاعة فى كل وقت سيأتى تفصيلها فى موضعها الخاص . والمهم أن نثبت هنا أن الإسلام ليس نظاماً جامداً ؛ وأن تطبيقاته لاتقف عند عصر من العصور ، ولا بيئة من البيئات .

* * *

(١) سورة البقرة : [١٨٩] .
(٢) سورة الحجرات : [١٢] .
(٣) الشيخان .
(٤) سورة الحج : [٧٨] .

وبعد فهذا حديث عن الناحية « الرسمية » فى « سياسة الحكم فى الإسلام » ووراءها ناحية « التطوع » التى يتجاوز بها « التوجيه » مايفرضه « التشريع » على طريقة الإسلام فى كل تكاليفه ونظمه ، حين يترك للتشريع الحد الأدنى ، ويوكل التوجيه بالحد الأعلى ، ويدع للإنسان المجال بينهما فسيحاً يرقى فيه بقدر مايستطيع .

فسياسة الحكم فى الإسلام تقوم على أساس من الضمير ، فوق قيامها على أساس من التشريع . تقوم على أساس أن الله حاضر فى كل لحظة مع الحاكم والمحكوم ، رقيب على هذا وذاك . « مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة »[1] . « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[2] » .

فالراعى والرعية مطالبان كلاهما برعاية الله فى كل تصرف ، وخشية الله هى الضمانة الأخيرة فى تحقيق العدالة . وقد مر بنا أن الإسلام بنوط بالضمير البشرى بعد تهذيبه أموراً كباراً فى الحدود وفى الأموال . فإذا لم تكن خشية الله فى هذا الضمير ، فلا ضمان ، لأن التشريع يمكن الاحتيال عليه ، والتستر دونه ، وغش الحاكم والقاضى والناس .

ولانفهم من هذا أن النظام الإسلامى الاجتماعى قائم على هذا الضمير وحده . ولكن الذى ينبغى أن يفهم هو أن فى الإسلام ضمانة أخرى غير مجرد التشريع . وهى تحسب له ميزة على النظم التى تعتمد على التشريع وحده ، بلا تحرج من ضمير ، ولا حساسية فى الشعور .

وسنرى فيما بعد أن هذا الضمير الذى رباه الإسلام وهذبه . قام بأدوار خطيرة ، وجاء بما يشبه المعجزات والخوارق فى حياة المسلمين على مر العصور .

---

(١) الشيخان

(٢) سورة البقرة : [١٨٨] .

سياسة المال في الإسلام

لعلّ الحديث عن سياسة المال هو أدخل شيء فى الحديث عن « العدالة الاجتماعية » . ولعلّ الكثيرين من القراء قد استبطأوا موعده فى هذا الكتاب ، وهم يقرأون الفصول الأولى منه إلى هذا الموضع . ولكننى كنت أتعمد هذا الإبطاء به تعمداً ؛ فالعدالة الاجتماعية فى الإسلام شيء أكبر من سياسة المال — كما عرفنا — وكان من الواجب أن نكشف عن فكرة الإسلام الكاملة فى هذه العدالة . وأن نستعرض طبيعتها وأسسها ووسائلها فى محيطها الواسع ، قبل أن نستعرضها فى مجال المال وحده ، كما تصنع المبادىء المادية ، التى ترخص من قيم الحياة كلها عدا قيمة المال .

والإسلام يسير فى « سياسة المال » على هدى فلسفته العامة ، وفكرته الشاملة ؛ يلاحظ مصلحة الفرد ويحقق مصلحة الجماعة ، ويقف بين ذلك قواما لا يضارُّ الفرد ولا يضار الجماعة : ولا يقف فى وجه الفطرة ؛ ولا يعوّق سنن الحياة الأصيلة ، وغاياتها العليا البعيدة .

وهو يتبع فى تحقيق هذه السياسة وسيلتيه الأساسيتين : التشريع والتوجيه . فيبلغ بالتشريع الأهداف العملية الكفيلة بتكوين مجتمع صالح قابل للرقى والنماء ؛ ويرمى بالتوجيه إلى التسامى على الضرورات ، والتطلع إلى حياة أرفع ، والرقىّ بالحياة إلى عالم المثل ، الذى لا يملك الجميع أن يرتفعوا إليه فى جميع الأحوال ؛ ويدع الباب دائما مفتوحاً للرقىّ والكمال .

ونضرب هنا مثالا واحداً بشأن المال ، قبل أن نتحدث بالتفصيل عن « سياسة المال » .

لقد جعل الإسلام حق المال هو الزكاة ، وهو ما قاتل عليه الإمام الناس إن امتنعو

عنه ، وما يفرضه عليهم بحق التشريع ، وبقـــدر معين معلوم ؛ ثم جعل للإمام الحق فى أن يأخذ بعـــد الزكاة ما يمنع به الضرر ، ويرفع به الحرج ، ويصون به المصلحة لجماعة المسلمين ؛ وهو حق كحق الزكاة ، عنـد الحاجة إليه ، موكول إلى مصلحة الأمة وعدالة الإمام .

هـذا فى حدود التشريع ، أما التوجيه فقد حبب إلى الناس أن ينسلخوا من كل ما لهم ، وينفقوه كله فى سبيل الله . فهذا أبو ذر الغفارى رضى الله عنـه يروى عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : خرج رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه ، فقال : « يا أبا ذر » فقلت : لبيك يارسول الله . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا ـ عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه ـ وقليل ما هم » . ثم قال : « يا أبا ذر » فقلت : نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى . قال : « ما يسرنى أن لى مثل أحد ، أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . قلت : أو قنطارين يارسول الله . قال : « بل قيراطين » ثم قال : « يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل » (١) .

* * *

ذلك هو التشريع ، وهذا هو التوجيه . وهما معاً قوام « سياسة المال » كما أنهما قوام كل سياسة فى الإسلام .

وبعد فلنأخذ فى التفصيل والبيان .

(١) الشيخان والترمذى والنسائى .

الملكية الفردية

حق الملكية الفردية :

يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال ـ بوسائل التملك المشروعة التى سيرد بيانها بعد قليل ـ ويرتب على هذا التقرير نتائجه الطبيعية فى حفظ هذا الحق لصاحبه وصيانته له عن السرقة أو النهب أو السلب أو الاختلاس بأية طريقة من الطرق ؛ ويضع الحدود الرادعة لكفالة هذا كله ، فوق ما يضع من التوجيهات التهذيبية لكف النفوس عن التطلع إلى ما ليس لها ، وما هو داخل فى ملك الآخرين ، كما يرتب عليه نتائجه الأخرى ، وهى حق التصرف فى هذا المال بالبيع والإجارة والرهن والهبة والوصية . . . إلى آخر حقوق التصرف الحلال ، وفى نطاق الحدود التى سنها للتصرفات .

ولا شبهة فى تقرير هذا الحق الواضح الصريح فى الإسلام : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ » (١) . « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ؛ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ » (٢) . « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » (٣) . وقد جاء فى الحديث : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » (٤) .

وعقوبة السرقة الصارمة دليل على احترام هذا الحق وصيانته ، ومنع الاعتداء عليه : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ » (٥) .

---

(١) سورة النساء : [٣٢] .
(٢) سورة النساء : [٢] .
(٣) سورة الكهف : [٨٢] .
(٤) أخرجه الشيخان .
(٥) سورة المائدة : [٣٨] .

أما الغَصْب فهو محرّم ملعون من يجترحه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين »(١) . « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عزّ وجل وهو عليه غضبان »(٢) .

وكحق الملكية حق الإرث والتوريث : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » . « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » . « يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . . . الخ » .

وتقرير حق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء ، فوق مسايرته للفطرة ، واتفاقه مع الميول الأصيلة فى النفس البشرية ، تلك الميول التى يحسب الإسلام حسابها فى إقامة نظام المجتمع ؛ وفى الوقت ذاته يتفق مع مصلحة الجماعة بإغراء الفرد على بذل أقصى جهد فى طوقه لتنمية الحياة .

فالفرد مخلوق بفطرة حب الخير لذاته : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » مفطورٌ على حب الحيازة والضن بما يملك : « قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » . « وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ » . . . ولا ضير من مجاراة هذه الميول الفطرية ، ليبذل الفرد أقصى طاقته ، وهو نشيط مقبل على العمل والإنتاج ، لأنه يلبى أشواقه وحاجات نفسه ، ولا يحس أنه مسخر للعمل ، ولا يبذل جهده كارهاً ولا يائساً . والجماعة هى التى تفيد بعد ذلك من جهده هذا وكدّه ؛ والإسلام يضع القواعد التى تتيح للجماعة هذه الفائدة ، وتضمن كف الأذى من إطلاق حرية الفرد ، وتقرير حق الملكية الفردية له .

والعدالة تقتضى أن يلبى النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله — فى الحدود التى لا تضر الجماعة — جزاء ما بذل هذا الفرد من طاقته وجهده ، وعرق جبينه ، وكدح فكره ، وكد أعصابه . والعدل أكبر قواعد الإسلام . والعدالة الاجتماعية لا تكون دائما على

(١) الشيخان والإمام أحمد . (٢) حديث رقم ٣٩٤٦ مسند الإمام أحمد نشر الأستاذ أحمد شاكر .

حساب الفرد . فهى للفرد ، كما هى للجماعة . متى شئنا أن نسلك طريقاً وسطاً ، ونحقق العدالة فى جميع صورها وأشكالها فى الحياة .

وفضلًا على هذا كله فإن أحداً لايجزم بأن تحطيم الحوافز الطبيعية المعقولة ينتج خيراً للفرد أو للجماعة ؛ وسوء الظن بالفطرة هو الذى يعين طريقاً واحداً للعدالة ، بتحطيم هذه الحوافز والوقوف فى وجهها ؛ كما أن النظريات الخيالية التى لاتعترف بالواقع، هى التى نفترض أن هذه الحوافز يمكن القضاء عليها من الخارج بالنظم والتشريعات فى جيل أو عدة أجيال . والإسلام لا يسوء ظنه بالفطرة إلى هـذا الحد ؛ ولا يعمد فى الوقت ذاته إلى إقامة بنيانه كله على الخيال ، متجاهلا كل الواقع العميق .

كذلك يمكن القول بأن احترام الإنسانية يقتضى أن ننظر إليها نظرة أعمق وأكثر إدراكاً لعمق طبيعتها ، وأصالة فطرتها ، وتأصل جذورها ، فنكون أكثر تعقلاً ، وأشد تحرجاً ، وأدق تفكيراً فى محاولة توجيهها ، وإقامة نظمها ؛ فدلائل ملايين السنين التى عاشتها البشرية لايجوز أن نذهب سدى ، لنفترض نظريات عن ميولها وفطرتها وسلوكها ، ثم نطبق هذه النظريات غصباً وقسراً .

أما تقرير حق الإرث والتوريث فقد سبق الحديث عن علته فى فصل « التكافل الاجتماعى » وهو يتمشى مع الفطرة التى تحدثنا عنها هنا ، كما يتمشى مع العدالة فى مستواها الأعلى ، ومع مصلحة الجماعة فى حدود النظرة الشاملة ، التى لاتضع الحواجز بين الجيل والأجيال من بنى الإنسان ! وذلك فوق أنه وسيلة من وسائل تفتيت الثروة كما سيجئ .

طبيعة الملكية الفردية :

ولكن الإسلام لايدع حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيود ولا حدود ؛ فهو يقرره ، ويقرر بجواره مبادىء أخرى ، تكاد تحيله حقاً نظرياً لا عملياً ! وتكاد تجرد منه صاحبه بعد أن يستوفى منه حاجاته ! وهو يشرعه ويشرع له الحدود والقيود ، التى تكاد تجعل صاحبه مسيراً لا مخيراً فى تنميته وإنفاقه وتداوله . ومصلحة الجماعة

كامنة من وراء هـذا كله ، ومصلحة الفرد ذاته كذلك ، فى حدود الأهداف الخلقية التى يقيم الإسلام عليها الحياة .

وأول مبدأ يقرره الإسلام ـ بجوار حق الملكية الفردية ـ أن الفرد أشبه شىء بالوكيل فى هـذا المـال عن الجماعة ؛ وأن حيازته له إنما هى وظيفة أكثر منها امتلاكاً ؛ وأن المـال فى عمومه إنمـا هو حق للجماعة ، والجماعة مستخلفة فيه عن الله ، الذى لا مالك لشىء سواه .

جاء فى القرآن الكريم : « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »[1] ولا يحتاج نص الآية إلى تأويل ليؤدى المعنى الذى فهمناه منه ، وهو أن المـال الذى فى أيدى البشر هو مال الله ؛ وهم فيه خلفاء لا أصلاء . وفى آية أخرى فى صدد المكاتبين من الأرقاء : « وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ »[2] فما يعطونهم هذا المـال من ملكهم ، ولكنهم يعطونهم من مال الله وهم فيه وسطاء .

وهناك ماهو أصرح من هذا فى حقيقة ملكية المال الفردية ، بوصفها ملكية التصرف والانتفاع ـ وهذا هو الواقع ؛ فالملكية العينية لا تكون متحققة بدون حق التصرف والانتفاع ـ فشرط بقاء هذه الوظيفة هو الصلاحية للتصرف ؛ فإذا سفه التصرف كان للولى أو للجماعة استرداد حق التصرف : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ »[3] . فحق التصرف مرهون بالرشد وإحسان القيام بالوظيفة ؛ فإذا لم يحققهما المالك وقفت النتائج الطبيعية للملك وهى حقوق التصرف . ويؤيد هذا المبدأ أن الإمام هو وريث من لاوريث له . فهو مال الجماعة وظف فيه فرد ، فلما انقطع خلفه عاد المال إلى مصدره .

---

(١) سورة الحديد [٧] .

(٢) سورة النور : [٣٣] .

(٣) سورة النساء : [٥] .

ولست أقرر هـذا الأصل لأقرر شيوعية المـال ـ فحق الملـكية الفردية حق واضح فى الإسلام ـ ولـكنى أقرره لما فيه من معنى دقيق مفيد فى تـكوين فـكرة حقيقية عن طبيعة الملـكية الفردية ، وتقييدها بهذا الأصل العام فى نظرة الإسلام إلى المـال . وبلغة أوضح : أقرر أن شعور الفرد بأنه مجرد موظف فى هذا المـال الذى هو فى أصله ملك الجماعة ، يجعله يتقبل القروض التى يضعها النظام على عاتقه ، والقيود التى يحد بها تصرفاته ؛ كما أن شعور الجماعة بحقها الأصيل فى هذا المال ، يجعلها أجرأ فى فرض الفروض ، وسن الحدود . وننتهى بهذا إلى قواعد تحقق العدالة الاجتماعية كاملة فى الانتفاع بهذا المـال ، الذى لبس غاية فى ذاته ، ولا قيمة لملـكيته العينية ، بل لاوجود لها فى حقيقة الأمر بالقياس إلى بعض أنواع المال كالأرض . فما بتصور الفـكر أن الإسان مالك لذات الأرض ؛ إنما هو مالك لريعها وغلتها . فالعبرة بالانتفاع بالملـكية لا بالملـكية العينية .

ومبدأ آخر يقرره الإسلام فى ملـكية المـال ، هو كراهيته لأن يحبس فى أيدى فئة خاصة من الناس ، يتداول بنهم ، ولا يجده الآخرون : « كَىْ لَا يَـكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْـكُمْ » (١) . ولهذا النص قصة نفيدنا هنا فىفهم هذا المبدأ الإسلامى العام .

لقد هاجر المهاجرون مع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ؛ فأما الفقراء فمـا كان لهم مال ينقلونه معهم ؛ وأما الأغنياء فقد تركوا أموالهم خلفهم ، فهم فقراء كالفقراء . ولقد سخت نفوس الأنصار وارتفعت على الشح الفطرى الـكامن فى النفس البشرية ؛ فآخوا المهاجرين فى كل شىء يملـكون ، حتى فى أخص خصوصيانهم ، طيبة نفوسهم بذلك ، سمحة قلوبهم : « يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (٢) . وبذلك كانوا نموذجاً رائعاً لمـا

---

(١) سورة الحشر : [٧] .

(٢) سورة الحشر : [٩] .

تصنعه العقيدة بالنفوس ؛ وضربوا مثلاً جميلاً للتخلص من ضغط الضرورات والانطلاق إلى أرفع الأشواق .

ولكن الفجوة ظلت واسعة بين أثرياء المدينة ، وفقراء المهاجرين ؛ والنبي يرى سماحة الأنصار وسخاءهم ، فلا يجد أن به حاجة لأن يطلب إليهم أكثر مما بذلوا ، ولا أن يكلفهم رد بعض من أموالهم على المهاجرين ، وهم يؤاخونهم في كل ما يملكون ، إلى أن كانت موقعة « بني النضير » التي لم تقع فيها حرب ، بل سلمت للنبي صلحاً ، فكان فيؤها كله لله وللرسول ، بخلاف ما تقع فيه الحرب ، فتكون أربعة الأخماس للمقاتلين ، والخمس وحده لله وللرسول . عندئذ رأى رسول الله أن يعيد لجماعة المسلمين شيئاً من التوازن في ملكية المال ؛ فمنح فيء بني النضير للمهاجرين خاصة ، عدا رجلين فقيرين من الأنصار ، تنطبق عليهما الحكمة التي أوحت إليه بتخصيص هذا الفيء للمهاجرين .

وفي هذه الواقعة يقول القرآن : « مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ، فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْيَتَامَىٰ ، وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ . وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ[1] » .

ودلالة هذا التصرف من الرسول ، وهذا التعليل لذلك التصرف في القرآن ، غير خافية ولا في حاجة إلى بيان ؛ فهي تقرر مبدأ إسلامياً صريحاً ، هو كراهة احتكار الثروة في أيد قليلة في الجماعة ؛ وضرورة تعديل الأوضاع التي تقع فيها هذه الظاهرة ، لكي يكون هناك نوع من التوازن . و « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

---

(١) سورة الحشر ٧ ، ٨]

ذلك أن تضخم المال فى جانب وانحساره فى الجانب الآخر ،مسار مفسدة عظيمة ، فوق ما يثيره من أحقاد وأضغان . . فحيثما وجدت ثروة فائضة ، كانت كالطاقة الحيوية الفائضة فى الجسد ؛ لابد لها من تصريف ؛ وليس من المضمون دائماً أن يكون هـذا التصريف نظيفاً ومأمونا ، فلابد أن تأخذ طريقها أحيانا فى صورة ترف مفسد للنفس مهلك للجسد ، وفى صورة شهوات تقضى ، تجد متنفسها فى الجانب الآخر المحتاج إلى المال ، يصل إليه عن طريق بيع العرض والاتجار فيه ، ومن طريق الملق والكذب وفناء الشخصية ؛ لإرضاء شهوات الذين يملكون المال ، وتمليق غرورهم وخيلائهم ؛ والمضطر يركب الصعب ؛ وصاحب المال المتضخم لا يعنيه إلا أن يجد متصرفا للفائض من حيويته ، والفائض من ثروته . وليست الدعارة وسائر ما يتصل بها من خمر وميسر وتجارة رقيق وقوادة ، وسقوط مروءة ، وضياع شرف . . . سوى أعراض لتضخم الثروة فى جانب وانحسارها عن الجانب الآخر ، وعدم التوازن فى المجتمع نتيجة هذا التفاوت .

ذلك عدا أحقاد النفوس ، وتغير القلوب على ذوى الثراء الفاحش من المحرومين الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ فهم إما أن يحقدوا ؛ وإما أن تتهاوى نفوسهم وتتهافت ، وتتضاءل قيمهم الذاتية فى نظر أنفسهم ؛ فتهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ، ومظاهر الثراء ؛ ويصبحوا قطعاً آدمية حقيرة صغيرة ، لاهم لها إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .

والإسلام على كثرة ما يشيد بالقيم المعنوية ، لايغفل أثر القيم الاقتصادية ؛ ولا يكلف الناس فوق طاقتهم البشرية ، مهما تسامى بهم عن الضرورات الأرضية . لذلك كره أن يكون المال دولة بين الأغنياء فحسب ؛ وجعل هذا أصلا من أصول نظريته فى سياسة المال .

على أن هناك نوعاً من الأموال الشائعة التى لايجوز احتجازها للأفراد ، عدد الرسول منها ثلاثة : الماء ، والكلأ ، والنار : « الناس شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ

والنار[1] »، بوصفها موارد ومرافق عامة ضرورية لحياة الجماعة في البيئة العربية ، فالانتفاع بها للجماعة كلها . والضروريات لحياة الجماعة تختلف في بيئة عن بيئة ، وفي عصر عن عصر ، والقياس ـ وهو أحد أصول التشريع في الإسلام ـ ينفسح لسواها عند التطبيق مما هو في حكمها . . . ولكن هذا مبحث آخر سيجيء في موضعه من هذا الكتاب !

وهناك جزء من المال هو حق لبعض المحتاجين في الجماعة ، وهو المفروض في صورة زكاة : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »[2] وهو يخرج كذلك من حدود الملكية الفردية ، إلى ملكية الجماعة لتصرفه في مصارفه المعروفة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . . . الخ » .

فخلاصة الحقيقة عن طبيعة الملكية الفردية في الإسلام : أن الأصل هو أن المال للجماعة في عمومها ؛ وأن الملكية الفردية وظيفة ذات شروط وقيود ؛ وأن بعض المال شائع لا حق لأحد في امتلاكه ؛ وأن جزءاً منه كذلك حق يرد إلى الجماعة لترده على فئات معينة فيها ، هي في حاجة إليه ، لصلاح حالها وحال الجماعة معها.

وسائل التملك الفردي :

ويرتب الإسلام على نظرته هذه لطبيعة الملكية نتائجها المنطقية ، فيضع الشروط للتملك ، بحيث لا يخرج عن مصلحة الجماعة ، ومصلحة الفرد الداخلة في مصلحة الجماعة لا ينفصل عنها أبدا .

فهو يقرر أولا أن الملكية لا تكون إلا بسلطان من الشارع الذي هو متولٍّ أمور الجماعة . « فالشارع في الحقيقة هو الذي أعطى الإنسان الملك بترتيبه على السبب الشرعي ، ولذا جاء في بعض التعريفات : « أن الملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة ، يقتضي تمكين من يضاف إليه من انتفاعه بالشيء وأخذ العوض عنه » .

---

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة في الحسان . (٢) سورة المعارج [٢٤ ـ ٢٥]

« وهذا المبنى ، وهو أن الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره ، أمر متفق عليه بين فقهاء الإسلام ، لأن الحقوق كلها ، ومنها حق الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع لها ، وتقريره لأسبابها ، فالحق ليس ناشئاً عن طبائع الأشياء ، ولكنه ناشىء عن إذن الشارع ، وجعله السبب منتجا لمسببه شرعاً [1] » .

ولهذا الحكم قيمته فى توضيح نظرية الإسلام فى حق الملكية ، فهى تمليك من الشارع ـ النائب عن الجماعة ـ لفرد فيهـا شيئاً خاصاً ، لم يكن ليحق له ملكه لولا هـذا التمليك ، لأن الأصل أن كل شىء هو للجماعة ، وكل إذن بتخصيصه لا بد أن يصدر من الشارع حقيقة أو حكما .

والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك فى الإسلام . العمل بكل أنواعه وألوانه . وفى هذا من العدالة بين الجهد والجزاء مافيه . ولبيان ذلك نقول : إن وسائل التملك ابتداء للمال التى يعترف بها الإسلام هى :

أولا : الصيد . وهو الوسيلة البدائية الأولى فى حياة البشرية ؛ وإن كانت ماتزال وسيلة للحصول على نوع من المـال فى الأوساط التى ارتقت وتحضرت ، فصيد السمك واللآلىء والمرجان والإسفنج وما إليها موارد ضخمة من موارد الدول والأفراد . وصيد الطير والحيوان هواية وتجارة . . .

ثانياً : إحيـاء الموات من الأرض التى لا مالك لهـا ، بأية وسيلة من وسـائل الإحيـاء . ولا بد من أن يقوم الفرد بإحيائها فى ظرف ثلاث سنوات من وضع يده عليها ، وإلا سقط حق ملكيته لها ، لأن الغرض هو إحيـاء الموات لتحقيق المصلحة العامة فى الاستفادة به ، وثلاث سنوات محك كاف لقدرة واضع اليد على هـذا الإحياء ، فإن لم تتبين هـذه القدرة عادت الأرض الموات للجماعة ، لا يحتجزها فرد منها : « عادِىُّ

---

(١) « الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية » للأستاذ محمد أبو زهره أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

الأرض لله ولرسوله ، ثم لكم من بعد ، فمن أحيا أرضاً ميتة فهى له ؛ وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين [١] » .

والقانون الإسلامى هنا أحكم من القانون الوضعى المستمد من القانون الفرنسى . ففى هذا القانون يكفى « وضع اليد » مدة خمس عشرة سنة ، لتصبح الأرض ملكا لواضع اليد، سواء أحياها أم تركها مواتاً فى هذه المدة وفيما بعدها كذلك . فالحكمة هنا منتفية فى تقرير حق الملكية ، ونظرية « الأمر الواقع » هى وحدها التى تتحكم ، وفرق بين النظرية الإسلامية ونظرية القانون الوضعى كبير !

ثالثاً : استخراج ما فى باطن الأرض من المعادن (الركاز)، وهذا العمل يجعل أربعة أخماس ما يستخرج من معدن ملكا لمن استخرجه ، والخمس زكاة، إذ كان هذا الركاز مباحا يحصل عليه الفرد بجهده وكده . وهنا لابد من كلمة تقال : فقد كان ما يستخرج من الركاز إلى الوقت الذى شرع فيه هذا الحكم هو من المعادن القليلة الاستعمال ، كالذهب والفضة ، وهذه ليست من ضروريات الجماعة كلها كالبترول والفحم والحديد ، فهل يلحق البترول والفحم والحديد وما فى حكمها بالضروريات المشاعة كالماء والكلأ والنار ، أم بالركاز الذى كان معروفاً فى أوائل عهد الإسلام ؟ نترك الكلام فى هذا إلى موضعه الخاص من هذا الكتاب .

رابعاً : الغزو ، وينشأ عنه ملكية السَّلَب وهو كل ما مع القتيل المشرك الذى قتله مسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَسَلَبُهُ لَه [٢] » . كما ينشأ عنه ملكية الغنيمة؛ وأربعة أخماسها للمحاربين ، وخمسها لله والرسول : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ » [٣] .

خامسا : العمل مأجوراً للآخرين . والإسلام يحترم هذا العمل ويعظمه ؛ ويدعو إلى

(١) رواه أبو يوسف فى كتاب الخراج عن ليث عن طاوس .
(٢) الشيخان والترمذى والنسائى (٣) سورة الأنفال : [٤١]

توفية أجره معجلا كاملا غير منقوص . فالقرآن يغرى بالعمل ؛ ويجعله معرضاً للأنظار ، محلاً للنظر والحكم : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ[1] » وفى ذلك إغراء بالتجويد والإتقان ، كما أن فيه تعظيما للعمل يجعله موضع النظر والترقب والتأمل . وفى موضع آخر يحض على السعى والاضطراب فى الأرض من أجله : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ[2] » .

والرسول الكريم تتوارد أحاديثه نترى عن قداسة العمل : « إنّ الله يحب العبد المؤمن المحترف »[3] . «ما أكل أحدكم طعاماً قط خيرا من عمل يده »[4] .

وعلى أساس هذه النظرة المقدّسة للعمل ، يقدس الإسلام حق العامل فى الأجر . فهو يدعو أولا إلى الوفاء به ، و يحذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب من الله وخصومة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزّ وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حُرًّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره »[5] . والجمع بين هذه المعاصى الثلاثة وتوحيد الجزاء عليها ذو دلالة خاصة ، فالمعصية الأولى هى خيانة وغدر لذمة الله ، والثانية هى جريمة إهدار لإنسانية حُرّ وأكل ثمنه . والثالثة هى أكل عرق الأجير ، وهى كأكل ثمن الحر غدر بالإنسانية . وكخيانة العهد بعد الحلف بالله غدر بذمة الخالق . وكل منها يستحق الحرب من الله والخصومة ، لشناعتها ووضوح معنى الغدر فيها .

وهو يدعو ثانياً إلى التعجيل بأداء هذا الأجر ، فلا يكفى أداؤه كاملاً ، بل لا بد

---

(١) سورة التوبة : [١٠٥] .
(٢) سورة الملك : [١٥] .
(٣) من حديث ذكره القرطبى فى التفسير .
(٤) البخارى .
(٥) البخارى .

من أدائه عاجلا . يقول الرسول الكريم : « أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه »[١] . والإسلام يلحظ فى هذا حاجة نفسية وحاجة مادية فى حياة العامل . فأما الحاجة النفسية فهى إشعاره بالعناية والاهتمام ، فالسرعة فى أداء الأجر تحمل هذا المعنى ، فيشعر بأن جهده مقدر و بأن مكانه فى المجتمع محسوب . وأما الحاجة المادية فلأن العامل غالباً ما يكون محتاجاً لأجره أولاً بأول ، يسد به ضرورياته هو وأهله وعياله ؛ وتأخير أدائه يؤذيه ؛ ويحرمه ثمرة جهده وعرقه فى أنسب أوقاتها عنده ؛ ويقلل من نشاطه ورغبته فى العمل . والإسلام حريص على أن يعمل كل من يستطيع ، بأقصى ما يستطيع ، متمتعاً بالرضا النفسى والاكتفاء المادى .

ولقد طلب الإسلام إلى العامل فى مقابل هذه العناية بحقه أن يقوم هو من جانبه بتجويد العمل و إتقانه . فلكل حق مقابل من الواجب فى الإسلام . وذلك طبيعى من ناحية التعادل بين الجهد والجزاء ؛ وطبيعى كذلك من الناحية الخلقية التى يحرص الإسلام على أن تكون أساساً للحياة . فالغش والإهمال فى العمل دليل فساد الذمة ونومة الضمير ، واللجاج فيهما والاعتياد عليهما من شأنه أن يدع تلك الذمة خرابا ، وهذا الضمير خواء ، فوق ما يصيب مصالح الجماعة كلها من فساد واضطراب .

سادساً : إقطاع السلطان بعض الأرض التى لامالك لها ، مما آل إلى بيت مال المسلمين ، من المشركين الذين لاورثة لهم ، فالإمام وليهم ؛ أومن الأرض الموات لا مالك لها كذلك . وقد أقطع النبى صلى الله عليه وسلم أبابكر وعمرأرضاً ، كما أقطع الخلفاء من بعده ، مكافأة على جهد بارز وخدمة للإسلام ، ولكن فى حدود ضيقة ، ومن الأرض التى لا مالك لها والأرض الموات . فلما جاء بنوأمية نهبوا الناس وأقطعوا الأرض لذويهم ، فكانوا ملوكا ظلمة ، لا خلفاء راشدين كما سيجىء .

سابعاً : الحاجة إلى المال للحياة ، فالإسلام شرع صرف أموال الزكاة فى وجوه معينة :

---

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

« إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي ٱلرِّقَابِ ، وَٱلْغَارِمِينَ ؛ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ » . فكون الإنسان واحداً من هؤلاء يجعله صاحب حق فى ملكية نصيب من أموال الزكاة . و بعضهم لايعمل شيئاً إلا كونه محتاجاً ، فالحاجة هنا بديل اضطرارى من العمل ، الذى يقدسه الإسلام و يجعله السبب الأول والأخير لنيل الامتلاك .

تلك هى الأسباب التى اعترف بها الإسلام سبباً للتملك ابتداء ، فأما ما عداها فهو ينكره ، ولا يعترف به ، فالسلب والنهب والسرقة ووضع اليد لا تسبب ملكا ، وكذلك المقامرة فهى حرام: « إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ، فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[1]. والمال الذى يأتى عن طريق المحرم محرم ، لأن القمار ليس عملا ، إنما هو ابتزاز ، فوق مايقع من العداوة والبغضاء بين المتقامرين مما يتنافى مع خطة الإسلام الأولى فى بث روح المودة والتعاون والإخاء : « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ »[2].

وحكمة تلك الأسباب واضحة فى اعتمادها كلها على بذل الجهد ؛ فالجهد له جزاء ، وهو من مقومات الحياة ، وفيه تحقيق لعمارة الأرض ، و إفادة المجتمع ، وتهذيب النفس ، وتطهير الضمير ؛ فليس كالعمل مهذب للروح ، مقوٍ للجسد ، حافظ لكيان الإنسان كله من عوامل الترهل والكسل والخمول .

وما دام العمل هو سبب التملك ، فتقرير حق الملكية الفردية فى الحدود التى بيّنّا لا يضارّ به أحد ، بل يصبح مجالا لحث الفرد على بذل أقصى الجهد ، ليرضى رغبته فى الاستحواذ ، مادام يعمل فى الحدود المشروعة فلا يضار أحداً . فإذا حاد عن هذه الحدود فالطريق إلى العدل هو رده إليها ؛ لا وقفه عن النشاط ، وتسويته بالقاعدين والخاملين ، وضعاف الاستعداد.

(١، ٢) سورة المائدة : [٩٠، ٩١] .

وتمشياً مع نظرية الإسلام فى ملكية المال ابتداء فإنه يتدخل فى طريقة نقل هذه الملكية فلا يدع الحرية فيها مطلقة ؛ ويبدو هذا فى نظام الإرث والوصية . أما الهبة والهدية فهما وحدهما المعفيان من كل قيد ، المتروكة فيهما الحرّية لصاحب المال أن يهب من ماله أو يهدى وهو حى كيف شاء ؛ لأن لهما قيداً من داخل النفس ، هو أن صاحب المال لا يهب عادة ولا يهدى إلا بعض ماله ، فلا ضرر على وارث ، كما يقع فى الوصية ، فإذا أسرف كان سيىء التصرف ، وتعرض للحجر عليه ، أى سلب وظيفة الملكية منه .

فأما حين ترتفع يده عن المال فينتقل إلى من بعده من الورثة أو الموصى إليهم فإنما ينتقل حسب نظام موضوع له حكمته وله مبرّراته : « فلا وصية لوارث »[1] ، ولا وصية فى غير الثلث ؛ وهو الحد الأقصى . وقد شرعت الوصية ـ كما قلنا ـ لتلافى بعض الحالات ، التى يحرم فيها من الإرث أقرباء توجب صلاتهم أن يكون لهم نصيب ، ولكن درجتهم تجعل غيرهم من الورثة يحجبونهم عن الميراث . كما أنها بهذا الاعتبار وجه من وجوه البر والصدقة .

وينتقل المال بالإرث حسب النظام المبين فى آيتى الميراث . (وقد سبق نصهما فى فصل التكافل الاجتماعى) .

والمبدأ العام فى الأنصبة : أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، وقد كشفنا عن حكمة هذا التقسيم من قبل . وأن الوريث العاصب مقـــدم على ذى الرحم ، وإن كانت هناك حالات يخرج فيها ذو الرحم بنصيب أوفى . وذلك جزاء وفاق على ترتيب التبعات فى مقابل الحقوق . فالوريث العاصب مكلف تجاه المورث بتبعات أكثر . فالولد مثلا يرث الكل بعد نصاب الجد والجدة ، لأنه هو المكلف أولا أن ينفق على الوالد لو احتاج فى حياته . والأخ الشقيق يحجب غير الشقيق ، لأنه هو الذى تجب عليه النفقة شرعاً عندما يعجز شقيقه عن الكسب . وهكذا تتوزع المغارم والمغانم أو الواجبات والحقوق فى هذا النظام توزيعاً عادلا

---

(١) أبو داود والترمذى .

ولقد تحدثنا عن حكمة مبدأ الوراثة فى فصل التكافل الاجتماعى بما فيه الكفاية ، و بينا اتساقه مع مبادىء الإسلام الأساسية فى هذا التكافل ، وفى النظرة إلى العلاقات بين الأقرباء و بين الجيل والأجيال ، ومراعاته كذلك للفطرة والميول وحاجات الفرد والجماعة على السواء .

فهنا نتحدث عن حكمة نظام الإرث فى أحوال الجماعة .

لقد رأينا أن الإسلام يكره تكدس الثروات ، وانحصارها فى أيد قليلة . ونظام الإرث الإسلامى أداة لتفتيت الثروات المنضخمة على توالى الأجيال . فالملكية الواحدة تنتقل إلى العديد من الذرية والأقارب بمجرد وفاة المالك ، فتستحيل إلى ثروات متوسطة أو صغيرة ؛ وقلما تبقى كتلتها موحدة مع هذا النظام إلا فى حالات نادرة لا يقاس عليها ، كأن يموت المالك وليس له إلا ولد يرث التركة كلها ، لأنه ليس له أب ولا أم ولا زوجة ولا بنت ! أما فى الأحوال الغالبة فالثروة تتوزع على عدة أفراد .

فإذا نحن وارنا بين هذا النظام والنظام الإنجليزى مثلا ، الذى يجعل التركة كلها للابن الأكبر ، تبينت لنا حكمة الإسلام واضحة فى تفتيت الثروة المتكتلة ، فوق ما فى نظامه من عدالة بين الورثة ، لا تحنق الصدور على الولد الكبير .

طرق تنمية الملكية :

وتمشيا مع نظرية الإسلام كذلك فى ملكية المال ، يتدخل فى طريقة تنميته والتعامل به ، فلا يدع الحرية مطلقة لصاحب المال أن يتصرف به فى هذا السبيل كيف شاء . فإن وراء مصلحة الفرد مصلحة الجماعة التى يتعامل معها .

لكل فرد إذن الحرية فى تنمية أمواله ، ولكن فى الحدود المشروعة . فله أن يفلح الأرض ، وأن يحول المادة الخامة إلى مصنوعات ، وله أن يتجر . . . الخ . ولكن ليس له أن يغش ، أو يحتكر ضروريات الناس ، أو أن يعطى أمواله بالربا ، أو أن يظلم فى أجور العمال ، ليزيد فى أرباحه . فذلك كله حرام . إنما هى الوسائل

النظيفة وحدها التى يبيحها الإسلام لتنمية المال . والوسائل النظيفة عادة لا تضخم رؤوس الأموال إلى الحد الذى يباعد الفوارق بين الطبقات . إنما تتضخم رؤوس الأموال ذلك التضخم الفاحش الذى نراه الآن ، بالغش والربا وأكل الأجور والاحتكار واستغلال الحاجة والابتزاز والنهب والسلب والاغتصاب . . . إلى آخر الجرائم الكامنة وراء طرق الاستغلال المعاصرة . وهذا مالا يسمح به الإسلام . . فلنأخذ الآن فى بيان حكم الإسلام وحكمته فى وسائل تنمية المال .

* * *

« ا » يحرم الإسلام الغش فى المعاملة « من غش فليس منى [١] » . « البيعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما[٢] » فلك أن تبيع وأن تشترى ، على ألا تغش فى السلعة ولا فى العملة ، فإن كان بهما عيب فعليك بيانه ، وإلا فأنت غاش وربحك عليك حرام ، ولن ينجيك من المؤاخذة أن تتصدق بهذا الربح الحرام ، فالصدقة لا تحسب لك إلا من مالك الحلال : عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكسب عبد مالًا حراماً فينصدق منه ، فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكن يمحو السيىء بالحسن . إن الخبث لا يمحو الخبث [٣] » . وقال : « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به [٤] » .

والإسلام فى هذا يسير على قواعده الخلقية ، كما يسير على مبادئه فى منع الضرر وتحقيق التعاون بين الناس ، فالغش قذارة ضمير ، وإضرار بالآخرين ، ورفع للثقة من صدور الناس. ولا تعاون فى الجماعة من غير ثقة . فضلا على أن ثمرة الغش هى الحصول على كسب بلا جهد مشروع . وقاعدة الإسلام العامة هى أن لا كسب بلا جهد ، كما أنه لا جهد بلا جزاء .

---

(١) أصحاب السنن (٢) الشيخان .
(٣) ذكره صاحب مصابيح السنة مرويا عن ابن مسعود وقال : من الصحاح .
(٤) أخرجه الترمذى والنسائى .

« ب » واحتكار ضروريات الناس لايعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب وتنمية المال : « من احتكر فهو خاطىء [1] » . ذلك أن الاحتكار إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لايسمح لسواه أن يجتلب ما يجتلبه ، أو يصنع ما يصنعه ؛ وبذلك يتحكم فى السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، فيكلفهم عنتاً ، ويحملهم مشقة ، ويضارهم فى حياتهم وضرورياتهم ، فوق أنه يقفل باب الفرص أمام الآخرين ليرتزقوا كما ارتزق ، وليجوّدوا فوق ماجوّد ؛ وقد يقع أحياناً أن يسد المحتكر الموارد وأن يتلف البضاعة الفائضة ، حتى يتمكن من فرض سعر إجبارى ؛ وفى ذلك إعدام أو نقص فى الموارد العامة التى أتاحها الله للإنسان فى الأرض . وقد رأينا كيف كانت أطنان البن البرازيلى تحرق لئلا يهبط ثمن البن فى السوق ، بنما ملايين الناس لايجدون حاجتهم منه ، كما نرى الأدوية تحتكر فى الأسواق بأيدى اليهود وأشباه اليهود ، بينما المرضى يقاسون الألم ، أو يساقون إلى الموت ، فى سبيل أن يحصل المحتكرون على أرباح فاحشة ، يضخمون بها أموالهم الحرام .

ولقد بلغ حرص الإسلام على منع هذه الوسيلة من وسائل تنمية المال ، أن جعل الاحتكار مبعداً للمحتكر من دائرة الدين : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه [2] » . فما هو بمسلم ذلك الذى يضار الجماعة هذه المضارة ، ويشيع فيها الخوف ، والحاجة إلى الضرورى ، ليحصل منها على كسب حرام يزيد به ماله الخاص على حساب الصالح العام .

« حـ » والربا وسيلة محرمة يكرهها الإسلام كراهية واضحة ، ويبشعها تبشيعاً شديداً وينذر أصحابها بأشنع مصير : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » [3] » . وليس النهى هنا عن الأضعاف المضاعفة فتحل

(١) مسلم وأبو داود والترمذى .
(٢) حديث رقم ٤٨٨٠ مسند أحمد شرح الأستاذ أحمد شاكر .
(٣) سورة آل عمران : [١٣٠] .

النسب الصغيرة، إنما هذا تقرير للواقع ، ووصف لما هو كائن . أما النهى فمنصب على أصل الربا ومبدئه المجرد ، يتضح ذلك فى الآيات الأخرى : « ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا . وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا . فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [١] ».
« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ [٢] » .

و يبلغ الإسلام فى تفظيع الربا إلى حد أن يلعن كل من شارك فى صفقة من صفقاته ، ولو كاتباً أو شاهداً . عن جابر قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ؛ وقال : هم سواء [٣] » .

يجرى الإسلام فى كل هذا على مبادئه فى المال والأخلاق ومصالح الجماعة . فالمال وديعة فى يد صاحبه وهو موظف فيه لخير الجماعة جميعاً ، فليس له أن يقلب الوظيفة إضراراً بالناس وابتزازاً ، يتحين ساعة احتياجهم ، و يستغل ضعف موقفهم ، فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم ؛ وقد تكون الحاجة هى حاجة الطعام للحياة ، وحاجة الدواء للعلاج ، وحاجة النفقة للعلم ولغير العلم ؛ فإما أن يتعطل هذا كله ، و إما أن يتحكم صاحب المال فى المحتاج إلى المال فيمنحه القليل ، و يسترد منه الكثير ؛ و يظلمه بذلك جهده ، فيكد و يعمل ليؤدى للمرابى رباه ، أو يتضاعف الدين عاماً بعد عام .

هذا الجزء الفائض يستمتع به صاحب المال ، وهو لم يعمل شيئاً سوى أنه صاحب مال ! إنه العرق والدم يلغ فيهما بشراهة ، و يمتصهما فى نهم وهو قاعد . والإسلام الذى يقدس

---

(١) سورة البقره : [٢٧٥] . (٢) سورة البقرة : [٢٧٨ — ٢٧٩] .
(٣) رواه مسلم .

العمل ، ويجعله السبب الأساسى للملك والربح ، لا يسيغ أن يفيد المال قاعد ، ولا أن يلد المالُ المال . إنما يلد المالَ الجهدُ ، وإلا فهو حرام !

ويلحظ الإسلام طهارة خلق الفرد كما يلحظ المودة بين الجماعة . فما يأكل الربا فرد له خلق وضمير ، وما يشيع الربا فى الجماعة وتبقى فيها مودة وتعارف . والذى يمنحنى الدينار ليسترده منى دينارين هو عدوى ، فما أطيب له نفسا ، وما أحمل له ودا . والتعاون أصل من أصول المجتمع الإسلامى ، يهدمه الربا ويوهن أساسه . لذلك يكرهه الإسلام .

وثمة حكمة أخرى تبرز لنا فى هذا العصر الحديث لتحريم الربا ، ربما لم تكن بارزة حينذاك : ذلك أن الربا وسيلة لتضخيم رؤوس الأموال تضخيما شديداً ، لايقوم على الجهد ، ولا ينشأ من العمل ؛ مما يجعل طائفة من القاعدين يعتمدون على هذه الوسيلة وحدها فى تنمية أموالهم وتضخيمها ، فيشيع بينهم الترهل والبطالة والترف على حساب الكادحين الذين يحتاجون للمال فيأخذونه بالربا فى ساعة العسرة . وينشأ عن ذلك مرضان اجتماعيان خطران : تضخيم الثروات إلى غير حد ، وتفريق الطبقات علوا وسفلا بغير قيد ؛ ثم وجود طبقة متعطلة مترهلة مترفة لا تعمل شيئاً ، وتحصل على كل شىء ؛ وكأنما المال الذى فى يديها فخاخ لصيد المال ، دون أن تتكلف حتى الطعم لهذه الفخاخ ؛ إنما يقع فيها المحتاجون عفواً ، ويساقون إليها بأقدامهم تدفعهم الضرورات !

إنما يعطى المحتاجون قرضاً بلا فائدة ، لأن هذه هى الطريقة التى تنمى المودة ، وتليق بالمروءة ، وتكفل التضامن بين الجماعة غنيها وفقيرها ، قادرها وعاجزها . فلا فضل للمال فى ذاته ، إنما هو الانتفاع به والجهد فيه . فوجوده فى يد لا يبرر أن تحصل به لذاته على فائدة ، والذى يقترضه هو الذى يجهد فيه ، فيجب أن تعود غلة الجهد لصاحب الجهد ، وأن يعود المال مفردا — بلا زيادة — لصاحب المال .

وإنه ليستوى أن يكون الدين للاستهلاك أو الإنتاج فى عرف الإسلام ؛

فإنه إن كان للاستهلاك أى لينفقه المستدين على حاجاته الضرورية ، فإنه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن دينه ، فحسبه أن يرد أصل الدين عند الميسرة ؛ وإن كان للإنتاج ، فالأصل أن الجهد الذى يبذله هو الذى ينال عليه الربح ، لا المال الذى يستدينه ، فالمال لا يربح إلا بالجهد ، والجهد هو المعول عليه فى الإسلام . لذلك يحرم الربا فى جميع الأحوال ، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته فى جميع الأحوال .

فإن اقترض المقترض وأعسر « فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ (١) ». وأنا أرى أن الصيغة للأمر لأنها شرط وجواب : « وإنْ كانَ ذو عُسرَةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ » وهذه الصيغة تفيد الأمر لا الندب ؛ وبجوارها التحبيب فى التيسير والسماحة كقول الرسول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى (٢) » فالسماحة فى الاقتضاء تحفظ للمدين كرامته ، وتغرس المودة فى نفسه لدائنه ، وتحثه على الجهد فى الأداء قدر طاقته . وقال : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه (٣) » وقال : « من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله (٤) » .

ويفرض الإسلام فى مقابل هذا على المدين أن يجتهد فى رد دينه ، إبراء لذمته ورداً لفضل الإقراض بفضل الوفاء ، وتمكيناً للثقة فى المعاملات بين الأفراد : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله (٥) » . فمن أخذها يريد أداءها جد وكد ليكسب ويسترزق ، وغالبا ما يكسب المجد الصادق العزيمة ؛ ومن أخذها يريد إتلافها استمرأ أن يعيش بأموال الناس ، وقعد عن العمل والجهد ، فاسترخى وسقطت همته وآض إلى تلف وبوار . وقال الرسول : « مطل الغنى ظُلم » (٦) وقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله تكفِّر الله عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، إن قُتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ثم قال : « كيف قلت ؟ فأعاد عليه ، فقال : « نعم إلا الدَّيْن ،

(١) سورة البقرة : [٢٨٠] . (٢) البخارى والترمذى . (٣) مسلم .
(٤) الترمذى . (٥) البخارى (٦) رواه الخمسة .

فإن جبريل أخبرني بذلك »[١] . وهكذا لايجزى عن المدين القادر على الأداء أن يقاتل فيقتل فى سبيل الله صابراً محتسباً مقبلًا غير مدبر ، لأن الدَّيْن يتعلق بحق الآخرين فى عنقه لا حق الله وحده ، ما دام قادراً على أدائه . فأما العاجز فله من الزكاة نصيب : « إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ . . . وَٱلْغَارِمِينَ » وعليه تجوز الصدقة ليوفِّيَ دينه . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه » ، فتصدق الناس عليه ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : « خذوا ماوجدتم ، وليس لكم إلا ذلك »[٢] .

ولقد خطا النبى صلى الله عليه وسلم خطوة أخرى عندما تهيأت له الأموال بعد الفتوح، فكان يقضى دين المدينين بعد وفاتهم من المال العام . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : « هل ترك لدينه قضاء » ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال للمسلمين : « صلوا على صاحبكم »، فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات عليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته »[٣] .

وهكذا يحرص الإسلام على رد الحقوق لأصحابها ، حرصه على إعانة المضطر والتيسير عليه فى الأداء ، فيجمع الأمر من أطرافه ، ويضمن المصالح جميعاً ، ويعدل فى القسمة بين الحقوق والواجبات .

طرق الإنفاق :

تلك هى الحدود التى يضعها الإسلام لتنمية المال بالتعامل . أما إنفاقه فلا يدعه كذلك بلا ضوابط ، فصاحب المال ليس حرًّا فى غل يده فيه كما يشاء ، أو فى الإنفاق

---

(١) مالك ومسلم والترمذى والنسائى .
(٢) الترمذى بسند صحيح .
(٣) الشيخان والترمذى والنسائى

منه كما يشاء . ومع أن مثل هذا التصرف ذاتى ، إلا أن الفرد ـ فى الإسلام ـ ليس متروكاً لذاته يصنع بها مايشاء ، فله حريته ولكن داخل إطار من الحدود ؛ ثم إنه قلما يكون هناك تصرف شخصى لاعلاقة له بالآخرين ـ وإن لم تكن علاقة مباشرة أو واضحة.

فاليد المغلولة كاليد المسرفة كلتاهما لايقبلها الإسلام ، لما فى كلتيهما من ضرر عائد على النفس وعلى الجماعة : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً »[١] . « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[٢] .

فأما غل اليد فحرمان للنفس من المتاع المشروع ، والإسلام يكلف الفرد تمتيع ذاته فى الحدود المشروعة . ويكره للناس أن يحرّموا فى غير محرم ، لأن الحياة لابد أن تستساغ ، وأن تجمّل ، وأن تكون بهيجة فى غير لهو ولا إسراف . والإسلام لا يوجب التزمت والزهد والحرمان من طيبات الحياة ؛ فهو يأمر بنى آدم بأن يتزينوا الزينة اللائقة كما مرّ فى الآية الكريمة . ويقول القرآن فى لهجة استنكارية بعد ذلك : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ »[٣] .

والإسلام يطلب الاستمتاع بمباهج الحياة المعقولة للناس جميعاً : كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم . لذلك وجه الخطاب هنا إلى « بنى آدم » . فإذا دعا فى بعض الأحيان إلى الصبر والرضا فليست هذه دعوة إلى التزهد والحرمان . إنما هى دعوة لاحتفاظ النفس بطمأنينتها على الشدائد إلى أن تزول أو تزال . أما بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن

(١) سورة الإسراء : [٢٩] .
(٢) سورة الأعراف : [٣١] .
(٣) سورة الأعراف : [٣٢-٣٣] .

يستمتع المتاع الحلال ؛ والجماعة مطالبة أن تهيء هذا المتاع لأفرادها جميعاً ، فلا تحرمهم مما يدعوهم الله أن يستمتعوا به فى الحياة .

لذلك قرر للفقراء — وهم الذين يملكون ما دون نصاب الزكاة — نصيباً يعطونه من الزكاة للتوسعة عليهم فى الرزق ، لا لمجرد الكفاف ، فهم يملكون الكفاف . ذلك أن الإسلام لا يدعو للكفاف وحده ، إنما يدعو للمتاع بالحياة ، والمتاع فوق الكفاف .

فإذا كان الإسلام يعطى الفقير فضلة من أموال الزكاة يوسع بها على نفسه و يستمتع بما هو فوق ضروراته ، فأولى أن ينفق الواجد ، وأن يتمتع بالحياة متاعا معقولا ، وأن لا يحرم نفسه من طيباتها ، وهى كثيرة ، لتغدو الحياة بهيجة جميلة ، ولتنطلق النفس إلى ما هو فوق الضرورة من التفكير العالى والإحساس الراقى ، والتأمل فى الكون والخلق ، والنظر إلى الجمال والكمال . والرسول الكريم يقول : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته »[١] فيعد الشظف والمتربة — مع القدرة — إنكاراً لنعمة الله ، يكرهه الله .

هـذا كله من ناحية ، وثمة ناحية أخرى يلحظها الإسلام فى حبس المال عن التداول والإنفاق . فحبسه هكذا تعطيل لوظيفته . والجماعة فى حاجة إلى تداول أموالها العامة ، لتنمى الحياة فى شتى مظاهرها ، وتضمن الإنتاج فى أوسع ميادينه ، وتهيء للعاملين وسائل العمل ، وللإنسانية طريق النشاط . وحبس الأموال يعطل هـذا كله فهو حرام فى نظر الإسلام ، لما فيه من تعطيل للصالح الخاص والصالح العام .

أما الإسراف فهو الطرف الآخر ، وهو مفسدة للفرد والجماعة كذلك . ونبادر أولا فنقرر أن إنفاق المال فى سبيل الله ولو أتى عليه كله ليس إسرافاً ، لما مر من حديث الرسول عن جبل الذهب ، وتمنيه أن لو كان له لما أبقى منه مقدار قيراطين ، ولأنفقه كله فى سبيل الله. إنما الإسراف هو الإسراف فى الإنفاق على النفس ، وهذا ماعاه الإسلام .

---

(١) أبو داود والنسائى .

والإسراف بهذا المعنى هو الترف الذى يكرهه الإسلام كراهية شديدة ؛ و يبغض أن يكون المال دولة بين الأغنياء لئلا يؤدى تضخم الثروة لإنفاقها فى سبيله ؛ و يعده مصدر شر لصاحبه وللجماعة التى يعيش فيها؛و بهذا يكون منكراً يجب على الجماعة أن تغيره و إلا عرضت نفسها إلى التهلكة بسببه .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى كراهة الترف وتحريمه متواترة كثيرة بصفة بارزة ، تشعر أنه من أكره الحرام إلى الله ورسوله . والإسلام الذى يحض الناس على التمتع بطيبات الحياة ، ويكره أن يحرموها على أنفسهم وهى لهم حلال ، ويدعو إلى جعل الحياة بهيجة مقبولة لا قاتمة ولا منبوذة . . . هـذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة العنيفة .

فالقرآن يصف المترفين أحياناً بسقوط الهمة وضعف القوة وهبوط الأريحية : « وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ، اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » (١) .

وإذا عرفنا حرص الإسلام على الجهاد وحثه عليه وتعظيم من يتطوعون له ، حتى ليقول الرسول الكريم : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » (٢) أدركنا فى الجانب الآخر كم يحتقر أولى الطول هؤلاء لتخلفهم وقعودهم عن صفوف المجاهدين . ولا غرابة فى هذا ، فالمترف مترهل ضعيف الإرادة ناعم قليل الرجولة ، لم يعتد الجهد فسقطت همته ، وفترت أريحيته ؛ والجهد فى الجهاد يعطل عليه متاعه الشهوانى الرخيص ، ويحرمه لذائه الحيوانية فترة من الوقت ، وهو لا يعرف قيمة فى الحياة سوى هذه القيم الداعرة الشائنة !

ثم يتحدث أحياناً عن المترفين فى التاريخ ، فإذا هم دائماً يقفون فى سبيل الهدى لأنفسهم ولأتباعهم المستضعفين ؛ وما دام هناك مترفون فهناك مستضعفون ، يملقون خيلاءهم ، ويحققون شهواتهم ، ويمنون فيهم فناء الحشرات : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي

---

(١) سورة التوبة : [٨٦] .   (٢) مسلم وأبو داود والنسائى .

قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ، إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١) » . « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٢) » . « وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٣) » . ولا غرابة فى هذا فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة ، حريصون على شهواتهم ولذائذهم ، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم ؛ والهدى والدين والإيمان يحرمهم الكثير مما يحرصون عليه ، ويحدد لهم سبل المتاع المباح — وهو بالقياس إليهم قليل ضئيل لا يرضى مرض نفوسهم وترهل شهواتهم — ويرفع قيم الناس جميعاً فلا يكون لهم من السلطان المطلق على المستضعفين ، ما يجعلهم أدوات خاضعة وآلات منفذة ؛ ويحرمهم الخرافات والأوهام والأساطير التى يحيطون بها أنفسهم ، ويستغلونها فى المجتمعات الضالة الجاهلة المستسلمة . . لذلك هم أعداء كل هدى وكل عرفان ، ذلك فضلا على ما يصنعه الترف بالضمير ، وما يحدثه المتاع الغليظ من جمود فى المشاعر : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ، حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (٤) » .

فالمتاع المترف الطويل الموروث عن الآباء ينسى الذكر ، ويؤدى إلى الجدب والضحالة . والتعبير بأنهم « كانوا قوماً بوراً » تعبير مصور عجيب عميق الدلالة ، فالأرض البور هى الأرض المجدبة التى لا تنبج ولا تنمر ، وكذلك قلوبهم ونفوسهم وحياتهم جدبة بائرة صلدة ، لا نبض فيها حياة .

---

(١) سورة سبأ : [٣٤] .

(٢) سورة المؤمنون : [٣٣—٣٤] .

(٣) سورة الأحزاب : [٦٧—٦٨] .

(٤) سورة الفرقان : [١٧—١٨] .

والرسول يسمى بيوت المترفين بيوت الشياطين ، لما ينبع فيها من الفساد ، ولما يخرج منها من الفتنة : « تكون إبل للشياطين ، و بيوت للشياطين . فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها ، و يمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباج[١] » . و إذا كان رسول الله رآها إبلا للشياطين ، لا حاجة بأصحابها إلى ركوبها ، بينما المنقطعون لا يجدون ما يركبون ، فنحن نجدها هنا سيارات فخمة تروح وتغدو للتافه الصغير من الأمور ؛ وألوف لا يجدون أجرة الترام ؛ ومئات لا يجدون حتى أرجلهم للمشى بها فهى مقطوعة ذهبت بها الآفات ! أما البيوت التى رآها محمد فى الأقفاص التى تستر الناس بالديباج ، فنحن نراها ووسائل الترف فيها لم تخطر على قلب بشر فى ذلك الزمان !

لا جرم إذن يكون الترف سبب الهلاك على مدى التاريخ . فالترف سبب للبطر : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا . فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا[٢] » .

ولا جرم يكون الترف سبب العذاب فى الآخرة بما يؤدى إليه من معصيات : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ : فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[٣] » !

ولكن الهلاك والعذاب لا يصيبان الفرد المترف وحده ، بل يصيبان الجماعة التى تسمح بوجود المترفين : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا[٤] مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » والإرادة هنا لا تفيد « الجبرية » بمعناها الذى

---

(١) أبو داود .
(٢) سورة القصص : [٥٨] .
(٣) سورة الواقعة : [٤١ــ٤٨] .
(٤) أمرنا هنا بمعنى أكثرنا .

يفهمه العامة ، إنما المقصود جبرية الأسباب والمسببات ، أو المقدمات والنتائج ، فإن وجود المترفين فى الجماعة ، وسماح الجماعة بوجودهم ، وسكوتها عليهم ، وقعودها عن إزالة أسباب الترف ، وتركها المترفين يفسدون . . . كل ذلك أسباب تؤدى حتما إلى الهلاك والتدمير بطبيعة وجودها . وهـذا معنى الإرادة فى الآية ، أى تتبيع النتائج للمقدمات ، وإيقاع المسببات إذا وجدت الأسباب ، حسب السنة التى أرادها الله للـكون والحياة .

فالجماعة هى المسؤولة عن هذا المنكر الذى يقع فيها . فالترف لابد أن يؤدى إلى المنكر بحكم وجوده فى الجماعة ؛ وقد أ بَنّا أن الطاقة الفـائضة لابد لهـا من متصرف . فهناك مال فائض . وهو طاقة . وهناك حيوية جسد فائضـة كذلك . وهى طاقة . وهناك فضلة زمن فائضة بلا عمل ولا تفكير . وهى طاقة . والفتية المترفون والفتيات المترفات ، وهم يجدون الشباب والفراغ والجـدة ، لابد أن يفسقوا ؛ ولا بد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد وطاقة المال وطاقة الوقت ؛ وغالباً ما تـكون مصارف تافهة ، تأخذطابعها من الزمن والبيئة ، ولـكنها تلتقى عند حد التفاهة والميوعة والقذارة الحسية والمعنوية .

وفى الجانب الآخر المستغلون والمستربحون والمحتاجون ، من تجار الرقيق ، والمهرجين ، والذيول ، وحواشى المترفين ، ينشرون الدعارة والترهل ، ويرخصون كل قيم الحياة الجادة ، التى لا تروق للمترفين والمترفات .

ثم يسرى الداء إلى سائر مرافق الحياة . . . ثم تـكون العاقبة التى لا بد منهـا وهى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وانتشار الإباحية ، وترهل الأجسام والعقول ، وانحطاط المعنويات والروحيات . . عندئذ يحق أمر الله فيدمر هذه الجماعة تدميرا !

ذلك رأى الإسلام فى جريمة الترف . جريمـة تبدأ فردية ، فإذا سكتت عنهـا الجماعة ، ولم تزل هـذا المنـكر باليد واللسان والقلب ، آتت الجريمـة ثمراتهـا ، وأفرخ الوباء فى جسم الجمـاعـة ، وعرضها للهلاك فى النهـاية ، بحكم ترتب النتـائج

على المقدمات ، والمسببات على الأسباب « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [(١)] » .

ولكن ماهو حد الترف والحرمان ، وما هو القصد بينهما والاعتدال ؟

نحسب أن حكم البيئة والعرف هو أعدل الأحكام . فنحن إذا رجعنا إلى أول نشأة الإسلام ، وجدنا بيئةمحرومة يبدو فيها الشظف والفقر ، ونجد الرسول صلى اللهعليهوسلم ينهى عن لبس الحرير : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة [(٢)] » . ويروى علىٌ — كرم الله وجهه — أن الرسول نهاه عن القسِّيِّ والمعصفر من الثياب ؛ كما نهى عن خاتم الذهب . . . كل ذلك للرجال . أما النساء فأبيح لهن الحرير والذهب ، وإن كان الرسول كره لابنته فاطمة أن تلبس الذهب . . فهذه خصوصية كان يأخذ بها النبى أهل بيته ولا يلزمها الناس .

ولكنا نحسب أننا لا نحل حراماً حين نقول : إن هذا كان منطق بيئة الرسول — عليه الصلاة والسلام — وأن الإسلام لا يدعو إلى الشظف حين لا تدعو إليه ظروف البيئة وأحوال الجماعة ، وحقيقة أن لبس الحرير والمعصفر من الثياب والمرقش كثيراً ما يزرى بقيمة الرجال ، ويدعوهم إلى الطراوة ، وبخاصة فى زمن الجهاد ، وحين يكون مستوى الجماعة الاقتصادى لا يسمح بهذا التطرى . ولكن الرسول لم يطق أن يصل الشظف إلى حد المنظر الزرى والإهمال للزى ، فقد روى جابر قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً ، فرأى رجلا شعثاً قد تفرق شعره ، فقال : « أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ » ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : « أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟ » وروى أبو الأحوص الجشمى عن أبيه قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وعلىَّ أطمار فقال : « هل لك من مال ؟ » قلت نعم ! قال : « من أى المال ؟ » قلت : من كلٍّ قد آتانى الله ، من الشاءوالإبل ، قال : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته وكرامته عليك » [(٣)] . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب يحب

(١) سورة الأحزاب : [٦٢] . (٢) البخارى .
(٣) أبو داود والنسائى .

الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود [١] » .

وقد مر بنا أمر الله لبنى آدم : أن يأخذوا زينتهم ، وألا يحرموا الطيبات التى أحلت لهم . فالذى نستخلصه من هذا أن منطق البيئة له حساب ، وأن مستوى المعيشة العام للجماعة هو الذى يحدد الترف والحرمان . وحين فتح الله الأمصار على المسلمين وزادت الثروة العامة وارتفع مستوى المعيشة ، تغيرت أزياؤهم ، واستمتعوا بما لم يكونوا يستمتعون ، فلم ينكر ذلك عليهم أحد ، إلا أن يتجاوزوا المعقول . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « كل ماشئت . والبس ماشئت ما حطئتك اثنتان : سرف أو مخيلة [٢] » .

ونضرب بعض الأمثلة مما نشهده فى عصرنا الحاضر . فحين يكون للعامل الأمريكى بيت مجهز بالنور والماء الساخن ومواقد الكهرباء والغاز ، وجهاز استقبال للإذاعة وسيارة خاصة ؛ ويكون دخله بحيث يسمح له برياضة أسبوعية هو وأسرته ، أو بزيارة للسينما . . لا يكون من الترف أن يكون « البيت الأبيض » مسكناً لرئيس الجمهورية . وهو بيت عادى يملك أفخم منه كثيرون من الأمريكان ! وحين لا يجد الملايين من الشعب جرعة ماء نظيفة يكون من الترف ــ ولا شك ــ أن يشرب بعض الناس مياه فبتى وإفيان مستوردة من وراء البحار !

وحين لا يجد الملايين المسكن البسيط ، فيتخذون من الصفيح والبوص بيوتاً فى القرن العشرين ؛ ولا يجدون الثوب الخشن يسترون به الجسد . يكون من الترف الحرام أن نكلف مسجد مائة ألف جنيه ، كما يكون من الترف الحرام أن نكسى الكعبة بالمخمل الموشى بالذهب ، ولو كانت هى الكعبة وكان هو المسجد ، فالناس أولى بما ينفق فى هذا السبيل !

---

(١) رواه الترمذى بسند حسن .
(٢) البخارى .

وعلى هذا القياس يمكن تحديد الترف والحرمان . فمنطق البيئة هو الذى يحكم ؛ ولن يخطىء هذا المنطق فى كثير ؛ فثروة الجماعة العامة ومستوى المعيشة فيها فى كل زمان ومكان يحددان مظاهر الترف والاعتدال ؛ وحس الجماعة قلما يخطىء فى تقدير مثل هذه الأمور . وذلك هو حد الإسلام على اختلاف الأحوال والأزمان .

فريضة الزكاة

والآن فلنتحدث عن الزكاة ، الركن الاجتماعى البارز من أركان الإسلام ، فحديث الزكاة أدخل شىء فى سياسة المال فى الإسلام .

الزكاة حق المال ، وهى عبادة من ناحية ، وواجب اجتماعى من ناحية أخرى ؛ فإذا جرينا على نظرية الإسلام فى العبادات والاجتماعيات ، قلنا : إنها واجب اجتماعى تعبدى ؛ لذلك سماها « زكاة » والزكاة طهارة ونماء . فهى طهارة للضمير والذمة بأداء الحق المفروض. وهى طهارة للنفس والقلب من فطرة الشح وغريزة حب الذات ، فالمال عزيز ، والملك حبيب ، فحين تجود النفس به للآخرين ، إنما تطهر وترتفع وتشرق . وهى طهارة للمال بأداء حقه وصيرورته بعد ذلك حلالاً . ولأن فى الزكاة معنى العبادة ، بلغ من لطف حس الإسلام ألا يطلب إلى أهل الذمة من أهل الكتاب أداءها ، واستبدل بها الجزية ، ليشتركوا فى نفقات الدولة العامة ، دون أن نفرض عليهم عبادة خاصة من عبادات الإسلام إلا أن يختاروها .

والزكاة حق الجماعة فى عنق الفرد ، لتكفل لطوائف منها كفايتهم أحياناً ، وشيئاً من المتاع بعد الكفاف أحياناً ، وبذلك يحقق الإسلام جزءاً من مبدئه العام : « كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » ذلك أن الإسلام يكره للناس الفقر والحاجة ؛ ويحتم أن ينال كل فرد كفايته من جهده الخاص حين يستطيع ، ومن مال الجماعة حين يعجز لسبب من الأسباب .

يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس ، لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية،

ليفرغوا لما هو أعظم ؛ ولما هو أليق بالإنسانية وبالكرامة التى خص الله بها بنى آدم : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (١) » .

ولقد كرّمهم فعلاً بالعقل والعاطفة ، وبالأشواق الروحية إلى ما هو أعلى من ضرورات الجسد ؛ فإذا لم يتوافر لهم من ضرورات الحياة ما يتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية ، ولهذه المجالات الفكرية ، فقد سلبوا ذلك التكريم ؛ وارتكسوا إلى مرتبة الحيوان . لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالباً ؛ وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح ، وإن بعض الطير ليغرّد ويسقسق فرحاً بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب .

فما هو بإنسان وما هو بكريم على الله ، ذلك الذى تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع إلى مثل ما يناله الطير والحيوان ، فضلا على ما يجب للإنسان الذى كرمه الله . فإذا قضى وقته وجهده ، ثم لم ينل كفايته ، فتلك هى الطامة التى تهبط به دركات عما أراد به الله ؛ والتى تصم الجماعة التى يعيش فيها ، بأنها جماعة هابطة لا تستحق تكريم الله ، لأنها تخالف عن إرادة الله .

إن الإنسان خليفة الله فى أرضه ؛ قد استخلفه عليها لينمى الحياة فيها ، ويرقيها ؛ ثم ليجعلها ناضرة بهيجة ؛ ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها ؛ ثم ليشكر الله على أنعمه التى آتاه . والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئاً ، إذا كانت حياته تنقضى فى سبيل اللقمة ولو كانت كافية، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية ؟

ويكره الإسلام أن تكون فوارق الطبقات بين الأمة بحيث تعيش منها جماعة فى مستوى الترف ، وتعيش جماعة أخرى فى مستوى التقشف ، ثم أن تتجاوز التقشف إلى الحرمان والجوع والعرى . فهذه أمة عبر مسلمة ، والرسول يقول : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » (٢) أو يقول :

(١) سورة الإسراء : [٧٠] .

(٢) مسند أحمد (شاكر ٤٨٨٠) .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [١] » . . يكره الإسلام هذه الفوارق لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ؛ ولما فيها من أثرة وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ؛ ولما فيها من اضطرار المحتاجين : إما إلى السرقة والغصب ، وإما إلى الذل وبيع الشرف والكرامة . . . وكلها منحدرات يتجافى الإسلام بالجماعة عنها .

لهذه المعانى جميعها شرع الزكاة ؛ وجعلها فريضة فى المال ، وحقا لمستحقيها ، لا تفضلا من مخرجيها ؛ وحدد لها نصابا فى المال يجعل الواجدين جميعاً يشتركون فى أدائها . ذلك أن أقصى حد الإعفاء منها عشرون مثقالا ذهبا أى ما يعادل اثنى عشر جنيها بعملتنا ، على أن تكون فائضة عن الحاجات الضرورية لمالكها وعن الدين وحال عليها الحول . وذلك بديهى لأن الإنسان لا يطالب بالزكاة وهو مستحق للزكاة ! أما فى الزرع والثمار فهى موسمية موقوتة بمواسم الحصاد ؛ وهى فى عروض التجارة تقوم بالذهب أو الفضة ، وفى الحيوان بنسب معينة تعادل نسبتها فى المال ؛ وهى ربع العشر على وجه التقريب .

أما المستحقون لها فهم كما نص عليهم فى القرآن : الفقراء . وهم الذين يملكون أقل من النصاب ، أو يملكون نصابا مستغرقاً فى الدين ؛ وظاهر أن هؤلاء يملكون شيئاً ، ولكنه شىء قليل ، والإسلام يريد أن ينال الناس كفايتهم . وشيئاً فوق الكفاية يعينهم على المتاع بالدنيا على قدر الإمكان .

والمساكين . وهم الذين لا يملكون شيئاً . وهم بطبيعة الحال أجدر بالعطاء من الفقراء . ولكنى ألمح أن ذكر الفقراء قبلهم فى الآية يرمى إلى أن وجود شىء قليل للفقراء لا يكفى ، فكأنهم كالمساكين ، لأن هدف الإسلام ليس مجرد الكفاف الضرورى . ولكن شىء فوق الكفاف كما قدمت .

والعاملون عليها . وهم جباتها ، وهؤلاء — وإن كانوا أغنياء — يعطون جزاء

(١) متفق عليه .

العمل ، فهو راتب الوظيفة وذلك داخل فى نظام الجهد والأجر ، لا فى باب الحاجة وسدها .

والمؤلفة قلوبهم . وهم الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً ، لتقوية قلوبهم ، واجتذاب من عداهم . ولكن هذا المصرف قد أقفل منذ أن أعز الله الإسلام بعد حروب الردة فى أيام أبى بكر ، فما عاد الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب بالمال . ومع أن هؤلاء قد نصت عليهم آية قرآنية ، فإن عمر لم يجد حرجاً فى التصرف . (ونحن نحتفظ بهذا المثل لننتفع به فى موضعه) !

وفى الرقاب . وهم الأرقاء المكاتبون ، الذين يستردون حريتهم نظير قدر من المال متفق عليه مع مالكيهم تيسيراً لهم لينالوا الحرية . (وهذا المصرف قد انتهى الآن بحكم الظروف) .

والغارمين . وهم الذين استغرق الدين ثرواتهم ، على ألا يكون هذا الدين فى معصية ، فلا يكون الترف وما يشبهه سبباً فيه . وإعطاؤهم قسطاً من الزكاة فيه سداد لديونهم ، وتخليص لرقابهم منها ، وفيه إعانة لهم على الحياة الكريمة .

وفى سبيل الله . وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ومنه تجهيز المجاهدين ، وعلاج المرضى ، وتعليم العاجزين عن التعليم ، وسائر ماتتحقق به مصلحة لجماعة المسلمين. والتصرف فى هذا الباب يتسع لكل عمل اجتماعى فى سائر البيئات والظروف .

وابن السبيل . وهو المنقطع عن ماله ، الذى لا يجد ما ينفق ، كالمهاجرين من الحروب والغارات والاضطهاد ، الذين خافوا أموالهم وراءهم ، ولا سبيل لهم إلى هذه الأموال .

وهذه الأبواب بما فيها من خاص وعام تستغرق أوجه الضمان الاجتماعى والتأمين الاجتماعى فى الحياه ؛ والإسلام لا يقرر لهذه الطوائف حقها فى الزكاة إلا بعد أن تستنفد هى وسائلها الخاصة فى الارتزاق ؛ فالإسلام حريص على الكرامة الإنسانية ، ومع أنه جعل الزكاة حقاً لا منحة ولا تفضلا ، فإنه لم يغفل أن « اليد العليا خير من اليد

السفلى [1] ». وأن المعطى أيا كان متفضل ، والآخذ متفضل عليه ؛ لذلك حث على الاستغناء عن طريق العمل ؛ وجعل واجب الجماعة الأول أن تهيىء العمل لكل فرد فيها . فقد جاء سائل إلى النبي يستجديه ، فأعطاه درهماً وأمره أن يشترى به حبلا ليحتطب به فيعيش من عمل يده . وقال : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » . [2]

فهذه الإعانة من الزكاة هى وقاية اجتماعية أخيرة ، وضمانة للعاجز الذى يبذل طوقه ثم لا يجد ، أو يجد دون الكفاية ، أو يجد مجرد الكفاف . وفى هذا يجمع الإسلام بين الحرص على أن يعمل كل فرد بما فى طاقته ، وألا يرتكن على الإعانة الاجتماعية فيتبطل ؛ والحرص على أن يعين المحتاج بما يسد خلته ، ويرفع عنه ثقل الضرورة ووطأة الحاجة ، وييسر له الحياة الكريمة .

فرائض غير الزكاة

ولكن الزكاة ليست وحدها حق المال . . .

وإنا لنلحظ شبه تواطؤ بين من يتحدثون عن الزكاة فى هذه الأيام ، على اعتبارها الحد الأقصى الذى يطلبه الإسلام دائماً من رؤوس الأموال ! لذلك ينبغى أن نكشف هذا التواطؤ ، الذى يتعمده رجال الدين المحترفون !

إن الزكاة هى الحد الأدنى المفروض فى الأموال ، حين لا تحتاج الجماعة إلى غير حصيلة الزكاة . فأما حين لا تفى ، فإن الإسلام لا يقف مكتوف اليدين ، بل يمنح الإمام سلطات واسعة للتوظيف فى رؤوس الأموال – أى الأخذ منها بقدر معلوم – فى الحدود اللازمة للإصلاح . ويقول بصريح الحديث : « إن فى المال حقاً سوى الزكاه [3] » .

ودائرة « المصالح المرسلة » و « سد الذرائع » دائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة ، وتضمن دفع جميع الأضرار .

(١) الشيخان . (٢) الشيخان (٣) الترمذى .

ونحن نكتفى فى بيان حدودهما بما ورد عنهما فى كتاب : « الإمام مالك » للأستاذ « محمد أبو زهرة » أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة :

المصالح المرسلة : « إن المصالح التى ليس لها نص خاص يشهد لنوعها بالاعتبار تسمى المصالح المرسلة ، وكونها أصلا فقهياً موضع نظر بين الفقهاء ، وقد ادعى القرافى أن الفقهاء جميعاً أخـذوا بها واعتبروها دليلا فى الجزئيات ، وإن أنكر أكثرهم كونها أصلا فى الكليات ، وقد قال فى ذلك :

« المصلحة المرسلة ، غيرنا يصرح بإنكارها ولكنهم عند التفريع تجدهم يعللون بمطلق المصلحة ، ولا يطالبون أنفسهم عند الفروق والجوامع بإبداء الشاهد لها بالاعتبار ، بل يعتمدون على مجرد المناسبة ، وهذا هو المصلحة المرسلة » .

« وسواء أصحت نلك الدعوى أم لم تصح ، فمن المؤكد أن اعتبار المصالح التى لا يشهد لها نص خاص بالاعتبار ــ نظر العلماء إليها يختلف،فإن لم يكن فى أصل الأخذ ، فعلى الأقل فى مقدار الأخذ ، كما يحسب القرافى .

« وقد انقسمت أقوال العلماء فى ذلك إلى أربعة أقسام :

« (القسم الأول) الشافعية ومن نحا نحوهم ، وهؤلاء لا يأخذون بالمصالح المرسلة التى لا يوجد شاهد من الشارع باعتبارها ، لأنهم لا يأخـذون إلا بالنصوص ، والحمل عليها بالقياس الذى يكون أساسه وجود ضابط يضبط ما بين الأصل والفرع،أى ما بين المنصوص عليه ، والملحق به ، و إن سايرنا القرافى فإنا نقول : إنه يندر أن يأخذوا بمصلحة مرسلة من غير قياس .

« (القسم الثانى) الحنفيه ومن سالكهم ممن يأخذون بالاستحسان مع القياس ، فإن الاستحسان مهما تكن قولهم فيه لا يخلو من اعتماد على المصالح المطلقة،ولو أنصفنا الحقيقة لقلنا: إن مجىء المصالح فى استنباطهم أكثر من الشافعية ، وإن كان القدر فى ذاته قليلا ، حتى لم تحسب تلك المصالح أصلا من أصولهم لندرة اعتمادهم المجرد عليها .

« (القسم الثالث) الغلاة فى الأخـذ بالمصالح ، حتى قدموا المصلحة على النص

فى معاملات الناس ، واعتبروها مخصصة له ، بل اعتبروها مخصصة للإجماع ، أى أن العلماء إذا أجمعوا على أمر بنص ، ووجد مخالفاً للمصلحة فى بعض وجوهه قدم اعتبار المصلحة،واعتبر ذلك أيضاً تخصيصاً ، وقد قال هذا القول الطوفى .

« (القسم الرابع) المعتدلون ، وهم الأصح بصراً ، وأولئك اعتبروا المصالح المرسلة فى غير موارد النص المقطوع به ، وأولئك أكثر المالكية .

« وكان مالك فى أخذه بالمصالح المرسلة أصلا مستقلا متبعا لا مبتدعا .

١ ـ « فقد وجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقومون بأمور من بعده لم تكن فى عهده ، فجمعوا القرآن الكريم فى المصحف ، ولم يكن ذلك فى عهد الرسول ، لأن المصلحة تقاضتهم ذلك الجمع ، إذ خشوا أن ينسى القرآن بموت حفاظهم ، وقد رآهم عمر رضى الله عنه يتهافتون فى حرب الردة ، فخشى نسيان القرآن بموتهم فأشار على أبى بكر بجمعه فى المصحف ، واتفق الصحابة على ذلك وارتضوه .

٢ ـ « واتفق أصحاب الرسول من بعده على حد شارب الخمر ثمانين جلدة مستندين فى ذلك إلى المصالح ، أو الاستدلال المرسل ، إذ رأوا الشرب ذريعة إلى الافتراء وقذف المحصنات ، بسبب كثرة الهذيان .

٣ ـ « واتفق الخلفاء الراشدون على تضمين الصناع ، مع أن الأصل أن أيديهم على الأمانة ، ولكن وجد أنهم لو لم يضمنوا لاستهانوا بالمحافظة على أمتعة الناس وأموالهم ، وفى الناس حاجة شديدة إليهم ، فكانت المصلحة فى تضمينهم ، ليحافظوا على ما تحت أيديهم؛ ولذلك قال على فى تضمينهم : « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

٤ ـ « وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاطر الولاة الذين يتهمهم فى أموالهم ، لاختلاط أموالهم الخاصة بأموالهم التى استفادوها بسلطان الولاية ، وذلك من باب المصلحة المرسلة أيضا لأنه رأى فى ذلك صلاح الولاة ، ومنعهم من استغلال سلطان الولاية لجمع المال ، وجر المغانم من غير حل .

٥ ـ « وحكى عنه رضى الله عنه أنه أراق اللبن المغشوش بالماء ، تأديباً للغاش ، وذلك من باب المصلحة العامة ، لـكيلا يغشوا الناس .

٦ ـ « وقد نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قتل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا فى قتله ، لأن المصلحة تقتضى ذلك ، إذ لا نص فى الموضوع ، ووجه المصلحة أن القتيل معصوم ، وقدقتل عمداً ، فإهداره داع إلى خرم أصل القصاص ، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعى بالقتل ، إذا علم أنه لا قصاص فيه ، فإن قيل : هذا أمر بدعى ، وهو قتل غير القاتل ، لأن كل واحد لا يعد قاتلا بمفرده ، قيل فى رد ذلك إن القاتل : الجماعة من حيث الاجتماع ، فقتلهـا كلها قتل كالقاتل بمفرده ، إذ القتل مضاف إليهـا كإضافته إلى الشخص الواحد ، فنزل الأشخاص المجتمعون لغرض القتل منزلة الشخص الواحد ، وقد دعت إلى هذا المصلحة ، إذ فيه حقن الدماء ، وصيانة المجتمع . . .

« ومن ملاحظة المصلحة فى المسائل العامة أنه إذا خلا بيت المـال ، أو ارتفعت حاجات الجنـد ، وليس فيه ما يـكفيهم ، فللإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم فى الحال ، إلى أن يظهر مال فى بيت المـال ، أو يـكون فيه ما يكفى ، ثم له أن يجعل هذه الوظيفة فى أوقات حصاد الغلات ، وجنى الثمار ، لـكيلا يؤدى تخصيص الأغنيـاء إلى إيحـاش قلوبهم . ووجه المصلحة أن الإمام العادل لو لم يفعل ذلك لبطلت شوكته ، وصارت الديار عرضة للفتنة وعرضة للاستيلاء عليها من الطامعين فيهـا ، وقد يقول قائل : إنه بدل أن يقوم الإمام بفرض هذه الوظيفة يستقرض لبيت المال ، وقد أجاب عن ذلك الشاطبى فقال : « الاستقراض فى الأزمات ، إنمـا يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر ، وأما إذا لم ينتظر شىء ، وضعفت وجوه الدخل بحيث لا يغنى ، فلا بد من جريان حكم التوظيف » .

الذرائع : « الذريعة معناها الوسيلة . ومعنى سد الذرائع رفعها ، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام ، لأنها تؤدى إلى الفاحشة ؛ والجمعة فرض ، فالسعى لها فرض ، وترك البيع لأجل السعى فرض أيضاً ؛ والحج فرض والسعى إلى بيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله .

« والأصل فى اعتبار سد الذرائع هو النظر فى مآلات الأفعال ، وما تنتهى فى جملتها إليه ، فإن كانت تتجه نحو المصالح التى هى المقاصد والغايات من معاملات بنى الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب هذه المقاصد ، وإن كانت لا تساويها فى الطلب . وإن كانت مآلاتها تتجه نحو المفاسد ، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد . وإن كان مقدار التحريم أقل فى الوسيلة .

« والنظر فى هذه المآلات لا يكون إلى مقصد العامل ونيته ، بل إلى نتيجة العمل وثمرته ، وبحسب النية يثاب الشخص أو يعاقب فى الآخرة ، وبحسب النتيجة والثمرة يحسن الفعل ، أو يقبح ، ويطلب أو يمنع ، لأن الدنيا قامت على مصالح العباد ، وعلى القسطاس والعدل ، وقد يستوجبان النظر إلى النتيجة والثمرة دون النية المحتسبة ، والقصد الحسن . فمن سب الأوثان مخلصاً لله سبحانه وتعالى فقد احتسب نيته عند الله فى زعمه ، ولكنه سبحانه وتعالى نهى عن السب إن أثار ذلك حنق المشركين ، فسبوا الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ، فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ [1] » . فهذا النهى الكريم كان الأمر الملاحظ فيه هو النتيجة الواقعة ، لا النية الحاسبة . ويرى من هذا أن المنع فيما يؤدى إلى الإثم ، أو إلى الفساد ، لا يتجه إلى النية المخلصة فقط ، بل إلى النتيجة المثمرة أيضاً ، فيمنع لنتيجته ، وإن كان الله قد علم النية المخلصة .

---

(١) سورة الأنعام : [١٠٨]

« وقد يقصد الشخص الشر بفعل المباح ، فيكون آثما فيما بينه و بين الله ، ولكن ليس لأحد عليه سبيل ، ولا يحكم على تصرفه بالبطلان الشرعى ، كمن يرخص فى سلعته ، ليضر بذلك تاجراً ينافسه ، فإن هذا بلا شك عمل مباح ، وهو ذريعة إلى إثم ، هو الإضرار بغيره ؛ وقد قصده ، ومع ذلك لا يحكم على عمله بالبطلان بإطلاق ، ولا يقع تحت التحريم الظاهر الذى ينفذه القضاء ، فإن هذا العمل من ناحية النية ذريعة للشر ، ومن ناحية الظاهر قد يكون ذريعة للنفع العام والخاص ، فإن البائع بلا شك ينتفع من بيعه ، ومن رواج تجارته ، ومن حسن الإقبال عليه ، وينتفع العامة من ذلك الرخص ، وقد يدفع إلى تنزيل الأسعار .

« فمبدأ سد الذرائع لاينظر فقط إلى النيات والمقاصد الشخصية كما رأيت ، بل يقصدمع ذلك إلى النفع العام أو إلى دفع الفساد العام ، فهو ينظر إلى النتيجة مع القصد أو إلى النتيجة وحدها .

« وقد ثبت أصل الذرائع بالقرآن والسنة . أما القرآن فقوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) ، فيروى أن المشركين قالوا : لتكفن عن سبِّ آلهتنا ، أو لنسب إلهك ، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ، وَقُولُوا : انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا »(٢) ، لأن قصد المسلمين كان حسناً ، ولكن اليهود اتخذوه ذريعة إلى شتمه عليه السلام .

« أما السنة فإن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى أصحابه فيها كثيرة ، منها كفه صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين ، لأنه ذريعة إلى قول الكفار : إن محمداً يقتل أصحابه .

« ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى المقرض عن قبول الهدية من المدين حتى يحسبها من دينه ، وما ذاك إلا ليتخذ ذلك ذريعة إلى تأخير الدَّين لأجل الهدية ، فتكون ربا ،

(١) سورة الأنعام : [١٠٨] .
(٢) سورة البقرة : [١٠٤] .

فإنه يعود إليه ماله ، وقد اكتسب الفضل الذى آل إليه بالإهداء .

« ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو ، لئلا يكون ذريعة إلى التجاء المحدود إلى المحاربين ، فيفر إليهم ؛ ولمثل ذلك لا تقام الحدود فى الغزو ، حتى لا تدفع حرارة الضرب إلى الضلال ، وهو منه قريب .

« ومنها أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وَرَّثوا المطلقة طلاقاً بائناً فى مرض الموت ، حيث يتهم بقصد حرمانها من الميراث ، وإن لم يثبت قصد الحرمان ، لأن الطلاق ذريعة .

ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الاحتكار ، وقال : « من احتكر فهو خاطىء »[1] فإن الاحتكار ذريعة إلى أن يضيق على الناس ، وكل ما يعد ضرورياً لهم ، ولهذا لا يمنع من احتكار مالا يضر الناس كأدوات الزينة ونحوها ، مما لا يدخل فى الضروريات ولا الحاجيات .

« ومنها أنه صلى الله عليه وسلم منع المتصدِّق شراء صدقته ، ولو وجدها تباع فى السوق ، سدًّا لذريعة العود فيما خرج عنه لله ولو بعوضه . وإن المتصدق إذا مُنع من أخذ صدقته بعوضها ، فأخذها بغير عوض أشد منعاً ، وإن فى تجويز أخذها بعوض ذريعة إلى التحايل على الفقير بأن يدفع إليه صدقة ماله ، ثم يشتريها منه بأقل من قيمتها ، ويرى المسكين أنه قد حصل له شىء من حاجته ، فنسمح نفسه بالبيع .

« وهكذا كثرت الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد ساق ابن القيم فى أعلام الموقعين نحو تسعين شاهداً من الآثار ، ثبت فيها النهى سدًّا للذرائع .

« ولقد عدت الذرائع فى شرائع الإسلام نصفها » .

* * *

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذى .

مبدأ المصالح المرسلة ، ومبدأ سد الذرائع ، عند تطبيقهما فى محيط أوسع ، يمنحان الإمام سلطة مطلقة لتدارك كل المضار الاجتماعية ، بما فى ذلك « التوظيف » فى الأموال . التوظيف بلا قيد ولا شرط إلا رعاية الصالح العام للأمة وتحقيق العدالة الاجتماعية الكاملة.

فمبدأ حق الملكية الفردية فى الإسلام ، لا يمنع تبعاً لهذا أن تأخذ الدولة نسبة من الربح أو نسبة من رأس المال ذاته ، غير محدودة بنسبة معينة — كما هو الحال فى الزكاة — بل مطلقة لاحد لها إلا تحقيق المصلحة العامة .

و بيان هذا ضرورى ، لكشف هذا التواطؤ الذى يبدو فى تركيز القول كله حول الزكاة ، كأنما هى كل حق المال فى الإسلام ، وكشف أولئك المحترفين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . وما يأكلون فى بطونهم إلا النار !

من الواقع التاريخي في الإسلام

هناك مايصح أن نطلق عليه باطمئنان : « روح الإسلام » !

هـذا الروح يستشعره من يتتبع طبيعة هذا الدين وتاريخه على السواء ؛ ويحسه كامناً وراء تشريعاته وتوجيهاته ، مستكناً فى هـذه التشريعات والتوجيهات . . ومع أن هذا الروح واضح قوى ، بحيث لايملك الإنسان نفسه من التأثر به ، والاستغراق فى جوه ، إلا أنه ــ كـكل شعور كلى عميق ، أو فـكرة كلية عالية ــ يصعب التعبير عنه فى عبارات محدودة . فهو يتجلى فى الاتجاهات والأهداف ، وفى الحوادث والوقائع ، وفى السلوك والشعائر ؛ و يصعب ضبطه فى قالب من اللفظ محدود .

هـذا الروح هو الذى يرسم الأفق الأعلى الذى يتطلب الإسلام من معتنقيه أن يتطلعوا إليـه ، وأن يحاولوا بلوغه ، لا بتنفيذ الفرائض والشعـائر فحسب ، ولـكن بالتطوع الذاتى لمـا هو فوق الفرائض والشعائر . . وهـذا الأفق عسير المرتقى ، وأعسر من ارتقائه الثبات عليه ! لأن نوازع الحيـاة البشرية ، وضغط الضرورات الإنسانية ، لا يطوعان للأكثرين من الناس أن يرقوا إلى هـذا الأفق العـالى ، ولا أن يصبروا عليه طو يلا ، إن ارتقوا إليه فى فورة من فورات الشوق والتطلع ؛ فلهذا الأفق تـكاليفه العسيرة ، وهى تـكاليف فى النفس والمـال ، وفى الشعور والسلوك . ولعل أشـد هـذه التـكاليف مؤنة هو تلك اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى شعوره ، تجاه الحقوق والواجبات ، لذاته وللجماعة التى يعيش فيها ، وللإنسانيـة التى ينتسب إليها ، وللخالق الذى يراقبه فى الصغيرة والـكبيرة ، و يعلم سره ونجواه .

ولكن صعوبة هذا المرتقى ، وتعذر الاستواء عليه طويلا . . لا يعنى أن الإسلام فكرة شاعرية خيالية ، ومثل وجدانى تدركه الأشواق وتقصر دونه الأعمال ، فذلك الأفق الأعلى الذى نتحدث عنه لا يكافه كل إنسان فى جميع الأزمان؛ إنما هو هدف مرسوم لتحاوله البشرية اليوم ، كما تحاوله غداً ، وكما حاولته بالأمس ، فبلغت إليه أحياناً ، وقصرت عنه أحياناً . وهو مثل فيه من الثقة بالإنسان وضميره وطاقاته قدر كبير ، وفيه الدليل على أن الإنسانية غير ميؤوس منها فى المستقبل القريب أو البعيد . ودون ذلك مجال فسيح للعمل والواقع المستطاعين للأكثرين و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها [١] » وسماحة الإسلام تقبل من الجميع ما يستطيعون فى حدود مرسومة ، لا تهبط عنها الحياة « ولكل درجات مما عملوا [٢] » والطريق إلى الأفق الأعلى أبداً مفتوح .

ولقد كان لذلك الروح الذى أشرنا إليه أثر فى واقع الإسلام التاريخى ، فاستحال الإسلام — وهو فكرة ومعنى — شخصيات ووقائع ؛ ولم يعد نظريات مجردة ، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مثلا وأخيلة ؛ إنما عاد نماذج إنسانية تعيش ، ووقائع عملية تتحقق، وسلوكا وتصرفات تشهد بالعين ، وتسمع بالأذن ، و تترك آثارها فى واقع الحياة ، وفى أطوار التاريخ ؛ فكأنما كان روحاً سحرياً يتلبس بهذه الشخوص فيحولها ، ويصوغها صياغة جديدة ، وينشئها نشأة أخرى .

وهذا هو التفسير الأصدق لكل هذا الحشد من الشخصيات العجيبة التى احتفظ بها تاريخ الإسلام فى نشأته . وعلى مدى عصوره ، ولكل تلك الوقائع والأحداث التى يكاد امرؤ يحسبها أساطير ابتدعها خيال محلق ، ولم تكن ذات يوم حقائق سجلها الواقع ، ورسمها التاريخ .

نماذج التطهر الروحى ، والشجاعة النفسية . والتضحية المؤثرة ، والبناء فى الفكرة ، والومضات الروحية والفكرية البارعة ، والبطولات الحية فى شتى مناحى الحياة . . لا يكاد يحصيها التاريخ .

(١) سورة البقرة : [٢٨٦] .

(٢) سورة الأنعام : [١٣٢] .

ولا بد أن نعقد الصلة جملة بين هذه البطولات والخوارق المتناثرة على مدار التاريخ ، وبين روح الإسلام القوى الفعال ، الذى يعد مصدر هذه الطاقة المنبثة فى أطوائها جميعا .

أما دراسة هذه البطولات والخوارق مفرقة ، دون وصلها بهذا المنبع الأصيل ، فأخشى أن تكون ناقصة ومضللة عن الحقائق الأساسية فى الكون والحياة ، برجعها سر عظمة كل شخصية إلى عبقرية خاصة بها ، وإهمال الروح الأول المشع المؤثر ، ذلك الروح الذى مس أرواح الأبطال ، كما مس عجلة الزمن ، وطبائع الأحداث ، ودفعها جميعاً فى تيار حى قوى جياش ، تنغمر فى لجه العبقريات والوقائع والأحداث !

ولن نكون مخطئين حين نرد انبعاث هذه العبقريات كلها ، وبروز تلك البطولات جميعها ، إلى فعل ذلك الروح القوى ؛ فهو حركة كونية شاملة ، تتوافى مع هذه الطاقات ، الفردية فى الظاهر ، الكونية فى الحقيقة . ومقياس عظمة كل عبقرية منفردة هو استعدادها لتلقى ذلك الفيض الكونى ؛ فلا عجب أن كانت أكبر عظمة هى نبوة محمد بن عبد الله ؛ فهى التى تلقت ذلك الفيض كله واستوعبته ؛ وأطاقت تلقيه كاملا والصبر عليه طويلا ، لأنها فى صميمها قوة كونية لا طاقة فردية .

ثم تتدرج العظمات تحت أفق النبوة ، فى أصحاب محمد ، وفى معتنقى دينه على مدار التاريخ ، كل بقدر ما فيه من استعداد لتلقى ذلك الروح الكامن ، فى ذلك الدين العظيم .

هذه النظرة الشاملة هى التى تكشف لنا عن مس ذلك الروح لأرواح البشر ؛ وما نبت من عبقريات ؛ وما أبرز من بطولات ؛ وما حول من مجرى التاريخ الإنسانى على وجه العموم .

وإننا لنملك أن نرى الآثار الواضحة لمس ذلك الروح فى أحداث التاريخ الكبرى كما نراها فى حوادث السلوك اليومية . والعظمة الروحية لا تقاس بالكم والمساحة ، بل بالنوع والدلالة . فالعظمة التى تتجلى فى غلبة حفنة من عرب الجزيرة على إمبراطوريتى كسرى وقيصر فى فترة زمنية قصيرة ، لا نظير لها فى القصر ، لا نبخسها قدرها إذا نحن قسناها إلى العظمة التى نتجلى فى صبر بلال العبد الحبشى ، على إيذاء قريش إيذاء فوق طاقة البشر احتماله ، لتفتنه عن دينه وهو عليه ثابت ، برمضه حر الحجارة المحماة ونقلها على بطنه وصدره ، مع الجوع والعطش والإيذاء ، فما يزيد على قوله « أحد . أحد » فى وقدة هذا العذاب الذى لا يطاق .

وإن هذا الروح لهو الذى يمس « رجل الشارع » لامال له ولاجاه ، فيقف به أمام السلطان القادر القاهر يجبهه بكلمة الحق لايخشى فى الله لومة لائم ؛ كما نلمسه فى الخليفة الراشد ، تدين له الممالك ، وهو على حاله من القناعة والسمو والتواضع . كلاهما يغترف من معين واحد ، هو ذلك الروح القوى المؤثر العميق .

وعلى ذكر غلبة العرب على إمبراطوريتى كسرى وقيصر ؛ يجب أن نحسب حساب ذلك الروح ، وانتصاره على القوى المادية الضخمة المرصودة فى طريقه ، المحشودة فى الإمبراطوريتين الضخمتين ، والتى لم يكن العرب أكفاء لها بغير ذلك الروح . فانتصار الإسلام هنا هو انتصار فكرة روحية تقمصت النفوس البشرية ؛ وإن فيه لتأييداً قوياً للتفسير الروحى للتاريخ ، لا تقف أمامه التفسيرات المادية ، لأنها تعجز لامحالة عن تعليل ذلك الانتصار الغريب .

على أن النقلة النفسية البعيده التى نقلها الإسلام لعرب الجزيره فى الشعور والسلوك ، وفى الأهداف والغايات ، وفى التنظيم الاجتماعى والاقتصادى . . لاتقل دلالة فى هذا المجال عن دلالة الفتوح ، بل هى أوضح وأقوى . فأى تطور اقتصادى تم فى حياة الجزيرة بين مبعث محمد ووفاته ، أحدث هذا الانقلاب كله فى التفكير والشعور والتنظيم والتوجيه ؟ إنما هى الفكرة الروحية التى صنعت كل هذه الأعاجيب .

وإنه ليصعب فى هذا المجال أن نستعرض هذا الانقلاب ؛ فحسبنا منه هذه اللمحة التى شهد بها شاهد من العرب أنفسهم فى ذلك الزمان ، أمام شهود من منكرى هذا الدين، فلم يجدوا لهم رداً يكذبه فيما يقول . ذلك حين هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من إيذاء قريش أوائل الدعوة الإسلامية ؛ فخشيت قريش أن يكون فى ذلك المهجر متنفس للمسلمين ؛ فبعثت بسفيرين من لدنها إلى نجاشى الحبشة ليردا أولئك المهاجرين ، وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة فقالا : «أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت . وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » .

فلما سأل النجاشى المسلمين : «ماهذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولافى دين أحد من هذه الملل ؟» كان جواب جعفر بن أبى طالب : «أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئا ؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . » الخ.[١]

ولقد كان السفيران حاضرين ، وفيهما عمرو ، لاتنقصه ذلاقة اللسان ولاسعة الحيلة ، فلم يكذبا جعفراً فى تصويره لحال الجزيرة قبل الإسلام ، ولحقيقة الدين الجديد ومثله ؛ فهى صورة صحيحة صادقة لما كان وماصار .

---

(١) من رواية ابن إسحق عن أم سلمة فى السيرة لابن هشام الجزء الأول .

تلك شهادة من بطون التاريخ عن الجزيرة العربية ، وهــذه شهادة أخرى من رجل غير مسلم فى العصر الحديث عن العــالم كله إذ ذاك . يقول (ج . هـ . دينسون) فى كتابه « Emotions as the Basis of Civilisation » «العواطف كأساس للحضارة»:

« فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هارٍ من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ؛ وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » .(١)

* * *

وبعد فإن الحديث يطول ، وليس موضوع هذا الكتاب هو «الإسلام» إنما هو «العدالة الاجتماعية فى الإسلام » فبحسبنا أن نعرض نماذج من الواقع التاريخى فى هــذا الموضوع الخاص .

* * *

ولكننا لن نبدأ النماذج فى هذا الاتجاه حتى نعرض بعضها فى شأن آخر أعمق فى ضمير الإسلام ، وعليه قامت كل آساس الإسلام .

قلنا منذ قليل عن تلك اليقظة الدائمة التى فرضها الإســلام على ضمير الفرد ،

(١) عن كتاب « الإسلام والنظام العالمى الجديد » تأليف مولاى محمد على وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

والحساسية المرهفة التي يثيرها في شعوره . ولقد حفظ الواقع التاريخي للإسلام نماذج لتلك اليقظة الدائمة ، ولهذه الحساسية المرهفة ، أكثر من أن نأتي هنا بها ، والنماذج القليلة المنوعة تغني عن الكثير .

عن بريدة قال : « جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله طهرني ، فقال : ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ، ثم جاء فقال: يارسول الله طهرني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر . فقال : أزنيت ؟ قال نعم ! فأمر به فرجم . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : استغفروا لماعز بن مالك ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم . ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يارسول الله طهرني . فقال : ويحك ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه . فقالت : تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك ؟ إنها حبلى من الزنا ! فقال : أنت ؟ قالت نعم . قال لها : حتى تضعي ما في بطنك . قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية ، فقال : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه . فقام رجل من الأنصار فقال : إلى رضاعه يانبي الله . قال فرجمها . ويروى أنه قال لها : اذهبي حتى تلدي . فلما ولدت قال : اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً ياخالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت [1] » .

---

(١) مسلم والسنن .

فهذا ماعز بن مالك وهـذه صاحبته ؛ ولم يكن أحـدهما أو كلاهما ليجهل العقاب الأليم الذى يناله ، والمصير الشنيع الذى يحل به ؛ ولم يكن أحد قد رآهما لتثبت عليهما الجريمة ؛ ولـكنهما يلحان على الرسول ، وكلما شاءت رحمته ورحمة الإسلام أن يدرأ عنهما الحدود بالشبهات ، أصرّا وألحا ، وأغلقا على أنفسهما جميع الأبواب والمنافذ ؛ بل زادت المرأة أن تجبه محمداً رسول الله بأنه يريد أن يردها كما رد ماعز . إن كانت لتـكاد تقول رسول الله فى شريعته !

لم هـذا كله ؟ . . فى قوله وقولها : « طهرنى يارسول الله » مايشير إلى الباعث القوى الذى يغلب فى أنفسهما على رغبة الحياة . إنها يقظة الضمير ، وحساسية الشعور . إنها الرغبة فى التطهر من الإثم الذى لم يطلع عليه أحد إلا الله . إنه الحياء أن يلقيا الله غداً لم يطهرا من ذنب ارتـكباه .

ذلك هو الإسلام . فى حساسيته المرهفة تبدو فى ضمير الجانى . وفى رحمته العميقة تبدو فى رد محمـد لها ، كذلك يبدو فى حزمه فى تنفيذ العقوبة عنـد ثبوت التهمة ، لايقفه نبل الاعتراف ولاعظم التوبة ، لأن الجانى والشارع يلتقيان هنا عند الرغبة فى قيام هـذا الدين على أساسه الركين .

فهذه فى الحدود . فـكيف بهـا فى الاعتبارات الاجتماعية التى يضحى أحياناً فى سبيلها بالحياة ؟

إنها قصة عزل خالد عن إمارة الجيش فى الشام ، وتوليتها أبا عبيدة . وخالد هو القائد الذى لم يهزم إلى ذلك اليوم فى موقعة قط ، وهو العربى المزهو بنفسه ونسبه وانتصاراته . خالد هـذا يعزل من الإمارة ، فلا يضطغن، ولاتأخذه العزة فينسحب من الميدان ــ ولا تعوى يحاول الثورة ــ بل يظل فى المعركة بالعزيمة ذاتها ، وبالرغبة فى نصرة دين الله ، والاستشهاد فى سبيل الله لايلقى بالا إلى هـذه الاعتبارات كلها فى الموقف ، لأن اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى ضميره ، فوق كل الاعتبارات وفوق كل الملابسات .

ولهذه الواقعة دلالتها فى الجانب الآخر . جانب عمر بن الخطاب . لقد كان عزله خالداً نتيجة هذه الحساسية المرهفة نفسها . فلقد أخذ على خالد فى خلافة أبى بكر أشياء ثار لها ضميره ، وهاجت لها حساسيته . أخذ عليه تسرعه فى قتل مالك بن نويرة ، وإعراسه بعد ذلك بامرأته ؛ كما أخذ عليه بعدها حادثة قريبة منها هى زواجه من ابنة مجّاعة فى حرب مسيلمة الكذاب ، غداة مقتل ألف ومائتين من خيرة الصحابة فى هذه الحرب . . فلم يشفع له عنده فيما اعتقد من خطئه ، أن كان أكبر القواد وأكثرهم انتصارات ؛ والأمة الإسلامية على أبواب حروب ضخمة فى الشام والعراق ؛ وهى أحوج ماتكون إلى عبقرية خالد التى لا تهزم أبداً . فلم يكن شئ من ذلك بقادر على أن يسكن من حساسية ضمير عمر بخطأ خالد الفاحش ؛ وبضرورة إبعاده عن إمارة الجيش ، ثم عن الجيش كله . وقد انضم إلى هذه الحوادث كلها أن طريقة خالد فى استقلاله بما يوكل إليه من الأمور ، لاتتفق وخطة عمر ، وطبيعته من الإشراف على الدقائق والجزئيات ، استجابة لحساسية ضميره بالتبعات [1] .

ولسائل أن يسأل : ولم أبقى أبو بكر على خالد إذن وهذا خطؤه ؟

إن أبا بكر لم يسؤ ظنه بخالد إلى الحد الذى بلغه ظن عمر ؛ فقد رأى أنه أخطأ فى التأويل ، ولم يقصد خطيئة ولا إثماً ؛ فوسعه عفوه ، وإن غضب على فعلته ، وبخاصة الثانية ، فكتب له كتاباً « يقطر دماً » . ولكن لما كانت عقيدته أن عمل خالد يقع فى دائرة الخطأ المغفور ، عفا عنه وأبقاه .

هـذا هو التفسير الصحيح الذى يتفق وحساسية الضمير الإسلامى فى تلك الفترة

وأعجب العجب ماأورده رجل كالدكتور هيكل فى تعليل موقف أبى بكر وموقف عمر من خالد بن الوليد ، مما يتجافى عن روح الإسلام ، وإن كان يتفق مع ألاعيب السياسة المصرية فى هذه الأيام . قال فى كتابه « الصديق أبو بكر » ص ١٥٠ — ١٥٢ :

« بلغ اختلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك بن نويرة ما رأيت

(١) عن كتاب « خالد بن الوليد » للأستاذ صادق عرجون .

وكلا الرجلين كان يريد الإسلام والمسلمين الخير ولا ريب . أفكان اختلافهما مع ذلك راجعاً إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد ، أم كان اختلافاً على الساسية التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين . موقف الردة وقيام الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة؟!

« الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان منال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرىء مسلم ، ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ؛ فلا يصح بقاؤه فى الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ؛ ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى . ولو صح أنه تأول فأخطأ فى أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد[1] . وليس بنهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى ركابه . فلو أن مىل هـذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولـكان دلك أسوأ منل يضرب للمسلمين فى احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبى بكر ويلح حتى استدعى خالداً ، وعنفه على فعلته .

أما أبو بكر فـكان يرى أن الموقف أخطر من أن تقام لمتل هـذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغـير خطأ . والخطر محيط بالدولة كلها . والنورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصـاها إلى أقصاها . وهـذا القائد الذى يتهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التى ندفع بهـا البلاء ، وبتقى بهـا الخطر ! ؟ وما التزوج بامرأة على خلاف نقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن نتم طهرها ، إذا وقع هـذا من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تـكون له سبايا يصبحن ملك يمينه [2] ! إن التزمت فى تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ،

---

(١) لو كان هذا صحيحاً لأقام عليه الحد فى خلافته .

(٢) هذا كلام رجل يجهل بديهيات الشريعة الإسلامية . فإذا كان خالد عدا على امرىء مسلم فلا بد من إقامة الحد عليه . ثم ما دام هذا المرء مسلماً فروجه لا تسبى فى حرب ! !

وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر . ولقد كان المسلمون فى حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا فى حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح فى أربعين ألفا من بنى حنيفة ؛ وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ؛ وكان قد تغلب على عكرمة بن أبى جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد فى الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التى فتنت خالداً ، يعزل خالد وتتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالداً آية الله وسيف الله . فلتكن سياسة أبى بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره فى الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

« هذا فى رأيى هو التصوير الصحيح لما كان بين أبى بكر وعمر من خلاف فى هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبىء بنى حنيفة على عكرمة ، ليرى أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جحيم ، إما ابتلعه وقضى عليه فكان ذلك خير عقاب له على ما صنع بأم تميم وزوجها ، وإما صهره النصر فيه وطهره ، فخرج مظفراً غانما قد سكَّن من المسلمين روعا ، لا تعد فعلته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه » .

هـذا هو التصوير الصحيح للأمر فى نظر الدكتور هيكل ! وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه فى جو هـذه الفترة من التاريخ الإسلامى ، وفى ظل هذه الضمائر المرهفة الحساسة الشديدة الحساسية من رجاله ؛ ثم لا يرتفع ضميره هو وشعوره بتفسير الحوادث عن هـذا المستوى ، المستمد مباشرة من ملابسات السياسة فى عصرنا المادى الحاضر ، لا من روح الإسلام وتاريخه فى تلك الفترة ! إنما هـذه سياسة أيامنا الحاضرة تبرر الوسيلة بالغاية . وتهبط بالضمير الإنسانى إلى مستوى الضرورات الوقتية ؛ وتحسب هـذا براعة فى السياسة ، ولباقة فى تصريف الأمور . وما أصغر أبا بكر فى هـذا

التصوير الذى يقول الدكتور هيكل : إنه هو التصوير الصحيح ! لولا أن أبا بكر كان أكبر وأبعد من مدى المجهر الذى ينظر به رجل يعيش فى عصر هابط ؛ فلا يستطيع إطلاقاً أن يرتفع إلى ذلك الأفق السامق البعيد . فضلا على الجهل الفاضح بأوليات الشريعة الإسلامية .

ومرة أخرى يعود الدكتور هيكل فى كتابه : «الفاروق عمر» جزء أول ، ليصور أفكار عمر وهو يهم بعزل خالد ، فيدركه هبوط العصر الذى يعيش فيه ، وتقعد به ثقلة رئيس الحزب الذى يرى المصالح الوقتية والضرورات المحلية ؛ ولا يطيق أبداً أن يستشعر روح الإسلام فى آفاقه العليا . ذلك حيث يقول فى ص ٩٩ — ١٠٠ :

«كيف غامر عمر بعزل خالد ، وخالد على رأس قوات المسلمين بالشام؟ وهذه القوات فى موقف دقيق ؟ فقد كانوا هناك بإزاء الروم ، لا يواجهونهم ، ولا يقدرون من أمرهم على شئ ، ولا يقدر الروم من أمر المسلمين على شئ . كان ذلك موقفهم قبل أن يذهب خالد بن الوليد من العراق إليهم ، ثم ظلوا فيه بعد أن أقام خالد بينهم ، وكان كلا الفريقين يتحين الفرصة التى يخرج فيها من جموده ، ويوقع فيها بعدوه . أفلا يخشى الخليفة أن يفت أمره بعزل خالد فى أعضاد المسلمين ، فيزيد موقفهم دقة ؟ أولم يكن الأجمل به أن يتريث حتى يخرج خالد بالمسلمين من المأزق الذى هم فيه ، وله بعد ذلك أن يأمر بما يشاء !

«هذه اعتبارات لها من غير شك قيمتها فى تطور القتال ؛ وسنرى من بعد أن أبا عبيدة قدرها قدرها ، دون أن يخشى برم الخليفة به أو غضبه عليه . لكن عمر نظر فى الأمر من غير هذه الناحية ، فلو أنه أرجأ الأمر بعزل خالد إلى ما بعد المعركة لأضر ذلك بسياسته وأفسد عليه خطته . فليس المعركة مصير إلا أن يهزم المسلمون فيها أو ينتصروا . فإن انهزموا لم يحسن عزل خالد عن هزيمتهم : وإن انتصروا وخالد قائدهم لم يكن لعمر أن يعزل قائداً فى أوج نصره . فإن فعل أتى أمرا إداً . وعمر حريص على ألا يبقى خالد على القيادة العامة بالشام أيقنار النصر ؛ لذلك أسرع فأصدر الأمر

بعزله ، وله من العذر أن خالداً لم يحقق ماندبه أبو بكر لتحقيقه . فإذا انتصر المسلمون بعد هــذا فلا تثريب على عمر فيه ، فهو إنما صنع مااقتنع بأنه الحق ، وصنعه وخالد فى موقف لا يظلمه من يأمر بعزله » .

هكذا يفكر هيكل «باشا» فى القرن العشرين ، ثم يسند تفكيره إلى عمر فى صدر الإسلام ؛ كما فكر من قبل ثم أسند تفكيره إلى أبى بكر ! وهذه قولة رجل لم تمس روحه روح أبى بكر ولا روح عمر ، ولم تستطع حياته فى جو الإسلام فترة أن تنتزعه من ملابسات القرن العشرين ، ومافيه من التواءات واحتيالات وانتهازات فرص على حساب الضمير أوحساب الحق أوحساب الدين .

وماظن هيكل بعمر ؟ أفكان عمر مبقياً على خالد لوكان الظرف غير الظرف ، ولو كانت الفرصة غير الفرصة ؟ وهو يعتقد بينه وبين ضميره ــ كما صوره هيكل «باشا» ــ أن خالداً آثم فى حق مالك بن نويرة وفى حق الله والدين ؟

أهو عمر ذلك الرجل الذى يقيم وزناً لهــذه الاعتبارات ، ويحنى لها رأسه . وهو الذى كان يبنى الشواهق ولا يبنى ، و يواجه العاصفة بالإيمان ولا ينحنى ؟

مثل هــذا قد يصنعه ملوك بنى أمية أوملوك بنى العباس و يعده الناس منهم دهاء وسعة حيلة ؛ فأما عمر فلا ، وأما أبو بكر فلا كذلك . و إنمــا يظن بعضهم بهما هــذا الظن لضحالة روح العصر وهبوط مقاييسه ومعاييره !

و بعد فقد أسهبت فى عرض هــذا اللون من التفكير و عيده ، لأصحح الخطأ العميق الذى يقع فيــه من يريدون تصوير طرائق التفــكير والشعور فى عصر ارتفاع الروح الإسلامى ، على ضوء التفكير والشعور فى عصر المادى البعيد عن ذلك الروح المرهف . ومايجره هذا الخطأ من سوء الفهم لحقائق الضمير البشرى ، وطاقته فى السمو والحساسية . وما أريد أن أقول إن أولئك الرجال كانوا قديسين ، وإنهم كانوا معصومين من كل ضعف بشرى ؛ ولــكنما أريد أن أرد الثقة بالضمير البشرى إلى نفوس الناس . كما أريد أن أصور

هذه الفترة من حياة المسلمين صورتها الصحيحة التى يستشعرها بقوة كل ضمير فيه استعداد للتطلع إلى هذا الأفق البعيد !

ثم لنمض فى استعراض نماذج الحساسية المرهفة فى شتى المناحى .

هـذا عمر بن الخطاب خليفة يقبل حاملا قربة ماء ، فيسأله ابنه فى استنكار : لم فعلت هـذا ؟ فيجيب : « أعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها » . يالها من حساسية ! لقد استشعرت نفس الرجل شيئاً من الزهو فى أعماقها بالخلافة و بالفتوح و بالعظمة المقبلة ، فكره لها أن تلج فى هذا الزهو ، فبادر يذلها . و يذلها على مرأى من الناس . ولا يبالى أنه الخليفة الحاكم على رقعة تضم إلى بلاد العرب معظم إمبراطوريتى كسرى وقيصر !

وهـذا على بن أبى طالب خليفة يرعد من البرد فى الشتاء ، وعلى جسده ثوب صيفى لا وقاء له سواه . و بيت المال فى يده ، تذوده عنه تلك اليقظة فى الضمير ، وذلك الإرهاف فى الشعور .

ثم هـذا أبو عبيدة مع جنده فى عمواس ، وقد أخذها الطاعون الفاتك . و يخاف عمر على « أمين الأمة » فيدعوه ليلتمس له مخرجاً من الهلاك فى كتاب يقول له فيه : « أما بعد ، فإنى قد عرضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها . فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هـذا ألا تضعه من يدك ، حتى تقبل إلىّ » . وينظر أبو عبيدة فى الكتاب فيدرك قصد عمر ، و يشعر أنه إنما أراد أن يستله من الوباء الفتاك ، فيقول : « يغفر الله لأمير المؤمنين ! » ثم يكتب إليه : « إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم ، حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه . فحلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين . ودعنى فى جندى » . و يقرأ عمر الكتاب فيبكى : فيسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟ فيجيب والدمع يخنقه : « لا . وكأن قد » وقد كان !

أهو الإيمـان العميق بقـــدر الله يمسك أبا عبيدة فى مرداه ! إنه لهَوَ ، ومعه

تلك الحساسية ألا يفر بنفسه ويدع جنده ، وهو وإياهم جند فى سبيل الله .

وهـذا بلال بن رباح مؤذن الرسول ، يرجوه أخوه فى الإسلام « أبو رويحة » أن يتوسط له فى الزواج من قوم من أهل اليمن فيقول لهم : « أنا بلال بن رباح ، وهذا أخى أبو رويحة ، وهو امرؤ سوء فى الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا » .

هـكذا لايدلس عليهم ، ولا يخفى من أمر أخيه شيئا ، ولا يذكر أنه وسيط لينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول . وقد زوجه القوم مطمئنين إلى هذا الصدق ، وحسبهم أن يكون صاحبه وسيطاً بين ابنتهم ومن خطبها إليه !

ثم هـذا أبو حنيفة قد « بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجارة ، وأعلمه أن فى ثوب منه عيبا ، فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ، ونسى أن يبين ، واستوفى ثمناً كاملا لثوب غير كامل — وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفا ، أو خمسة وثلاثين ألفا — فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ؛ ولـكنه لم يهتـد إلى الرجل : فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه ، وتتاركا . بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله ، وتصدق به كاملا [1] » .

« ويروى أنه كان عنـد يونس بن عُبَيْد حلل مختلفة الأثمـان . ضرب قيمة كل حـلة منـه أربعمائة ، وضرب كل حـلة قيمتها مائتان . فمر إلى الصـلاة ، وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهى على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته . فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى نردها ! فقال : هـذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتها فقال يونس : انصرف ، فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى الدكان ، ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك ، وقال له : أما استحييت ! أما اتقيت الله !

(١) عن كتاب « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندى .

تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

« وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابيّ فى غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابى طول النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال : ياهذا قد رضيت . فقال : و إن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا . ورد عليه خمسة » (١)

ومفتاح هـذه الحوادث الثلاث هو قول يوسى بن عبيد لابن أخيه : « أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ » . نعم إنه الحياء من الضمير ، و إنها التقوى لله . ذلك مايثيره الإسلام فى النفس الإنسانية بقوة حين تستشعر روحه ، و يمتزج بها وتخالطها بشاشته .

و إن وراء هـذه النماذج التى عرضناها لعشرات ومئات من أمثالها فى كل منحى وكل اتجاه ، وحسبنا منها هـذه المثل القليلة ، لتشير إلى الآفاق التى يهدف إليها الإسلام فى تطهير الضمير البشرى ورفعه ؛ ليستعلى على جميع الملابسات والضرورات . على حب النفس والحياة ، وحب المال والجاه ؛ وليصبر على تـكاليف اليقظة الدائمة التى يفرضها على ضمير الفرد ، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى شعوره ليضمن بذلك بلوغ تلك الآفاق .

ثم نمضى من بعد مطمئنين ، نستعرض بعض جوانب الواقع التاريخى للإسلام فى العدالة الاجتماعية ، على هدى من تلك الآفاق المشعة العالية فى واقع الإسلام .

* * *

المساواة المطلقة بين بنى الإنسان كانت رسالة الإسلام ، والتحرر الوجدانى المطلق من جميع القيم وجمع الاعتبارات التى تخدش هذه المساواة . ولقد أسلفنا الحديث عن نظرية الإسـلام فى المساواة والتحرر ، والنصوص التى لا تدع مجالاً للشك فى عمـق هـذه النظرية وأصلها فى بناء الفـكرة الإسلامية عن المجتمع الإنسانى ، فالآن ننظر كيف طبقت هذه النظرية فى واقع الحياة .

---

(١) عن كتاب « الرسالة الخالدة » للأستاذ عبد الرحمن عزام .

كان الرقيق فى كل مكان على وجه الأرض طبقة غير طبقة الأحرار ، وكذلك كان فى الجزيرة العربية . فأما محمد بن عبدالله فقد زوّج ابنة عمته « زينب بنت جحش » سليلة قريش الهاشمية من مولاه زيد . والزواج مسألة حساسة ترتفع فيها قضية المساواة إلى أفق دونه كل أفق ؛ وما كان أحد غير هذا النبى ، ولا كانت قوة غير قوة هذا الدين ، بكافية أن تحقق هذه المعجزة التى لاتتحقق إلى اليوم فى غير بلاد الإسلام . ونحن نشهد فى الولايات المتحدة التى بطل فيها الرق بحكم القانون ، أن الزنجى لايحرم عليه الزواج بالبيضاء — أية بيضاء — فحسب ، بل يحرم عليه دخول المطاعم والملاهى والجلوس إلى جوار البيض فى المركبات العامة ، والنزول معهم فى المناوى والفنادق حتى الآن !

وحينما آخى محمد بين المهاجرين والأنصار فى أول الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وخالد بن رويحة الخثعمى وبلال ابن رباح أخوين . ولم تكن هذه الأخوة مجرد لفظ ، ولكنها صلة الحياة التى تعدل صلة الدم : صلة القربى فى النفس والمال وسائر مظاهر الحياة .

ثم يبعث الرسول بزيد مولاه قائداً لغزوة مؤتة ؛ ثم بابنه أسامة قائداً لغزو الروم فى جيش يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وفيهم عمر ، وزيرا الرسول وصاحباه ، والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد بن أبى وقاص وهو ذو قربى من رسول الله إذ كان من أخواله بنى زهرة ومن أسبق قريش إلى الإسلام ، شرح الله له صدره وهو ابن سبعة عشر عاماً ، وهو ذو مال ونعمة وقدرة على الحرب وعبقرية فى الجهاد .

فإذا قبض الرسول ، وأصر أبو بكر على إرسال جيش أسامة ، بت قائده الذى اختاره رسول الله . ثم سار يودعه إلى ظاهر المدينة ، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل ، فيستحيى أسامة أن يركب وهو شاب وخليفة رسول الله يمشى وهو شيخ ، فيقول : «ياخليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن» فيقسم الخليفة : «والله لاتنزل ، ووالله لاأركب . وما

علىّ أن أغبر قدمىّ فى سبيل الله ساعة ؟ » . . ثم يرى أبو بكر أنه فى حاجة إلى عمر ، وقد حمل عبء الخلافة على عاتقه ؛ ولكن عمر إنما هو جندى فى جيش أسامة ، وأسامة هو الأمير ، فلابد من استئذانه فيه ، فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعلْ ».

يالله ! . . إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل . . إنها آفاق عوال ، لا يرقى إليها تعليق أو مقال .

ثم تمضى عجلة الزمن فنرى عمر بن الخطاب خليفة يولى عمار بن ياسر على الكوفة — وهو أحد الموالى — ويقف بباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام ، وأبو سفيان ابن حرب وجماعة من كبراء قريش ؛ فيأذن قبلهم لصهيب وبلال ، وهما موليان فقيران ، لأنهما كانا من أهل بدر ومن أصحاب الرسول ؛ فتورم أنف أبى سفيان من الغضب لهذا التقديم ؛ وينطلق لسانه يدعو بدعوى الجاهلية يقول : « لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيدُ ، ويتركنا على بابه » !

ويمر عمر بن الخطاب يوماً بمكة فيرى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع سادتهم ، فيغضب ، ويقول لسادتهم مستنكراً : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ » ثم يدعو الخدم للأكل مع السادة فى جفنة واحدة !

وكان عمر قد استعمل على مكة نافع بن الحارث ، فلقيه عمر بعُسْفَان ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزَى . قال : وما ابن أبزى؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولًى ؟ فقال : إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » .

وما كان سؤال عمر استنكاراً . إنما هو استفهام ليعلم فيم كانت مزية ابن أبزى وهو لا يعرفه : وإلا فهو الذى يقول وهو يوصى بالستة أهل الشورى بعده : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته » فهو عنده آثر من الستة أهل الشورى وفيهم : عثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص .

وخطب رجل من الموالى إلى رجل من قريش أخته ، وأعطاها مالا جزيلا ، فأبى القرشى تزويجها إياه . فلما بلغ ذلك عمر ، قال للقرشى : مامنعك أن تزوجه ، فإن له صلاحاً وقد أحسن عطية أختك ؟ فقال القرشى : ياأمير المؤمنين ، إن لنا حسباً ، وإنه ليس لها بكفء . فقال عمر : لقد جاء بحسب الدنيا والآخرة . أما حسب الدنيا فالمال ، وأما حسب الآخرة فالتقوى . زوّج الرجل إن كانت المرأة راضية . فراجعها أخوها فرضيت . فزوجها منه .

وقد رأينا من قبل كيف كان بلال المولى شفيعاً لأبى رويحة العربى فى الزواج عند أهل اليمن ، فأكرموه من أجل بلال وقبلوه !

وقد كان المجال مفتوحاً أمام الموالى ليبلغوا أقصى مراتب المجد فى كل اتجاه : « قد كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله بن عمر يذكر ومعه مولاه نافع . وأنس بن مالك ومعه مولاه ابن سيرين . وأبو هريرة ومعه مولاه عبدالرحمن ابن هرمز .

« وفى البصرة كان الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاووس بن كيسان هم الفقهاء .

« وفى مصر تولى الفتيا يزيد بن أبى حبيب فى أيام عمر بن عبد العزيز ، وهو مولى أسود من دنقلة (١) . . . »

وبهذه الروح نفسها كان المسلمون ينظرون إلى العمال . فالعامل بيده مكرم محترم ، لا فى عالم النظريات والمثل ، بل فى واقع الحياة ؛ لا يخدش منزلة العامل أن تكون صناعته ما تكون ، فللعمل شرفه أياً كان ؛ ولن تمنعه حرفته التزود من العلم والتفوق فيه والاعتراف له بالأستاذية والتوقير .

« كان أبو حنيفة خزازاً ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجاراً وصناعاً .

« هـذا الإمام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمـد والحسن صاحبى

---

(١) منقول من كتاب : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندى .

أبى حنيفة ؛ وكان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ؛ ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال . وهذا الكرابيسى يبيع الكرابيس أو الثياب الخام . وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار ، فيقول : هذا من أثر عملى فى الابتداء (صناعة الأقفال) . وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطاً . والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل فى الجص . ثم هذا الصفّار (من بيع الأوانى الصفرية أى النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطر) والحلوانى (كان أبوه يبيع الحلوى) والدقاق والصابونى والنعالى والبقالى والقدورى وغيرهم كثيرون . . يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية ، أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ، ماجاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ولما يكد يحققه : أن ليس ثمة مهن رفيعة ، وأخرى وضيعة ، وإنما ثمة رجال رفيعون وآخرون لارفعة فيهم [(١)] » .

* * *

ولكن هذا الأفق من المساواة الإنسانية لا يتم تمامه حتى نعلم كيف كان المجتمع الإسلامى يعامل الأعلين من الناس فيه ، فإنه لا يكفى أن يحترم الأدنى ويسوّده ، إن لم ينزل الأعلى إلى مستوى واحد معه ، لا يفضله فيه إلا بالعمل ، والعمل وحده ، لابالحسب والنسب ، والجاه والمال .

قال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » : حدثنى عبدالملك بن أبى سليمان عن عطاء قال : كتب عمر رضى الله عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم ، فوافوه ، فقام وقال : ياأيها الناس إنى أبعث عمالى هؤلاء ، ولاة بالحق عليكم ؛ ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ؛ فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم . قال : فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد ، فقال : ياأمير المؤمنين . عاملك ضربنى مئة سوط . فقال عمر : أتضربه مئة سوط ؟ قم فاستقدْ منه . فقام إليه عمرو بن العاص

---

(١) المصدر السابق .

فقال له : ياأمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ؛ وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقيده منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه . قال فقال : دونكم . قال : فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتى دينار ، كل سوط بدينارين !

ولقد اتقاها عمرو بن العاص عن سواه ، ولم يستطع أن يتوقاها عن ابنه حينما لطم ابن المصرى فأقاد له منه عمر ، وهو يقول للمصرى : « اضرب ابن الأكرمين» وكاد عمرو نفسه يذوقها لولا أن كف المصرى وعفا !

ولقد جلس عمر ذات يوم يقسم مالاً بين المسلمين ، فازدحم الناس عليه ؛ فأقبل سعد ابن أبى وقاص ـ وقد مرّ بنا نسبه وبلاؤه فى الإسلام ـ فزاحم الناس حتى زحمهم وخلص إلى عمر ، فعلاه عمر بالدرة وهو يقول : « لم تهب سلطان الله فى الأرض فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك » .

ولعل قائلاً أن يقول : إنما هذا خليفة !

فلننظر الآن ماذا بلغ الخلفاء والملوك من رعاياهم من حرية فى القول والتعبير ، منشؤها ذلك التحرر الوجدانى الذى بثه الإسلام فى الضمير ، وتلك المساواة الطامة التى حققها فى القول والعمل .

هـذا عمر يخطب الناس وهو خليفتهم فيقول : « إن رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوّمونى » فينتدب له رجل من عامة المسلمين يقول : «لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحد سيوفنا» ، فمايزيد عمر على أن يقول : «الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقوّمه بحد سيفه » !

وغنم المسلمون أبراداً يمانية ، فخصه برد ، وخص ابنه عبد الله برد ـ كأى رجل من المسلمين ـ ولما كان الخليفة فى حاجة إلى ثوب ، فقد تبرّع له عبد الله ببرده ليضمه إلى برده فيصنع منهما ثوباً . ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب . فقال : «أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا» فوقف سلمان فقال : لاسمع لك علينا ولاطاعة . قال عمر : ولم ؟ قال سلمان : من

أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال : لا تعجل ، ونادى ياعبد الله ! فلم يجبه أحد . قال : ياعبد الله بن عمر . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : ناشدتك الله البُرْد الذى ائتزرت به أهو بُرْدك ؟ قال : اللهم نعم . قال سلمان : الآن مر نسمع ونطع .

و بعد ، فلعلَّ قائلاً أن يقول : إنما هذا عمر !

فهذا أبو جعفر المنصور ينشىء دولة فى ظل ما ندعوه اليوم بالأحكام العرفية ؛ فيدخل عليه سفيان الثورى فيقول : « . . . فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ، ومال أمة محمد بغير إذنهم . وقد قال عمر فى حجة حجها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : « ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال » . وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك ، وأول كاتب كتبه فى المجلس ، عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله قال : « رُبَّ متخوّض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه . . له النار غداً » ؟ فيقول أبو عبيد الكاتب — أحد متزلفى الحاشية فى بلاط الملوك : أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ فيجيبه سفيان بعنف : « اسكت ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون » [1] ثم يخرج وقد صدع بكلمة الحق القوية ، حيث لا يملك الجبابرة — مهما تجبَّرُوا — أن يجرؤوا على من عمرت قلبه ، وارتفع على الضرورات ، وأخلص نفسه لله .

وهذا هو الواثق — وهو أحد الملوك المستبدين أيضا — يدخل عليه شيخ من المتكلمين ، وسلم فلا يرد عليه الواثق ، إنما قال : لا سلم الله عليك ! فإذا الرجل يجيبه : « بئس ما أدبك [illegible] حيوا بأحسن منها أو ردوها » فلا حييتني [illegible] [2]

[illegible] . الملك العباسى ، فى سنان؛

(١) عن كتاب : [illegible] الجدى .
(٢) عن كتاب : [illegible] الأستاذ أحمد محمد شاكر .

ويرى أبو يوسف أن الحق مع الرجل ، ولكن للسلطان شهوده ، فيقول : إن الخصم يطلب أن يحلف الهادى على أن شهوده صادقون ! فينكل الهادى عن اليمين ـ لما يعتقد فيها من مهانة له ـ ويرد البستان على صاحبه . وكذلك يحلّف الرشيد فى قضية رأى أن يحلفه فيها . وشهد عنده الفضل بن الربيع فرد شهادته ، فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته؟قال سمعته يقول : أنا عبدك . فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً إنه لكذلك [1] » .

ولم تخب هذه الشعلة التى أضاءها الإسلام فى الضمير حتى فى أحلك عصور التاريخ ، فقد تناثرت على مداه أمثلة شتى لهذا التحرر الوجدانى ، والسمو الروحى على جميع القيم ، وجميع القوى ، وجميع الملابسات .

« كان أحمد بن طولون فى مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى فيجىء إلى مجلسه ؛ ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه . فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين . وقيل لابن طولون : إنما قصدك بهذا القول . فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها ، فأخذها كما هى بخواتمها . وسجنه فى دار اكتريت له ، فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس بإذن التمسوه من ابن طولون . فلما عرضت لابن طولون علته التى مات بها ، وجه إليه يستحله ؛ فقال للرسول : قل له أنا شيخ كبير ، وأنت عليل ، والملتقى قريب ، والله الحاجز بيننا . ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس [2] » .

هكذا . مات البائس . لما كان يحسه فى نفسه من تعالٍ عليه ، ولما كان يراه فيه من بؤس ولو أوتى السلطان !

وفى أيام الدولة الأيوبية : « لما والى الملك اسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية ، وسلم لهم صيداء وغيرها من الحصون ليستنجدوا على الملك نجم الدين أيوب . أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، وغضب عليه بعزله واعتقاله . ثم بعث إليه يعده ويمنيه ،

---

(١) عن كتاب أبو حنيفة للأستاذ [illegible] الجندى   (٢) المصدر السابق .

فقال له الرسول : «تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وماعليك إلا أن تتكسر للسلطان» فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : «والله ماأرضاه أن يقبل يدى . ياقوم أنتم فى واد وأنا فى واد [1]» .

وقد وعى التاريخ القريب نماذج من هذه الكرامة نذكر منها حادثين سمعتهما من أفواه الرواة ، ولا أعلم أنهما قد دوّنا . والأول رواه لى المرحوم أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف عن عصر إسماعيل ، والثانى يرويه الكثيرون لقرب عهده فى أيام الخديو توفيق .

فأما الحادث الأول فكان عند ما زار السلطان عبد العزيز مصر فى أيام إسماعيل . وكان إسماعيل حفيا بالزيارة ، لأنها كانت جزءاً من برنامجه للحصول على لقب خديو ، مع عدة امتيازات فى نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل «الخليفة !» العلماء فى السراى . ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد ، منها أن ينحنى الداخل إلى الأرض ، ويأخذ «تعظيما تركيا» ثلاث مرات ، ثم ماأدرى ماذا من تلك التقاليد العتيقة السخيفة المنافية لروح الإسلام . . فقد كان حتما على رجال السراى أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، كى لا يخطئوا فى حضرة السلطان !

وعند ما حان الموعد دخل السادة العلماء الأجلاء ؛ فنسوا دينهم واشتروا به دنياهم ؛ وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ؛ وأخذوا من الأرض السلام إلى رؤوسهم ، ثم منها إلى أفواههم ، ثم منها إلى صدورهم . وخرجوا موجهين ظهرهم إلى الباب ووجههم إلى الخليفة ، كما أمرهم رجال التشريفات . . ! إلا عالماً واحداً هو الشيخ حسن العدوى ؛ ذكر دينه ونسى دنياه : واستحضر فى قلبه أن لاعزة إلا لله . دخل مرفوع الرأس كما ينبغى أن يدخل الرجل الأحرار ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : «السلام عليكم ياأمير المؤمنين» وابتدر بنصيحته التى ينبغى أن تلقى بها العامة الحاكم . دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذاب الله ، والعدل والرحمة بين رعاياه . . فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس كما يخرج الرجال الأحرار!

---

(١) المصدر السابق .

وأسقط فى يد الخديو ورجال السراى ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التى بذلوا ، فذاهبة تلك الآمال التى نسجوا . . . !

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى ؛ فلا بد أن تصدع القلوب قوية حارة ، كما انبعثت من مكمنها قوية حارة . وهكذا كان . فقال السلطان : ليس عندكم إلا هـذا العالم . وخلع عليه دون سواه !

وأما الحادث الثانى فوقع فى «دار العلوم» بين الخديو توفيق باشا والشيخ حسن الطويل .

كان الرجل يلبس جلباباً وجبة غير مشقوقة ، وهو أستاذ فى الدار . وفى يوم علم الناظر أن الخديو سيزور مدرسته ، فأخذ أهبته ، وزين مدرسته ، وكان من بين الأهبة أن يغير الشيخ حسن الطويل زيه ، ويستحضر له قفطاناً وجبة مشقوقة ، حتى يظهر فى الزى الذى يليق أن يقابل به الحكام !

وسمع الشيخ طلب الناظر فوافق بالإيماء . وفى الصباح حضر الشيخ كما هو ومعه منديل «محلاوى» به حزمة ملابس . ولما رآه الناظر هكذا سىء وجهه ، وقال والغضب والألم يبدوان عليه : أين الجبة والقفطان ياسيدنا الشيخ ؟ فأشار إلى المنديل وقال : هما ! وترك الناظر يفهم أنه سيرتديهما عند قدوم الزائر العظيم ! فاطمأن الناظر إلى هذا التصرف الغريب !

ومر الوقت ، واهتزت أركان الدار بقدوم الزائر المرتقب . وهنا كانت المفاجأة العظمى للناظر وللأساتذة وللجميع . . تقدم الشيخ من الخديو وبيده الحزمة وهو يقول فى بساطة وثقة واعتداد : طلبوا منى أن أحضر بالجبة والقفطان ، فحضرت بالجبة والقفطان . فإن كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ، وإن كنت تريد «حسن الطويل» فهذا هو حسن الطويل ! وقال الخديو [illegible] الطويل !

هذه نفوس مؤمنة لاتعتز إلا بعزة الإسلام ؛ وقد تحررت وجداناتها وضمائرها من كل القيم الزائفة ، والاعتبارات الفانية . لقد فهمت الإسلام على حقيقته ، واستشعرنه فى صميمه ، واستلهمت روحه القوية العالية ، فلم تعد فى حاجة إلى استرضاء إنسان . وهذا هو الإسلام .

* * *

وبعد فلعل ممايتصل بالمساواة الإنسانية والتحرر الوجدانى والعدالة المطلقة أن نتحدث عن الواقع التاريخى فى معاملة البلاد المفتوحة ، والطوائف غير الإسلامية فى بلاد الإسلام . فهذا لون من المساواة والعدل تتجاوز الأفراد إلى الجماعات ؛ ويتجاوز حدود الإسلام إلى حدود الإنسان .

إن الحديث عن البلاد المفتوحة ليسوقنا إلى الحديث عن طبيعة الفتح الإسلامى وأسبابه وغاياته . وهو مبحث طويل ، نجتزئ منه بالقليل الذى لابدمنه . والذى له علاقة وثيقة بالعدالة الاجتماعية فى محيطها الإنسانى .

لقد قامت دعوة الإسلام على مخاطبة العقل والضمير والوجدان ؛ وتجردت من وسائل القهر ، حتى القهر المعنوى بالخوارق المعجزة التى صاحبت الأديان الأولى ؛ فالإسلام هو الدين الأول الذى احترم القوى المدركة الشاعرة فى الإنسان ، فاكتفى بخطابها بلا قهر ولا إعجاز بخوارق الطبيعة ، فمن باب أولى ألا يجعل القهر المادى بالسيف أداة من أدواته . . « لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ [1] » . « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [2] » .

ولكن قريشا وقفت أول الأمر بالمرصاد فى طريق الدين الجديد ؛ وآذت من شرح الله صدره للإسلام ؛ وطردت المسلمين الأوائل من أرضهم وديارهم وأبنائهم ؛ وتآمرت عليهم أن تقاطعهم فى الشعب حتى يهلكوا جوعاً ؛ ولم تدع

(١) سورة البقرة : [٢٥٦] .
(٢) سورة النحل : [١٢٥] .

وسيلة من وسائل القوة المادية إلا استخدمتها للصد عن هذا الدين . فلم يكن بد أن يدفع الإسلام عن نفسه ؛ وأن يرد هذا الظلم عن أهله : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(١) ». « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٢) » . فهو قتال لضمان حرية العقيدة ولدفع الأذى عن المسلمين ، لا لإكراه أحد على الإسلام .

ثم خلصت جزيرة العرب للإسلام ، فامتدت الفتوح إلى ماوراء الجزيرة . ففيم كانت هذه الفتوح ؟

إن الإسلام كما أسلفنا يعدّ نفسه فكرة عالمية ، ودينا عاماً ؛ فلا يحصر نفسه فى حدود الجزيرة ، إنما يريد أن يفيض على الإنسانية كلها فى جميع أقطارها . ولكنه يجد أمامه قوة الدولة فى إمبراطوريتى كسرى وقيصر المتاخمتين له ، تقف له بالمرصاد ؛ فلاتسمح لدعاته أن ينتشروا فى الأرض ، ليكشفوا للناس عن حقيقة هـذا الدين . ولابد له أن يزيل هذه القوة — قوة الدولة — ليخلى بين الهدى والناس ، وليسمع كلمته خالصة ؛ فمن شاء استمع إليها وهو حرّ الإرادة ؛ ومن شاء أعرض عنها وهو مالك لأمر نفسه ، بعد أن تزول قوة الدولة المادية من الطريق .

هذه الفتوح الإسلامية إذن لم تكن غزواً للشعوب بالقوة ؛ ولا استعماراً للاستغلال الاقتصادى على نسق الاستعمار فى القرون الأخيرة . إنما كانت إزالة للقوة المادية للدولة التى تحول دون الشعوب ودون الفكرة الجديدة التى يحملها الإسلام فى طياته . كانت غزواً فكرياً للشعوب ، وغزواً مادياً للحكومات التى تقهر هذه الشعوب ، وتصدها عن الدين الجديد بالقوة المادية والجبروت .

وتبعاً لفكرة الإسلام فى أنه دين للبشر كافة ، وفى أنه لايعتمد على القهر المادى أو المعنوى ، فإنه وضع أهل البلاد المغزوة أمام ثلاث طرق ، لكل أن يسلك إحداها : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال .

---

(١) سورة الحج : [٣٩] .　　(٢) سورة البقرة : [١٩٠]

فأما الإسلام ، فلأنه الهدى ، ولأنه الفكرة الجديدة الكاملة عن الكون والحياة والإنسان ؛ وهو المجاز الذى يعبره غير المسلم ، فإذا هو منذ اللحظة الأولى أخ لجميع المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، لا يرتفعون عليه بحسب أو نسب أو مال أو جاه ، ولا يختلف عنهم بجنس أو أمة أو عشيرة .

وأما الجزية ، فلأن الفرد المسلم يؤدى ضريبة الدم لحماية الدولة ؛ ثم يؤدى للدولة الزكاة لحماية المجتمع . والفرد غير المسلم يتمتع بالأمن فى ظل الدولة الإسلامية ، وبالحماية الداخلية والخارجية ، و بسائر المرافق التى تهيئها الدولة للسكان ، كما يتمتع بالضمان الاجتماعى عند العجز والشيخوخة ، فيجب عدلا أن يساهم فى هذا كله بالمال . ولما كانت الزكاة عبادة إسلامية فوق أنها فريضة مالية ، فإن الإسلام — زيادة فى حساسيته تجاه الذين لا يعتنقونه — لم يشأ أن يرغمهم على أداء عبادة إسلامية ، فأخذ منهم الفريضة المالية فى صورة جزية ، لا فى صورة زكاة ، منظورا فى تقديرها إلى ضريبة الدم التى لا يؤديها إلا المسلمون . ثم إن الجزية علامة تسليم ، أى عدم مقاومة لفكرة الإسلام بالقوة ، وتخلية بينها و بين الناس . وهذا ما يهدف إليه الإسلام .

وأما القتال ؛ فلأن إباء الإسلام والجزية دليل على الإصرار الواضح على الحيلولة دون الإسلام وأفكار الناس . فيجب إذن أن يزال هذا الإصرار المادى بالقوة المادية ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الأخير .

ولقد حقق الإسلام أهدافه الإنسانية كاملة فى البلاد المغزوة ؛ فكفل لأهلها المساواة المطلقة بأهل الجزيرة فى حالة الإسلام ؛ وكفل لهم حقوق الإنسانية الكريمة فى حالة دفع الجزية ؛ وكفل لهم المعاملة الإنسانية العادلة فى حالة القتال .

أقرّ الإسلام بعض حكام البلاد المفتوحة على حكمها إذ صاروا من المسلمين . فهذا « بازان » الفارسى يقره أبو بكر على حكم اليمن . وهذا « فيروز » يقيمه حاكماً على صنعاء ، فلما أجلاه عنها قيس بن عبد يغوث العربى ، رده إليها أبو بكر منتصراً المسلم الفارسى على المسلم العربى !

كذلك أقر الحكام المسلمون كثيراً من الموظفين فى بلادهم المفتوحة على وظائفهم التى هى دون الولاية ، ممن بقوا على دينهم ولم يسلموا ، وأخلصوا فى العمل للصالح العام .

ومع أن نصوص الإسلام تبيح للفاتحين أن يستأثروا بكل ما يملك المحاربون الذين يأبون الإسلام والجزية ويقاتلون المسلمين ، فإن عمر بن الخطاب حين فتحت فارس على أيامه ، تصرف بما أملته عليه روح الإسلام ، فاستبقى الأرض لأهلها وفرض عليها الخراج ، مراعياً فى ذلك مصلحتين : مصلحة أهل البلاد المفتوحة ـ ولو أنهم قاتلوا المسلمين ـ لتبقى لهم وسيلة ارتزاقهم وعملهم ؛ ومصلحة الأجيال القادمة من المسلمين ؛ فلا يستأثر بالأرض دونهم الفاتحون فى جيل واحد ؛ بل يؤخذ منها الخراج فينفق فى مقبل الأجيال على المصالح العامة ؛ وينال منه المستحقون بقدر ما يستحقون فى الزمن الطويل .

وهناك ظاهرة واضحة فى معاملة الإسلام للبلاد المفتوحة . فلقد عاملها على الأساس الإنسانى الكريم ؛ فأباح لها كل ما فيه من خير ؛ وأتاح لها التمتع بمزاياه جميعا دون قيد ولا شرط ؛ بل دعاها بكافة الوسائل إلى الانتفاع بذلك الخير والتمتع بهذه المزايا . ولم يقم حاجزاً من اللون أو الجنس أو الدين أو اللغة أمام أحد ؛ فاستطاع الجميع أن يبذلوا نشاطهم الطبيعى لخير الجميع . وقد أسلفنا كيف نبغ الموالى وأبناء البلاد المفتوحة فى خاصة ما يختص بالإسلام وهو الفقه والتشريع ؛ فلم يكن مرفق من مرافق الحياة العامة موقوفا على أبناء الجزيرة الفاتحين ؛ حتى الولاية العامة كانت من نصيب بعضهم فى بعض الأحيان . كما أن أموال كل بلد كانت تنفق فى مصالحه أولا ؛ فلا يرسل إلى بيت المال العام إلا ما فضل منها . فلم تكن البلاد المفتوحة مستعمرة يعتش الفاتحون من دماء أهلها وأموالهم .

ويتصل بهذه الظاهرة الواضحة تلك الحرية التى كفلها الإسلام لأهل البلاد المفتوحة فى مزاولة شعائرهم الدينية ؛ [illegible] الجباية التى فرضها [illegible] وكنائسهم ومعابدهم [illegible] : [illegible] [illegible] المال

لم تعرفه الإسانية فى معاملاتها الدولية فى القديم أو الحديث . ومازال تقاليد الإسلام إلى اليوم عاملة فى هذا المجال .

وإن الإسلام ليبدو فارعاً سامقا رفيعاً كريماً فى واقعه التاريخى فى جميع العصور ، حينما تقاس إليه الحضارة الغربية القائمة ، وماتصنعه بالبلاد التى يوقعها سوء الطالع فى أوهاق الاستعمار ، حيث يحال بين هذه البلاد وبين المزايا الحقيقية للحضارة الغربية فى التربية والتعليم ، وفى الاقتصاد والتعمير ، كى تبقى أطول أمد ممكن بقرة حلوبا للمستعمرين . وذلك فوق الإذلال لكل كرامة إسانية ، فردية أوجماعية ؛ وفوق الفساد الخلقى الذى ينشر عن قصد وسوء نية ؛ وفوق الفتن الحزبية والطائفية التى تبذر بذورها ويتعهد غرسها ؛ وفوق سائر ألوان اللصوصية والنهب والسلب للأفراد والجماعات والشعوب.

فأما الحرية الدينية التى ينشدق بها بعضهم فى هذا الزمان ، فقد سبقتها فظائع محاكم التفتيش فى الأندلس ، وفظائع الحروب الصليبية فى الشرق . ومازال هذه الحرية الدينية شكلية . فقد كان المبشرون المسيحيون فى السودان الجنوبى إلى عهد قريب جدا تجند لهم كل قوى الدولة ، بينما يحظر دخول المسلمين حتى للتجارة ، وهذا «أللبى» القائد الإنجليزى فى الحرب العظمى الماضية يعبر عن نفس كل أوربى وهو يدخل بيت المقدس فيقول : «الآن فقط انتهت الحروب الصليبية» وهذا هو الجنرال كاترو الفرنسى يقف فى دمشق فى ثورتها الأخيرة عام ١٩٤٠ فيقول : « نحن أحفاد الصليبيين ، فمن لم يعجبه أن نحكم فليرحل» ويقول مثلها زميل له فى الجزائر سنة ١٩٤٥ . فأما فى الكتلة الشيوعية فالمسلمون يصب عليهم الإفناء بالجملة ، فيتناقص عددهم فى ربع قرن من اثنين وأربعين مليونا إلى ستة وعشرين مليونا فى روسيا ، ويحرمون الآن بطاقات التموين التى يستحيل على الأفراد أن يحصلوا على ضرورياتهم بدونها . ويقال لهم : لكم أن تصلوا لله إذا شئتم ، ولكن لاطعام لكم من الدولة فاطلبوا من الله هذا الطعام ! وشبيه بهذا مايصيبهم فى يوغسلافيا وفى كل مكان .

لقد كان الإسلام قمة فى العدل الاجتماعى الإسانى الشامل لم تبلغها بعد الحضارة

الأوروبية . ولن تبلغها أبدا ، لأنها حضارة المادة الجامدة . حضارة القتل والقتال والغلب والنضال ! (١)

***

ولقد سبق الحديث عن نظرية الإسلام فى الرحمة والبر والتكافل الاجتماعى الشامل بين القادرين والعاجزين ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الحاكم والمحكوم ؛ بل بين جميع أبناء الإنسان . فالآن نعرض نماذج من الواقع التاريخى ، مما حفل به تاريخ الإسلام الطويل .

فهذا أبو بكر كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وقد ربح الكثير من التجارة بعد إسلامه ؛ فلما هاجر إلى المدينة مع صاحبه الرسول ، لم يكن قد بقى له من كل مدخره سوى خمسة آلاف درهم . لقد أنفق ماله المدخر فى افتداء الضعفاء من الموالى المسلمين الذين كانوا يذوقون العذاب ألوانا من سادتهم الكفار ، كما أنفقه فى بر الفقراء والمعوزين .

وهذا عمر بن الخطاب — وإنه لرجل فقير — يصيب أرضاً بخيبر ، فيجىء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه . فماتأمر به ؟ فيجيبه الرسول : «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» فيجعلها عمر وقفا على الفقراء والقربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضعيف ، لاجناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقاً غير متمول فيها . ويخرج بذلك من أعزّ ماله تصديقا لقول الله : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٢)

وهذا عثمان — قبل الخلافة — نرد عير له من الشام فى وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجدب ، فإذا هى ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزبيباً ، فيجيئه التجار يقولون : بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس . . فيقول : حُبًّا وكرامة . كم تربحونى على شرائى ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين . فيقول : أعطيت أكثر

(١) يراجع بتوسع كتاب « السلام العالمى والإسلام » وفصل : «طبيعة الفتح الإسلامى فى كتاب « دراسات إسلامية » لمؤلف .

(٢) سورة آل عمران : [٩٢] .

من هذا . فيقولون : يا أبا عمرو ، ما بقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ فيقولون : لا . فيشهد الله على أن هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين .

وهذا علىّ وأهل بيته يتصدّقون بثلاثة أرغفة من سويق كانت لهم ، على مسكين ويتيم وأسير ، ثم يبيتون على الطوى ، وقد شبع المسكين واليتيم والأسير .

وهذا الحسين يثقله الدَّيْن وهو يملك عين أبى نَيْزَر ، فلا يبيعها ، لأن فقراء المسلمين يستقون منها ، فهى لهم ، وليحتمل ثقلة الدين وهو الكريم ابن الكرام من ذروة هاشم .

وهؤلاء الأنصار فى المدينة يشركون المهاجرين فى أموالهم ومساكنهم ، ويؤاخونهم فيعقلون معاقلهم ، ويفدون عانيهم ، ويخلطونهم بأنفسهم « وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »[1] كما وصفهم القرآن الكريم .

وتظل روح الإسلام عاملة فى هذا الاتجاه ما بعدت دار الإسلام عن التأثر بالحضارة الغربية المادية ، فيروى الأستاذ عبد الرحمن عزام فى كتابه « الرسالة الخالدة » عن قبيلة الطوارق يقول :

« رأيت بعض قبائل الطوارق فى شمال إفريقية يحيون حياة هـذا التكافل السعيد ؛ فلاس فيهم من يعش لنفسه ، وإنما لجماعته ؛ وأعظم ما نفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهـده الجماعة . وأول ما لفت نظرى لحالتهم هـده أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرسيين ، ونزل بسهم فى فزّان ، فجاورهم وعاش بفصلهم ؛ ثم خرج يطاب الرزق ، ويريد أن برد الجميل ، وترك أسربه فى جوار هـذه الجماعة الإسلامية . غير أن النحس لازمه ، ولم يستطع كسبا ، فجاءنا فى « مصراته » يستمدنا ، فأعنّاه

---

(١) سورة الحشر : [٩] .

ليعود إلى أهله ، ولـكنه عاد إلىّ بعد نحو سنة مرة أخرى ، فظننت أنه رجع من أهله ، فقال : لا . وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : بعد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه ، وأصبح الآن فى يدى ما أعود به إلى جماعة الطوارق. فقلت : إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق ؟ قال : إلى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادى فى غيبتى ، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائباً منهم ، وأُقسِّمُ ما أعْطَى اللهُ بين أولادى وأولاد جيرانى . فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟ قال : كلنا فى الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضـل ، والواحد من جماعتنا يستحى أن يعود إلى النجع خالياً ، لا حياء من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه الذين ينتظرون عودته ، كأهل بيته سواء بسواء » .

ثم يعقب على هذه المشاهدة بكلمة صادقة تمثل الحقيقة الواقعة :

« ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ، ولا هى من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هى الروح الإسلامية أكثر ظهوراً فى هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية . وقد وجدت هـذه الروح فى الدساكر والقرى الإسلامية التى لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلامى ، سواء أكان أهلها عربا أم عجما ، بيضاً أم سودا ، فى المشرق أم فى المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين فى كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر . لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة ، من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ، ولو انقرضت جماعتهم ؛ ويؤثرون شهواتهم على البر بأهليهم فضلا عن جيرانهم » .

هذا التكافل الذى توحى به روح الإسلام لم يكن متروكا للوجدان الفردى والجماعى وحده . فقد كان الحاكم يلزم به ويطبقه . فهذا عمر بن الخطاب يفرض للمفطوم والمسن والمريض فريضة من بيت المال ـ وذلك غير مصارف الزكاة المعروفة ـ وهو لون من ألوان الضمان الاجتماعى حسب حالة عصره . وهذا هو يدرأ حد السرقة فى عام الرمادة حين جاع الناس . لأن فى الجوع شبهة الاضطرار إلى السرقة ، والحدود تدرأ بالشبهات.

ولعل الحادثة التالية عن عمر ذات معنى حاسم فى التطبيق العملى للتكافل ، ولحق الملكية الفردية وحدوده فى محيط الجماعة !

«روى أن غلمانا لابن حاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولىّ رده ، ثم قال: أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لوأكل ماحرم الله عليه حل له ، لقطعت أيديهم . ثم وجه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة فقال: وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك ! ثم قال : يامزنى ، بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمئة» . وأعفى الغلمان السارقين من الحد ، لأن صاحبهم اضطرهم إلى السرقة لجوعهم ، وحاجتهم إلى سد رمقهم .

وهكذا تثبت تلك السابقة البعيدة فى الواقع التاريخى أن الإسلام يقدم حق الحياة والكفاية على حق الملكية الفردية ؛ ويقرر مبدأ التكافل الاجتماعى بين الواجدين والمحرومين فى المجتمع تقريراً واضحاً صريحا .

ومما يزيد فى جلال هذا التكافل الاجتماعى فى تاريخ الإسلام أن يتعدى الدائرة الإسلامية إلى الدائرة الإنسانية .

رأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب ،فسأل ، فعلم أنه يهودى فقال له : ماألجأك إلى ماأرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه مايكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : انظر هذا وضرباءه فوالله ماأنصفناه أن أكلنا شبيبته . ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

وما سافر إلى دمشق مر بأرض قوم مجذمين من النصارى . فأمر أن يعطوامن الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت .

وهكذا ارتفع روح الإسلام بعمر إلى هذا الأفق الإنسانى منذ أكثرمن ثلاثةعشرقرناً؛ فيجعل الضمان الاجتماعى حقاً إنسانياً ، لايتعلق بدين ولاملة ، ولاتعوقه عقيدة ولاشرعة .

ألا إنه الأفق البعيد السامق الذى تظلع البشرية اليوم دون مرتقاه !

***

فأما سياسة الحكم وسياسة المال من الوجهة الرسمية فى الدولة ، فقد شهد الواقع التاريخى عنهما فترة مثالية فى حياة الإسلام ، لم تعمر طويلا مع الأسف الشديد . وسنرى فيما بعد علة هذا ، لنرى إن كانت العلة كامنة فى طبيعة النظام الإسلامى فى هاتين الناحيتين ، أم إنها المصادفات السيئة التى لا علاقة لها بطبيعة هذا النظام . ولنبدأ بالحديث عن سياسة الحكم ، إذ كانت سياسة المال فى الواقع التاريخى تبعاً لها ، وفرعاً عن تصورها .

حينما حضرت النبى الوفاة دعا بأبى بكر ليصلى بالناس ؛ فلما راجعته عائشة ، لأن أبا بكر رجل أسيف ، فإذا قام فى الناس لم يسمعوا صوته . . أخذه الغضب ، وذكر صويحبات يوسف ! وأصر على دعوة أبى بكر ليصلى بالناس .

أفكان ذلك استخلافاً من الرسول لصاحبه فى الغار ؟ وهل فهم المسلمون منه ذلك فهماً صريحا ؟

نستبعد نحن هذين الفرضين . فلو شاء محمد أن يستخلف ، ولو كان هذا الاستخلاف من فرائض هـذا الدين ، لجهر بالاستخلاف كما جهر بكل فريضة أخرى من فرائض دينه. ولو أنْ فهم المسلمون منه فهماً صريحاً أنه يستخلف أبا بكر ماثار الجدل فى السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، فما كان الأنصار ليجادلوا فى أمر رسول الله .

كان الأمر إذن للشورى بين المسلمين ، وللإقناع وللاقتناع بمن هو أحق الناس بالخلافة . ولئن كان الجدل يوم السقيفة قد انتهى إلى أن تكون الخلافة فى المهاجرين ، فما كان ذلك فرصاً إسلامياً ؛ ولكنه تواضع واتفاق بين جماعة المسلمين ، كان الأنصار يملكون رده ولا تثريب عليهم ، لولا أنهم ارتضوه لأنه أصلح خليفة ، ولعوامل محلية واقعة بين الأوس والخزرج ، وكراهة أحد الفريقين أن تكون الخلافة للآخر ، وإيثارهم معاً أن تكون للمهاجرين .

وإذا كان التراضى قد تم يومذاك أن تكون الخلافة فى المهاجرين ، فما كان هناك ما يلزم أن تكون فى قريش خاصة ؛ ولو كان الأمر كذلك ما قال عمر بن الخطاب وهو يعين أهل الشورى بعده : « ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته » فسالم ليس قرشياً عن يقين ! وروح الإسلام ومبادئه تأبى أن تجعل لقريش درجة فوق درجة المسلمين ، لمجرد أنها قريش ، أو أن فيها نسب الرسول . والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[(١)].

ولقد استخلف أبو بكر عمر ، ولكن هذا لم يكن إلزاماً منه للمسلمين ؛ فلقد كانوا فى حلّ من رفض هذا الاستخلاف . وعمر لم يصبح خليفة بحكم استخلاف أبى بكر له ، بل بمبايعة الناس إياه . وكذلك عين عمر بعده ستة للشورى على أن يختاروا منهم واحداً . وما كان المسلمون بملزمين أن يختاروا واحداً من الستة ، وإنما هم التزموا ، لأن الواقع كان يشهد بأن الستة هم الأفضل،وأن تعيين عمر لهم يتفق مع هذا الواقع . . من هنا جاءالالتزام.

فأما البيعة لعلىّ ؛ فقد ارتضاها قوم ، وأباها آخرون ، فكانت الحرب للمرة الأولى بين المسلمين . وأعقبتها الكوارث التى حاقت بروح الإسلام ومبادئه فى الحكم والمال ، وفى غير الحكم والمال .

هذا الاستعراض السريع يكشف لنا عن نظرية الإسلام الأصيلة فى الحكم . وهى أن اختيار المسلمين المطلق هو المؤهل الوحيد للحكم . وهذا ما فهمه المسلمون وهم يؤخّرون علياً ابن عم رسول الله وصهره ، وأقرب الناس نسباً إليه . ولقد يكون علىّ قد غبن فى تأخيره — وبخاصة بعد عمر — ولقد تكون أسوأ مصادفة فى تاريخ الإسلام — حسبما نعتقد نحن — هى تأخيره بعد عمر . ولكن هذا التأخير كان له فضله فى التقرير العملى لنظرية الإسلام فى الحكم ، حتى لا تقوم عليها شبهة من حق الوراثة ، الذى هو أبعد شىء عن روح الإسلام ومبادئه . وأياً كان الغبن الذى أصاب شخص الإمام ، فإن تقرير هذه النظرية كان أكبر منه على كل حال !

---

(١) مسلم وأبو داود والترمذى

فلما جاء الأمويون ، وصارت الخلافة الإسلامية مُلكاً عضوضاً فى بنى أمية ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية الذى أطفأ إشراقة الروح الإسلامى.

ويكفى أن نثبت هنا صورة من البيعة ليزيد ، لنعلم على أى أساس قامت :

دعا معاوية الوفود ليتكلموا فى اجتماع عقده لأخذ البيعة ليزيد ، فتقدم يزيد ابن المقفع ، فقال :

أمير المؤمنين هذا ، وأشار إلى معاوية .

ثم قال : فإن هلك فهذا ، وأشار إلى يزيد .

ثم قال : فمن أبى فهذا . وأشار إلى السيف .

قال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء ! ! !

وكان معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد فى الشام قد كلف سعيد بن العاص أن يحتال لإقناع أهل الحجاز ، فعجز ، فسار معاوية إلى مكة ومعه الجند والمال . ودعا وجهاء المسلمين فقال لهم :

« قد علمتم سيرتى فيكم ، وصلتى لأرحامكم ، يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » فأجابه عبد الله بن الزبير مخيراً بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحداً أو كما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . فاستشاط معاوية غضباً وهو يقول : « هل عندك غير هذا ؟ » قال : لا . والتفت معاوية إلى الآخرين يسألهم : وأنتم ؟ قالوا : على ما قال ابن الزبير . فقال يتوعدهم : « أعذر من أنذر . إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح . وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ؛ فلا يبقين رجل إلا على نفسه »!

فأما الذى كان بعد ذلك ، فهو أن يقيم صاحب حرس معاوية رجلين على رأس كل وجيه من وجهاء الحجاز المعارضين ، وقد قال له معاوية : « إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما » .

ثم رقى المنبر فقال : « هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم . وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوه على اسم الله[1] »

فبايع الناس ! ! !

على هذا الأساس الذى لا يعترف به الإسلام البتة قام ملك يزيد . فمن هو يزيد ؟

هو الذى يقول فيه عبد الله بن حنظلة : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة . والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً » .

فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد ، فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد ، من قتل للحسين ــ رضى الله عنه ــ على ذلك النحو الشنيع ، إلى حصار البيت ورميه . . . إلخ تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا فيما قالوه !

وأيا ما كان الأمر فإن أحدا لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة والتابعون . إنما كانت مسألة وراثة الملك فى البيت الأموى . وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة فى قلب الإسلام ، ونظام الإسلام ، واتجاه الإسلام .

وفى سبيل تبرئة الإسلام : روحه ومبادئه ، من ذلك النظام الوراثى الذى ابتدع ابتداعا فى الإسلام قرر هذه الحقائق لتكون واضحة فى تصور الحكم الإسلامى على حقيقته .

ومما ضاعف الكارثة أن هذا الانحراف باكر الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سنته الرفيعة : فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار ، وتكوين التقاليد العميقة والأوضاع النظامية التى يصعب فيما بعد الخروج عليها . وهو سوء حظ لا شك فيه .

(١) ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٦ هـ.

ولـكنه فى الواقع ليس المصادفة السيئة الأولى . فلقد كانت أسوأ مصادفة هى تأخير على ، وتقديم عثمان وهو شيخ ضعيف ، وتسلم مروان بن الحـكم الأموى مقاليد السلطان ! فلو شاء حسن الطالع أن يتقدم علىّ بعد الشيخين لاستمرت تقاليد الإسلام فترة أخرى، ولاستطردت موجته عهداً ثالثاً ، ولـكان غير ما كان من طمس روح الإسلام ، فإن استقرار التقاليد الإسلامية فترة أخرى ، وقيام أوضاع نظامية محددة ، من شأنه أن يجعل النـكسة أصعب على من يحاولها .

* * *

ولـكى ندرك عمق هذه الحقيقة ، يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحـكم فى العهود المختلفة على أيدى أبى بكر وعمر . وعلى أيدى عثمان ومروان . وعلى يدى على الإمام. ثم على أيدى الملوك من أمية . ومَن بعدهم من بنى العَباس . بعد أن خنقت روح الإسلام .

حينما ندب المسلمون أبا بكر ليكون خليفة رسول الله ، لم تزد وظيفته فى نظره على أن يكون قائماً بتنفيذ دين الله وشريعته بين المسلمين ! فلم يخطر له أن هـذه الوظيفة تبيح له شيئاً لم يكن مباحاً له وهو فرد من الرعية ، أو تمنحه حقاً جديداً لم يكن له ، أو تسقط عنه تـكليفاً واحداً مما كان يكلفه ، سواء لنفسه أو لعشيرته أو لإلٰهه !

وقف عقب انتهاء البيعة له بالسقيفة فقال : « أما بعد ـ أيها الناس ـ فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة والـكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ؛ ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وكان [illegible] أبو بكر [illegible] من [illegible] رجلا [illegible] متواضعاً . فلما

ولى الخلافة لم يغيره ولم يغيرفيه . وكان يمشى على قدميه من منزله بالسنح إلى المدينة غدواً ورواحاً ؛ وربما ركب فرساً له لا من أفراس ببت المال؛ حتى إذا زادت أعباء عمله انتقل إلى المدينة .

وكان يعيش من رزقه فى التجارة ، فلما أصبح أراد أن يغدو على تجارته . فأمسكه المسلمون ، وقالوا : إن هذا الأمر لايصلح مع التجارة . فسأل ـ كأنما لايعلم طريقاً آخر للقوت ـ وبم أعيش ؟ فتروروا فى الأمر ؛ ثم جعلوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله ، جزاء قعوده عن التجارة ، واحتباسه للوظيفة .

ومع هذا فقد أوصى عند ماحضرته الوفاة أن يحصى ماأخذه من بيت المال ، فيرد من ماله وأرضه ، تورعاً وتعففاً عن مال المسلمين . وكان يعد نفسه مسؤولا عن حاجة كل فرد فى الرعية ، مدفوعاً إلى هذا باليقظة الدائمة التى بفرضها الإسلام على ضمير الحاكم والمحكوم، والحساسية المرهفة التى يثيرها فى ضمير الجميع . وقد وصل فى هذا إلى حد أنه قد كان يحلب للضعفاء ممن حوله بالسنح أغنامهم ؛ فلما ولى الخلافة سمع جارية تقول : اليوم لاتحلب لنا منائح دارنا ! فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم . . فكان يحلبها ، وربما سأل صاحبتها : ياجارية ! أتحبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح . فأى ذلك قالته فعل .

وكان عمر بن الخطاب ـ فى خلافة أبى بكر ـ يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم أمرها : فكان إذا جاءها ألفاها قدقضيت حاجاتها ؛ فترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو لذى كفيها مؤونتها ، لاتشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها . عندئذ صاح عمر حين رآه : « أنت هو لعمرى ! » .

هذه لمحة من تصور أبى بكر للحكم . فلما أن خلفه عمر لم يختلف هذا التصور ، ولم يفهم عمر أن منصبه الجديد يرتب له حقوقاً جديدة من أى نوع ـ غير أن يزيد فى تبعاته فى القيام بتنفيذ شرع الله .

خطب عقب البيعة له فقال : « أيها الناس : ماأنا إلا رجل منكم ، ولولا أنني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ماتقلدت أمركم» .

وخطب خطبته الثانية فقال فيها : ولـكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لـكم فخذوني بها : لـكم علىّ ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولاما أفاء الله عليكم إلامن وجهه ؛ ولـكم علىّ إذا وقع فى يدى ألايخرج منها إلا فى حقه ؛ ولـكم علىّ ألاألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال » .

وكان يقول: «إنى أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت عنه ؛ وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

سئل يوماً عمّا يحلّ له من مال الله فقال : «أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان : حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وماأحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولابأفقرهم ، ثم أنارجل من المسلمين يصيبنى ماأصابهم » .

وكذلك عاش ، ولـكنه كثيراً ما كان يتحرّج حتى مما أحلّ لنفسه . . اشتكى يوماً فوصف له العسل وفى بيت المال عكة منه ، فلما كان على المنبر قال : «إن أذنتم لى فيها ، وإلافإنها علىّ حرام» ، فأذنوا له .

ورأى المسلمون ماهو عليه من الشدة ، فذهب بعضهم إلى ابنته حفصة أم المؤمنين فقالوا لها : «أبَى عمر إلاشدة على نفسه وحصرا ، وقد بسط الله فى الرزق ، فليبسط فى هذا الفئ فيما شاء منه ، وهو فى حل من جماعة المسلمين» . فلما كلمته حفصة فى ذلك كان جوابه : « ياحفصة بنت عمر . نصحت قومك وغششت أباك ، إنما حق أهلى فى نفسى ومالى ، فأما فى دينى وأمانتى فلا !» .

وكان يشعر شعوراً عميقاً بوجوب المساواة بينه وبين أفراد رعيته ؛ فلما جاع الناس فى عام الرمادة آلى على نفسه : لايذوق سمناً ولالحماً حتى يحيا الناس . وظل كذلك حتى [illegible] أكل الزيت ، ثم جاءت السوق عكة من سمن

ووطب من لبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهما ، وذهب إليه ينبئه أن الله أحله من يمينه ، وأن قد قدمت السوق عكة من سمن ووطب من لبن وقد اشتراهما له ، فلما علم الثمن قال له : « أغليت فتصدق بهما ، فإنى أكره أن آكل إسرافاً » وأطرق هنيهة ثم قال : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟ » .

لقد كان يرى أن يحرم نفسه حرمان رعيته ، ليحس بما يمسها كما قال ؛ ولأنه فى أعماق نفسه ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقا وامتيازات ليست لسائر الناس ؛ وأنه إن لا يعدل فى هذا فما هو بمستحق طاعة الرعية ؛ وقصة البرود اليمانية ، وإقراره بسقوط طاعته حتى يتبت عدله قد سبق أن ذكرناها ؛ وهى تقرر مبدأ من مبادىء الحكم فى الإسلام : أن لا طاعة لإمام غير عادل .

ولقد كان هذا الشعور الإسلامى عميقاً فى نفسه ، مصاحباً له فى كل ملابسة . فقد ساوم رجلاً على فرس ، ثم ركبه ليجربه فعطب ، فأراد أن يرده إلى صاحبه فأبى ، فتحا كما إلى شريح القاضى ، فسمع حجة كل منهما ، ثم قال : « ياأمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد كما أخذت » . فقال عمر : « وهل القضاء إلا هكذا ؟ » . ثم أقام شريحاً على قضاء الكوفة جزاء ماقضى بالحق والعدل .

***

فإذا فهم عمر الحكم على أساس هذا التصور ، فلا مجال لأن يكون لقرابة الحاكم امتيازات ما على سائر أفراد الرعية . فإذا تناول ابنه عبد الرحمن الخمر فلا بد من الحد ، وقصته فى ذلك معروفة ؛ وإذا عدا ابن عمرو بن العاص على المصرى فلا بد من القصاص . فأما فى المال فعماله مسئولون عن كل ما زاد فى أموالهم بعد الولاية ، خشية أن يكون نموها على حساب مال المسلمين ، أو بسبب من جاه الولاية . و « من أين لك هذا » كان قانونه الذى عامل به عماله واحداً واحداً كلما وجد مبرراً لأن يعاملهم به ، فقد قاسم عمرو بن العاص واليه فى مصر ، وسعد بن أبى وقاص واليه فى الكوفة ، كما ضم مال أبى هريرة واليه فى البحرين

ولقد كان قوام تصور الحكم فى نفس عمر باختصار : هو الطاعة والنصح فى حدود الدين من الرعية ، والعدل والحسنى كذلك من الراعى . ولقد قبل من رجل من رعيته أن يقول له : « لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فأقر بذلك مبدأحق الرعية فى تقويم الراعى . كما خطب الناس يوماً فقال : « إنى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ؛ ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم . فمن ظلمه عامل بمظلمة ، فلا إذن له علىّ ، ليرفعها إلىّ حتى أقصه منه » فأقر بذلك حدود الحاكم على الناس لا يتعداها .

ولشعوره العميق بتبعات الحاكم لم يشأ أن يحملها اثنان من أسرة الخطاب ، فمنع أن يكون ابنه عبد الله مرشحاً لها . وإن جعله من أهل الشورى . وقال قولته المشهورة التى تنطق بحقيقة تصوره للخلافة : « لا أرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد » .

* * *

هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئاً ما بدون شك على عهد عثمان . ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير ، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام ؛ وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان ، وكيد أمية من ورائه .

فهم عثمان — يرحمه الله — أن كونه إماما يمنحه حرية التصرف فى مال المسلمين بالهبة والعطية ؛ فكان رده فى كثير من الأحيان على منتقديه فى هذه السياسة : « وإلا ففيم كنت إماما ؟ » كما يمنحه حريته أن يحمل بنى معيط وبنى أمية — من قرابته — على رقاب الناس ، وفيهم الحكم طريد رسول الله ، لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم .

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مئتى ألف درهم . فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين ، وقد بدا فى

وجهه الحزن وترقرقت فى عينه الدموع ، فسأله أن يعفيه من عمله ؛ ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين ، قال مستغرباً : « أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى ؟ » فرد الرجل الذى يستشعر روح الإسلام المرهف : « لا ياأمير المؤمنين . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . والله لوأعطيته مئة درهم لكان كثيرا ! » فغضب عثمان على الرجل الذى لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له : «ألق بالمفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك » !

والأمثلة كثيرة فى سيرة عثمان على هذه التوسعات؛ فقد منح الزبير ذات يوم ستمئة ألف ، ومنح طلحة مئتى ألف ، ونفل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية . ولقد عاتبه فى ذلك ناس من الصحابة على رأسهم على بن أبى طالب ، فأجاب: «إن لى قرابة ورحماً » فأنكروا عليه وسألوه : « فما كان لأبى بكر وعمر قرابة ورحم ؟ » فقال : «إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى» فقاموا عنه غاضبين يقولون : «فهديهما والله أحب إلينا من هديك » . .

نعم ! وأحب إلى الإسلام . وأقرب إلى حقيقة الإسلام .

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان . وفيهم معاوية الذى وسع عليه عثمان فى الملك فضم إليه فلسطين وحمص ؛ وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك فى خلافة علىّ وقد جمع المال والأجناد . وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله . وفيهم عبدالله بن سعد بن أبى السرح أخوه من الرّضاعة . . . الخ .

وقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام ، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام وإنقاذ الخليفة من المحنة ؛ والخليفة فى كبره وهرمه لا يملك أمره من مروان . وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام فى نفس عثمان ؛ ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ ، الذى هو خطأ المصادفة السيئة فى ولايته

الخلافة وهو شيخ موهون، تحيط به حاشية سوء من أمية .

ولقد اجتمع النـاس ، فكلفوا علىّ بن أبى طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه ، فدخل إليـه فقال : «النـاس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ماأدرى ماأقول لك ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعـلم مانعلم ؛ ماسبقناك إلى شئ فنخبرك عنه ؛ ولاخـلونا بشئ فنبلغـكه ؛ وماخصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسـول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره . ومااين أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ؛ ولاابن الخطاب بأولى بشئ من الخير منك ؛ وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم رحماً ؛ ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم ينالا ؛ ولاسبقاك إلى شئ . فالله الله فى نفسك ؛ فإنك والله ماتُبَصَّرُ من عمى ؛ ولاتُعَلَّمُ من جهل ؛ وإن الطريق لواضح بيّن ؛ وإن أعلام الدّين لقائمة . تعـلم ياعثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهَدى ؛ فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ؛ فوالله إن كلاً لبيّن ؛ وإن السنن لقائمة لها أعلام ؛ وإن شرَّ الناس عـند الله إمام جائر ضَل وضُل به ؛ فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولاعاذر ، فيلقى فى جهنم [1] » .

فقال عثمان : «قد والله علمت ليقولُن الذى قلت . أما والله لوكنت مكانى ماعنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ؛ وما جئت منكراً أن وصلت رحمـاً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعـاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله ياعلى . هل تعـلم أن المغيرة بن شعبة ليسَ هناك ؟ قال : نعم ، قال : أتعـلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال على : سـأخبرك . إن عمر كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل . ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان : وأقرباؤك

(١) ذكره الطبرى فى [illegible] سنة أربع وثلاثين هجرية .

أيضاً ! قال عليّ : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولـكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته ، فقال عليّ : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوفَ من عمر ، من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لا تعلمها ، فيقول للناس : هـــذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية ! »

وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان ، واختلط فيها الحق بالباطل ، والخير بالشر . ولـكن لا بد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام ، و يستشعر الأمور بروح الإسلام ، أن يقرّر أن تلك الثورة فى عمومها كانت أقرب إلى روح الإســلام واتجاهه ، من موقف عثمان ، أو بالأدق من موقف مروان ، ومن ورائه بنو أمية .

واعتذارنا لعثمان رحمه الله : أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة ، فـكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين ، واهن القوة ضعيف الشيخوخة ، فـكان موقفه كما وصفه صاحبه على بن أبى طالب : « إنى إن قعدت فى بيتى قال : تركتنى وقرابتى وحقى ؛ و إن تكلمت فجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ألا إنه لسوء الحظ ؛ فلقد كان من جراء مباكرة الدين الناشىء بالتمـكين منه للعصبة الأموية على يدى الخليفة الثالث فى كبرته ، أن تقاليده العملية لم تتأصل فى البيئة العربية على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول . ولو تقدم الزمن بعثمان لـكان الخير ، حيث لم تضعف قوته بعد . ولو تأخر به فوليها عليّ بعد الشيخين قبل أن تنمو البذرة الأموية ، و يستفحل أمرها فى الشام وفى غير الشــام ، وقبل أن تتضخم الثروات نتيجة لسيـاسة عثمان (كما سيجىء) وقبل أن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية وارتباطها بروح الدين . . لو كان هذا لتغير وجه التاريخ الإسلامى ، ولسار فى طريق غير الذى سار فيه .

وليس فى هذا القول مبالغة ولا تضخيم لدور الفرد فى الأحداث العامة . فمن الواضح أن

اتجاه الخليفة الثالث فى توزيع الأموال ، واتجاه مستشاره مروان ، وتوليته معظم المناصب لبنى أمية . . هذا كله أنشأ أوضاعا وأحوالا عامة كان لها أثرها فى خط سير التاريخ . فلم تعد دور فرد إنما انتهت إلى أن تكون أوضاعا لها ثقل ولها دفع . وهذا هو المعنى الذى قصدت إلى تقريره فى هذا المجال .

* * *

مضى عثمان إلى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها فى الأرض ، وبخاصة فى الشام ، وبفضل ما مكن للمبادىء الأموية المجافية لروح الإسلام ، من إقامة الملك الوراثى والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ، وعدم المبالاة بروح التآخى والإيثار والتكافل ، مما أحدث خلخلة فى الروح الدينية ذاتها لدى الأمة الإسلامية . وليس بقليل ما يشيع فى نفس الرعية — إن حقاً وإن باطلا — أن الخليفة يؤثر أهله ، ويمنحهم مئات الألوف ؛ ويعزل أصحاب رسول الله ليولى أعداء رسول الله ؛ ويبعد مثل أبى ذر لأنه أنكر كنز الأموال ، وأنكر الترف الذى يخب فيه الأثرياء ، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول من الإنفاق والبر والتعفف . . فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار ، إن حقاً وإن باطلاً ، أن تثور نفوس ، وأن تنحل نفوس . تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكارا وتأثما ؛ وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء ، ولم تخالط بشاشته قلوبهم ، والذين تجرفهم مطامع الدنيا ، ويرون الانحدار مع التيار . وهذا كله قد كان فى أواخر عهد عثمان .

فلما أن جاء على لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه فى هوادة . وقد علم المستنفعون على عهد عثمان ، وبخاصة من أمية ، أن عليا لن يسكت عليهم ، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية . ولو قد جاء علىّ عقب عمر ما كان لهم إلى هذا الانحياز من سبيل ، فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة الخلافة ، ولا لقوة الروح الدينية فى النفوس ؛ وما كان معاوية ليخاطر بالخروج على الخليفة كما خرج ، فإن ثلاثة عشر عاماً من

حكم عثمان هى التى جعلت من معاوية معاوية ، إذ جمعت له قوة المال وقوة الجند وقوة الدولة فى الأقطار الأربعة بالشام .

إنها المحنة الحقة أن عليا لم يكن ثالث الخلفاء !

جاء على ليرد التصور الإسلامى للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس . جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : « لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم » . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام ، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التى يسكنها الفقراء . جاء ليعيش كما روى عنه النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علىّ عليه السلام ، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتنى حموضته ، وكسر يابسة . فقلت : « ياأمير المؤمنين ! أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى : ياأبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » . أو كما روى عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علىّ بالخورنق ، وهو فصل شتاء ، وعليه خلق قطيفة ، وهو يرعد فيه . فقلت : ياأمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً ، وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ماأرزؤكم شيئاً ، وماهى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة » .

وما يصنع علىّ هذا بنفسه وأهله ، وهو يجهل أن الدين يبيح له فوق ما يصنع ، وأنه لا يحتم التزهد والحرمان والشظف ، وأن حظه من بيت المال فى ذلك الحين — كفرد من المسلمين — يبلغ أضعاف ما يأخذ ، وأن راتبه كحاكم يؤدى خدمة عامة أكبر من هذا لو شاء أن يأخذ مثلما حصصه عمر لبعض ولاته على الأقاليم ، إذ قدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يزاد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على نظرائه ، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق ؛ كما قدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه الناس بالكوفة وقيامه على بيت

المال فيها ، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهما وربع شاة فى اليوم مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم . . .

ما يصنع علىّ بنفسه ما صنع وهو يجهل هذا كله . إنما كان يعلم أن الحاكم مظنة وقدوة . مظنة التبجبح بالمال العام إذ كان تحت سلطانه ؛ وقدوة الولاة والرعية فى التحرج والتعفف . فأخذ نفسه بعزائم أبى بكر وعمر ، ولم يأخذها برخص عثمان ابن عفان . ذلك أن الدين الناشىء والنظام الحدث كانا فى حاجة إلى العزائم التى تتطوع بها النفوس ، ولم يكونا فى حاجة إلى الرخص التى يبيحها الدين . فالأفق الأعلى كان هو الأحرى بخلفاء رسول الله على دين الله ؛ والرخص ليست فى حاجة لمن يشرعها للناس ، فهم مدفوعون إليها دفعا ؛ أما العزائم فهى التى تحتاج للقدوة والمثال ، لما تكلفه أصحابها من جهد ومغالبة ونضال .

وسار علىّ فى طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها النبى والخليفتان بعده . . . « وجد درعه عند رجل نصرانى ، فأقبل به إلى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ، ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! فالتفت شريح إلى علىّ يسأله : ياأمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك علىّ وقال : أصاب شريح . مالى بينة ! فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى . و « أمير المؤمنين » ينظر إليه . . إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . الدرع والله درعك ياأمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق . فقال علىّ : أما إذ أسلمت فهى لك [1] » .

---

(١) عبقرية الإمام للأستاذ العقاد .

ولقد كان منهاجه الذى شرعه هو ماقاله فى خطبته عقب البيعة له :

« أيها الناس . إنما أنارجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ماعليكم ، و إنى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ماأمرت به . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود فى بيت المال . فإن الحق لايبطله شىء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق فى البلدان لرددته . فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق .

« أيها الناس . . ألا لايقولن رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : «حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا» . ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألاوأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولافضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

ولقد كان من الطبيعى ألا يرضى المستنفعون عن على ، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل ، ومن مردوا على الاستئثار . فانحاز هؤلاء فى النهاية إلى المعسكر الآخر : معسكر أمية ، حيث يجدون فيه تمليقاً لأطماعهم ، وتواطؤا على عناصر العدل والحق والضمير ، فى السيرة وفى الحكم سواء .

والذين يرون فى معاوية دهاء وبراعة لايرونهما فى على ؛ ويعزون إليهما غلبة معاوية فى النهاية ، إنمايخطئون تقدير الظروف ، كما يخطئون فهم على وواجبه . لقد كان واجب على الأول والأخير ، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها ؛ وأن يرد إلى الدين روحه ؛ وأن

يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدى أمية فى كبرة عثمان ووهنه . ولو جارى معاوية فى إقصاء العنصر الأخلاقى من حسابه لسقطت مهمته ؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة فى حياة هذا الدين . فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية ؟ ! إن علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه ، بل فلتذهب حياته معها . وهذا هو الفهم الصحيح الذى لم يغب عنه — كرم الله وجهه — وهو يقول : «والله مامعاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس» .

***

ومضى على إلى رحمة ربه ، وجاء بنو أمية .

فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزاً أمام أمية . . لقد انهار هذا الحاجز . . وكانت الكارثة التى قصمت ظهر الإسلام .

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد ، ولكن روحه انحسرت بلا جدال . وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح ؟ ولولا قوة كامنة فى طبيعة هذا الدين ، وفيض عارم فى طاقته الروحية ، لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير . ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب ، ومازال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار .

غير أنه منذ أمية استباحت حدود بيت مال المسلمين ، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملقين ؛ وانهارت قواعد العدل الإسلامى ، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع ، ولحاشيتها رسوم ؛ وانقلبت الخلافة ملكا ، وملكا عضوضاً ، كما قال عنه الرسول فى وثبة من وثبات الاستشفاف الروحى العميق .

وعدنا نسمع عن الهبات للمنافقين والملهين والمطربين ، فيهب أحد ملوك أمية اثنى عشر ألف دينار لمعبد ، ويهب هارون الرشيد — من ملوك العباسيين — اسماعيل بن جامع المغنى فى صوت واحد أربعة آلاف دينار ، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش . . . وتنطلق الموجة فى طريقها لاتقف إلا فترة بين الحين والحين .

ولا بد أن نذكر هنا عهد عمر بن عبد العزيز ، فقد كان بقية من عهد الخلافة ، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق . لقد بدأ عهده برد الحكم المغصوب إلى صاحب الحق الأول فيه : إلى الأمة الإسلامية ، التي يجب أن تختار إمامها حرة طائعة مختارة ، لا بقوة الجند ، ولا بسلطان الوراثة . . صعد المنبر فقال :

« أيها الناس . إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم » فصاح الناس : قد اخترناك ياأمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل الأمر باليمن والبركة .

وبذلك رد الأمر إلى نصابه فى ولاية الأمر ، فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول .

عندئذ خطب الناس فقال : « أيها الناس . إنه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم . ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ماأطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . . » .

وحينما باشر سلطته بدأ برد المظالم ، مبتدئاً بنفسه . فقال . « إنه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى . فنظر إلى مافى يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه ، مما جاء من أرض المغرب فرده . وخرج مما كان فى يده من القطائع ، وكان فى يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورس باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ؛ ورده إلى المسلمين . إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه . فكانت تأتيه غلتها كل سنة . مئة وخمسون دينارا أو أقل أو أكثر .

« ولما أرمع أن يرد مالديه أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ؛ وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ؛ وإن ذلك قد صار إلىّ ،

ليس علىّ فيه دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتى . اقرأ يامزاحم — وقد جيء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب — فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر ، وبيده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه شىء إلا شقه .

« ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت واحد ، قالت : لا ، بل أختارك ياأمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى . فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين . فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ، قالت : فإنى لا أشاؤه ، طبت عنه نفسا فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً . فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده .

« ولم يكتف عمر برد ما كان فى يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئاً ، ولا يجرى على نفسه من الفىء درهما ؛ وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه فى ذلك درهمين فى كل يوم ، فقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .

« كذلك حمل بنى مروان على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق، وردها إلى ذويها . روى أنه جاءه رجل ذمى من أهل حمص فقال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى — والعباس جالس — فقال له : ياعباس ما تقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، كتب لى بها سجلا ، فقال : ماتقول ياذمى ؟ قال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك . ياعباس اردد عليه ضيعته . فردها عليه .

« وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ فى البادية فكأنه

أعرابى ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصمون روحا فى حوانيت بحمص ـ وكانت لهم ، أقطعه إياها أبوه الوليد ـ فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : إنها لى بسجل الوليد ، قال : ما يغنى عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم . فقام روح والحمصى منصرفين فتوعد روح الحمصى ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد ـ وهو على حرسه ـ اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتنى برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً فقال له : قم فخل له حوانيته ، قال : نعم نعم ! فخلى له حوانبته .

« وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً . وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفى باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس . وقد ذكروا أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليها من الشام .

«وكان سليمان بن عبدالملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص ـ من البيت الأموى ـ بعشرين ألف دينار فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ، وكان عنبسة صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بنى أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه . فدخل عنبسة عليه فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان ؛ فقال له

عمر : كم ذلك ؟ قال عشرون ألف دينار . قال عمر : عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله مالى إلى ذلك من سبيل . قال عنبسة : فرميت بالكتاب الذى فيه الصك ، فقال لى عمر : لاعليك أن يكون معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى فيأمر لك به ! فأخذته وخرجت إلى بنى أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك ، فقالوا لبس بعد هـذا شىء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ؛ فرجعت إليه فقلت : يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان من قبلك يجرى عليهم . فقال عمر : والله ما هذا المال لى ومالى إلى ذلك من سبيل . قلت : يا أمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون فى البلدان . قال : ما شاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم . قلت : وأنا أيضا ؟ قال : وأنت أيضا قد أذنت لك ؛ ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها ما يكون لك فى ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتى ألف دينار ، وحبست الصك ؛ فلما توفى عمر وولى يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لى ما كان فيه .

« وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم ، فأدّوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ماتكرهون . فلم يجبه أحد منهم . فقال: أجيبونى . فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزال رؤوسنا أجسادنا . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلًا ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأردّنّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله » [١] .

---

(١) من كتاب « عمر بن عبد العزيز » للأستاذ أحمد زكى صفوت

ولـكنه لم يعش ليرد لـكل ذى حق حقه كما كان يريد ؛ فجاء من بعده يسيرون على نهج أُمَيَّة ، ولايسيرون على نهج الإسلام . فلما أن جاء بنو العباس جاءوا ملوكا وقد فسدت الأرض ، وبَعُدَ الناس عن تقاليد الدين ، بما باعدت أمية بينهم و بينه ذلك الأمد الطويل . وما كان ملوك بنى العباس خيراً من ملوك بنى أمية ، فإنه لـكذلك الملك العضوض !

* * *

و إذ كنا لانؤرخ هنا للدولة الإسلامية ، ولـكن للروح الإسلامى فى الحـكم ، فإننا نـكتفى فى إبراز مظاهر التحول والانحسار فى هـذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك . و بموازنتها بالخطب الثلاث التى سبقت فى عهد الخلفاء يتبين الفارق العميق .

خطب معاوية فى أهل الـكوفة بعد الصلح فقال :

« ياأهل الـكوفة ! أترانى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنـكم تصلون ، وتزكون ، وتحجون ؟ ولـكننى قاتلتكم لأتأمَّر عليـكم وعلى رقابكم ؛ وقد آتانى الله ذلك ، وأنتم كارهون . ألا إن كل مال أودم أصيب فى هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته ، فتحت قدمى هاتين» .

هكذا « كل شرط شرطته فتحت قدمىّ هاتين» والله يقول : «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا» ؛ والله يقول: «و إن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق» . فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين ، على نصرة المسلمين لإخوانهم فى الدين .

وخطب كذلك فى أهل المدينة فقال :

«أما بعد ، فإنى والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ، ولامسرة بولايتى . ولـكنى جالدتكم

بسيفى هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ؛ وأردتها على سنيات عثمان ، فأبت علىّ ؛ فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة ؛ مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم ، فإنى خير لكم ولاية . . . »

وخطب المنصور العباسى — وقد فعلت الموجة الأموية فعلها فى تصور الحكم حتى انتهت به أيام العباسيين إلى نظرية الحق الإلهى المقدس — فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ؛ وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلنى عليه أقفلنى » !

وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائياً من دائرة الإسلام ، وتعاليم الإسلام .

***

فأما سياسة المال فكانت تبعاً لسياسة الحكم ، وفرعاً عن تصور الحكام لطبيعة الحكم وطريقته ، ولحق الراعى والرعية . فأما فى حياة محمد وصاحبيه وفى خلافة على ابن أبى طالب ، فكانت النظرية السائدة هى النظرية الإسلامية : وهى أن المال مال الجماعة ؛ ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئاً إلا بحقه ؛ ولا أن يعطى أحداً منه إلا بقدر ما يستحق ، شأنه شأن الآخرين . وأما حين انحرف هذا التصور قليلا فى عهد عثمان ، فقد بقيت للناس حقوقهم ؛ وفهم الخليفة أنه فى حل — وقد اتسع المال عن المقررات للناس — أن يطلق فيه يده يبر أهله ومن يرى من غيرهم حسب رأيه . وأما حين صار الحكم إلى الملك العضوض ، فقد انهارت الحدود والقيود ، وأصبح الحاكم مطلق اليد فى المنع والمنح ، بالحق فى أحيان قليلة وبالباطل فى سائر الأحيان . واتسع مال المسلمين لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم إلى غير حد ، وخرج الحكام بذلك نهائياً من كل حدود الإسلام فى المال .

هذه صورة مجملة نعرض لها نماذج تفصلها من وقائع التاريخ .

كانت موارد بيت المال منذ أيام الرسول هى :

الزكاة المفروضة على المسلمين فى أموالهم بحسب فئاتها المعروفة فى الذهب والفضة والزرع والثمار، وفى الماشية ، وفى عروض التجارة، وفى الركاز . . والمتوسط العام فيها هو نصف العشر، وتنفق فى مصارفها الثمانية المعروفة .

والجزية على الرؤوس للصالحين عليها من الذميين . وهى مقابل ضريبة الدم وضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون .

والفىء ، وهو ما يصل إلى المسلمين من المشركين عفواً بغير قتال ، وكله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بنص القرآن .

والغنيمة ، وهى ما يصل إلى المسلمين من المشركين بالحرب. وأربعة أخماسها للمحاربين، وخمسها كالفىء فى مصرفه .

أو الخراج ـ بدل الغنيمة ـ وهو مال مقرر على الأراضى التى كانت فى يد المشركين واستولى عليها المسلمون حرباً ، أو صولح عليها المشركون و بقيت فى أيديهم ، كالنظام الذى اتبعه عمر بن الخطاب فى أرض فارس .

وفى أيام الرسول لم تكن موارد بيت المال وفيرة، لأن المهاجرين قد تركوا ديارهم وأموالهم ، فوسعهم الأنصار وساركوهم وآخوهم . وكان عدد المسلمين بعد محدوداً؛ وقبل الغزو لم يكن لبيت المال إلا مورد الزكاه وهو مورد فى ذاته ضئيل ، و بقلة العدد يزداد ضآلة . وهذا المورد كان يصرف للثمانية الطوائف المبينة فى آية « إنما الصدقات . . . » .

فلما بدأت الغزوات ، زاد مورد آخر هو مورد الغنيمة ، الذى يحصل المحاربون على أربعة أخماسه . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى الراجل سهماً والفارس سهمين ـ وقيل ثلاثة ـ مقرراً مبدأ : « كل وعمله » كما كان يعطى الأعزب سهماً والمتزوج

سهمين مقرراً بذلك مبدأ « كل وحاجته » . وأما الخمس فكان يوزع حسب مصارفه التى ذكرنا .

ثم حدث أن وقع أول فىء فى غزوة بنى النضير ، فجعله الرسول للمهاجرين خاصة ، لم يعط إلا رجلين من الأنصار فقيرين ؛ وجاء القرآن بعد ذلك فقرر المبدأ الإسلامى العام : « كى لا يكن دُولةً بين الأغنياء منكم » .

ثم أخذت موارد المسلمين تتسع باتساع رقعة الإسلام وتوالى الفتوح ، فأخذ الرخاء يشمل شيئاً فشيئاً جموع المسلمين على السواء . إذ كانوا جميعاً شركاء فى موارد بيت المال ، بالأنصبة التى حددها الإسلام .

وحين لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وارتد من ارتد ومنعوا الزكاة ، وقف أبو بكر وقفته المشهورة وقال قولته الخالدة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » مخالفاً فى ذلك رأى عمر بن الخطاب الذى كان يميل إلى التساهل والتريث ، لأن الإسلام وليد . ولأن أعداءه يتربصون به على أطراف الجزيرة ، ولأن المرتدين قوة ؛ وقد بلغ من معارضته أن يقول فى شىء من الحدة : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : فمن قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » . فأجابه أبو بكر فى تصميم : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة هى حق المال » . وعندئذ يقول عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وبهذا الموقف الخالد تقرر نهائياً فى الواقع التاريخى أصل من أصول سياسة المال فى الإسلام . هو القتال والقتل لتقرير حق الجماعة فى المال .

وسار أبو بكر فى توزيع أموال الزكاة على مصارفها المعهودة سيرة الرسول ؛

وكذلك فى أخماس الغنيمة وسائر الموارد . فكان يأخذ لنفسه ذلك القدر الضئيل الذى فرضه له المسلمون — وقيل إنه درهمان فى اليوم — ثم يعطى أصحاب الفرائض فرائضهم ، وما بقى فى بيت المال ينفق فى تجهيز الجيوش للجهاد .

وقد حدثت فى عهد أبى بكر سابقة اختلف عليها هو وعمر . فقد رأى أبو بكر أن يسوى فى القسمة بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام ، و بين الأحرار والموالى ، و بين الذكور والإناث . ورأى عمر مع جماعة من الصحابة أن يقدم أهل السبق فى الإسلام على قدر منازلهم ؛ فقال أبو بكر : « أما ماذكرتم من السوابق والقدم والفضل ، فماأعرفنى بذلك ، و إنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

وظلت هذه المساواة مرعية ، واليسر يفيض على المسلمين سواء ، كلما اتسعت الموارد ، حتى كان عهد عمر بن الخطاب فظل مستمسكا برأيه الذى رآه : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » .

وقد حدث أن جاءه يوماً عامله بالبحرين أبو هريرة بمال كثير . وروايته : « قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسيا ، فقلت : ياأمير المؤمنين اقبض هذا المال . قال : وكم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف درهم . قال : وتدرى كم خمسمائة ألف ؟ قلت : نعم . مائة ألف ومائة ألف — خمس مرات — قال : أنت ناعس ! اذهب الليلة فبت حتى تصبح ! فلما أصبحت أتيته ، فقلت : اقبض منى هذا المال . قال : وكم هو؟ قلت : خمسمائة ألف درهم . قال : أمن طيب هو ؟ قلت : لا أعلم إلا ذاك . فقال عمر رضى الله عنه : أيها الناس . إنه قد جاءنا مال كثير . فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، و إن شئتم أن نعد لكم عدا ، و إن شئتم أن نزن لكم وزنا ، فقال رجل من القوم : ياأمير المؤمنين دوّن للناس دواوين يعطون عليها ، فاستهى عمر ذلك . ففرض للمهاجرين خمسة آلاف خمسة آلاف ، وللأنصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ولأزواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا . . . » وقد أثبتنا هذه الرواية هنا لما تبين من رأى عمر فى

تفضيل بعص الناس على بعض ، ولما تصور من درجة الثراء التي يحسب فيها نصف مليون درهم حلماً من الأحلام يتحدث به النيام ! وقد تغير ذلك كله فيما بعد الفتوح العظام .

قال أبو يوسف فى كتاب الخراج : « وحدثنى شيخ من أهل المدينة عن إسماعيل بن محمد السائب عن زيد عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم . ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل و بلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه — أى فى طلبه — . . . » .

« ثم إنه فرض لكل رجل شهد بدراً خمسة آلاف درهم فى كل سنة ؛ وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحداً أربعة آلاف درهم فى كل سنة ؛ وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم ؛ وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل من مسلمة الفتح ألفين ، ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائص مسلمة الفتح . وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم . ثم جعل من بقى من الناس باباً واحداً . ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة ، وأقام بها ، خمسة وعشرين ديناراً ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة . ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة . وقال لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف يخلفها لأهله وألف لفرسه و بغله » [1] .

(١) كتاب : الفاروق عمر جزء ٢ الدكتور هيكل .

« غير أن عمر خرج عن القاعدة التى وضعها لتنظيم العطاء فى أمر رجال ونساء زاد فى عطائهم على عطاء أمثالهم ممن فى طبقتهم . فرض لعمر بن أبى سلمة أربعة آلاف درهم . وعمر هـذا هو ابن أم سلمة أم المؤمنين . وقد اعترض محمد بن عبد الله بن جحش ، وقال لأمير المؤمنين : « لم نفضل عمر علينا ، فقد هاجر آباؤنا وشهدوا » وأجابه ابن الخطاب بقوله : « أفضله لمكانه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فليأتى الذى يستعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه » وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال عبد الله بن عمر : « فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة» وأجابه عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ! » وفرض لأسماء بنت عميس زوج أبى بكر ألف درهم ، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم ، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم ؛ فزادهن على أمثالهن لمكانتهن الخاصة إذ كنّ أزواجاً وأمهات لرجال لهم على غيرهم منزلة وفضل » (١) .

هما رأيان إذن فى تقسيم المال . رأى أبى بكر ورأى عمر . وقد يكون لرأى عمر سنده : «لاأجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » و . . . « فالرجل و بلاؤه فى الإسلام . . . » ولهذا الرأى أصل فى الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء . وكان لرأى أبى بكر سنده كذلك : « إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيهم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولكننا لا نتردد فى اختيار رأى أبى بكر إذ كان أقرب إلى روح الإسلام ، وأضمن أن يحقق المساواة بين المسلمين — وهى أصل كبير من أصول هذا الدين — وأحرى ألا ينتج النتائج السيئة التى نشأت عن هذا التفاوت ، من تضخم ثروات فريق من الناس ، وتزايد هذا التضخم عاماً بعد عام بالاستثمار — والمعروف اقتصاديا أن زيادة الربح

---

(١) المصدر السابق .

تتوالى توالياً هندسياً ـ لاعدديا ـ مع رأس المال ـ هذه النتائج التى رآها عمر فى آخر أيام حياته ، فآلى لئن جاء عليه العام ليسوين فى الأعطيات ، وقال قولته المشهورة: «لواستقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » !

ولـكن واأسفاه ! لقد فات الأوان ، وسبقت الأيام عمر ، ووقعت النتائج المؤلمة التى أودت بالتوازن فى المجتمع الإسلامى ، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة ، مما أضيف إليها من تصرف أمية و إقرار عثمان !

رجع عمر إذن عن رأيه فى التفرقة بين المسلمين فى العطاء ، حينما رأى نتائجه السيئة ، إلى رأى أبى بكر . وكذلك جاء رأى علىّ مطابقاً لرأى الخليفة الأول ـ ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علىّ امتداداً طبيعياً لخلافة الشيخين قبله ، وأن عهد عثمان كان فجوة بينهما ـ لذلك نتابع الحديث عن عهد علىّ ، ثم نعود للحديث عن الحالة فى أيام عثمان .

اختار على مبدأ المساواة فى العطاء ، وقد نص عليه فى خطبته الأولى حيث قال : « ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ؛ ولا فضل فيه لأحد على أحد ؛ وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

هذا هو المبدأ الإسلامى السليم الذى يتفق مع روح المساواة الإسلامية ؛ و يكفل للمجتمع الإسلامى التوازن ، فلا تدع الثروات تتضخم إلا بقدر الجهد والعمل وحدهما ، لا ببعض إتاحة فرصة لا تتاح للآخرين ، بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين .

وقد كان عمر فى آخر أيامه على أن يفىء إلى هـــذا المبدأ ؛ ولـكنه عوجل فاستشهد لسوء حظ الإسلام ، ولم ينفذ عزيمته التى اعتزم ، بل عزيمتيه : عزيمته فى أن يأخــذ

فضول أموال الأغنيـاء فيردها على الفقراء ، إذ كانت هـذه الفضول قـد نشأت ــ فى الأغلب ــ من تفريقه فى العطاء ؛ وعزيمته فى أن يسوى بينهم فى العطاء فـلا تعود هـذه الفوارق إلى الظهور كما ظهرت ؛ ولا يختل المجتمع الإسلامى كما بدأ يختل .

وجاء عثمان . فلم ير أن يأخـذ بالعزيمتين أو إحـداهما . . ترك الفضول لأصحابها فلم يردها ؛ وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها . ولـكن هـذا لم يكن كل ما كان . بل وسع أولا على الناس فى العطاء فارداد الغنى غنى ، وربما تبحبح الفقير قليلاً ، ثم جعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة ؛ ثم أباح لقريش أن تضرب فى الأرض تتاجر بأموالها المـكدسـة ، فتزيدها أضعافاً مضاعفة ؛ ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور فى السواد وغير السواد ؛ فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسـلامى فى نهاية عهده يرحمه الله .

كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان فى إمساك الجمـاعة من رؤوس قريش بالمدينة ، لا يدعونهم يضربون فى الأرض المفتوحة ، احتياطاً لأن تمتد أبصار هؤلاء الرؤوس إلى المـال والسلطان ، حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول الله ، أو بحـكم بلائهم فى الإسـلام وسابقتهم فى الجهاد . وما كان فى هـذا افتيات على الحرّية الشخصية كما يفهمها الإسـلام ؛ فهـذه الحرية محـدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها . فلمـا جاء عثمان أباح لهم أن يضربوا فى الأرض . ولم يبح لهم هـذا وحده بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم فى الدور والضيـاع فى الأقاليم ، بعد ما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف .

لقد كان ذلك كله براً ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصة . ولـكنه أنشأ شراً عظيما لم يكن خافياً على فطنة أبى بكر ، وفطنة عمر بعده . أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة فى الجماعة الإسلامية ، كما أنشأ طبقة أرستقراطية فارغة تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب ؛ فـكان الترف الذى حاربه الإسـلام بنصـوصه وتوجيهاته ، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان ، وحرصا على ألا يتحياه .

عندئذ ثار الروح الإسلامى فى نفوس بعض الناس ، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبوذر. ذلك الصحابى الجليل الذى لم تجد هيئة الفتوى المصرية فى الزمن الأخير إلا أن تخطئه فى اتجاهه ؛ وإلا أن تزعم لنفسها بصرا بالدين أكثر من بصره بدينه !

قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذى لا يعرفه الإسلام ؛ وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التى تقر هذا الترف ، وتستزيد منه ، وتتمرغ فيه ؛ وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف ، فيزيد فى ثراء المثرين وترف المترفين .

علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية ، والحارث بن الحكم مئتى ألف درهم ، وزيد بن ثابت مائة ألف . . . وما كان ضمير أبى ذر ليطيق شيئاً من هذا كله . فانطلق يخطب فى الناس :

« لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه . والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلاً يحيا ، وصادقا مكذباً ، وأثرة بغير تقى . . يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . . يا كانز المال اعلم أن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . . إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

« اتخذتم ستور الحرير ، ونضائد الديباج ؛ وألفتم الاضطجاع على الصوف الأذربى ، وكان رسول الله ينام على الحصير ؛ واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير » .

وروى مالك بن عبدالله الزيادى عن أبى ذر : « أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان، فأذن له و بيده عصاه . فقال عثمان : يا كعب ، إن عبد الرحمن توفى وترك مالا ، فما ترى فيه ؟ فقال : إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه . فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً . وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ماأحب لو أن لى هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل منى ، أذر خلفى منه ست أواق » أنشدك الله ياعثمان . أسمعته ــ ثلاث مرات ــ قال نعم [1] » .

وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية ، ولا ليطيقها مروان بن الحكم ؛ فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى « الربذة » منفياً من الأرض فى غير حرب لله ولرسوله ، وفى غير سعى فى الأرض بالفساد . كما تقول شريعة الإسلام !

لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير لم تخدره الأطماع ، أمام تضخم فاحش فى الثروات ، يفرق الجماعة الإسلامية طبقات ، ويحطم الأسس التى جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس . وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام أورده المسعودى ، قال :

« فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مئة ألف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع ، وبنى الزبير داره بالبصرة ، وبنى أيضا

(١) حديث رقم ٤٥٣ المسند جزء أول نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر .

بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة دارة بالكوفة ، وشيد دارة بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد بن أبى وقاص دارة بالعقيق ، ورفع سمكها وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات . وبنى المقداد دارة بالمدينة ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخاف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً ، وغير ذلك ما قيمته ثلاثمئة ألف درهم [1] » .

هذا هو الثراء الذى بدأ صغيراً بإيثار بعض المسلمين على بعض فى العطاء فى أيام عمر — ذلك الإيثار الذى كان معتزماً إبطاله وتلافى آثاره لولا أن عاجلته الطعنة التى لم تصب قلب عمر وحده ، إنما أصابت قلب الإسلام — ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه ، فضلا على العطايا والهبات والقطائع . ثم فشا فشواً ذريعا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال ، بما أباحه عثمان من شراء الأرضين فى الأقاليم وتضخيم الملكيات فى رقعة واسعة ؛ وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التى انبعثت من قلب أبى ذر ؛ وكانت جديرة لو بلغت غايتها ، ولو وجدت من الإمام استماعا لها ، أن تعدل الأوضاع . وأن تحقق ما أراده عمر فى أواخر أيامه من رد فضول الأغنياء على الفقراء ، بما يبيحه له سلطان الإمامة لدفع الضرر عن الأمة . بل بما يحتمه عليه تحقيقاً لمصلحة الجماعة .

وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت فى جانب ، كان الفقر والبؤس فى الجانب الآخر حتما ، وكانت النقمة والسخط كذلك . وما لبث هذا كله أن تجمع وتضخم . لينبعث فتنة هائجة ، يستغلها أعداء الإسلام ، فتودى فى النهاية بعثمان . وتودى معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها ؛ وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخب أواره حتى كان قد قضى بدخانه على روح الإسلام ، وأسلم الأمة إلى ملك عضوض .

لذلك لم يكن غريبا أن يغضب أصحاب رؤوس الأموال ، والمنتفعون من تفاوت الحظوظ فى العطاء ، على سياسة المساواة والعدالة التى اعتزمها على بعد عثمان ؛ وأن يتظاهروا

---

(١) عن كتاب عثمان للأستاذ صادق عرجون .

بأنهم إنما ينصحون بالعدول عن هذه السياسة خوفاً عليه من الانتقاض ، فما كان جوابه إلا أن يستلهم روح الإسلام فى ضميره القوى فيقول :

« أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ لو كان هـذا المال لى لسويت بينهم ؛ فـكيف و إنما المال مال الله ؟ ألا و إن إعطاء المال فى غير حقه تبذير و إسراف ؛ وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ؛ ويضعه فى الآخرة » .

* * *

فأما بنو أمية فقد ساروا فى سياسة المال سيرة أخرى . حتى كان عمر بن عبد العزيز ، فصنع الذى أساءوا فى رد المظالم ؛ وفى الـكف عن بعثرة أموال المسلمين فى غير حقها ؛ فلم يكن لبنى أمية إلا ما لسائر الناس ؛ ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب فى هذا المال ، فقد انقطع عن الشعراء المداح ، ولم يحرمهم شيء من بيت المال .

وفى خبر له مع جرير أن جريراً مدحه فقال له عمر : « يا ابن الخطفى : أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ؟ أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صـدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ » فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحـد من هؤلاء ، وإنى لمن أكثر قومى مالا ، وأحسنهم حالا ؛ ولـكنى أسألك ما عودتنيه الخلفاء : أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان . فقال له عمر : « كل امرىء يلقى فعله ، وأما أنا فما أرى لك فى مال الله حقاً ولـكن انتظر حتى يخرج عطائى . فأنظر ما يكفى عيالى سنة منه فأدخره لهم ؛ ثم إن فضل فضل صرفناه إليك » فقال جرير : لا . بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إلى . فخرج . فلما ولى قال عمر : إن شر هذا ليتقى ؛ ردوه إلى . فردوه فقال : « إن عندى أربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك » فقال له : قد

وفرك الله ياأمير المؤمنين ، وأنا والله راض . قال : أما وقد حلفت فإن ماوفرته على ولم تضيق به معيشتنا آ ثر فى نفسى من المدح ، فامض مصاحبا » .

لاعجب إذن حين تحفظ أموال المسلمين فترد على المستحقين ، أن يروى الرواة أن الناس اكتفوا فى عهد عمر بن عبد العزيز حتى لاتجد الصدقات فى بعض الأقطار من يأخذها لاغتناء عامة الشعب باستحقاقاتهم الأخرى عن أموال الصدقات . وفى ذلك يقول يحيى بن سعد :

« بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضبتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ؛ فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم » .

إنما الفقر والحاجة ثمرة التضخم والزيادة . والفقراء فى كل وقت هم ضحايا الأغنياء . والأغنياء فى الغالب هم نتاج الأعطيات والإقطاعيات والمحاباه والظلم والاستغلال !

* * *

وفى أيام بنى أمية ثم فى أيام بنى العباس من بعدهم ، كان بيت المال مباحاً للملوك كأنه ملك لهم خاص ؛ وذلك على الرغم من وجود بيتين للمال : بيت المال العام ، و بيت المال الخاص . والأول مفروض أن موارده ومصارفه للجماعة ؛ والثانى مفروض أن موارده ومصارفه من خاصة السلطان . لكننا نجد أحياناً أن أموالا عامة تحمل إلى بيت المال الخاص . وأن مصارف خاصة تؤخذ من بيت المال العام !

جاء فى كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى تأليف الأستاذ آدم ميتز ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة :

أما العطايا وكل مايتعلق بنفقات دار الخلافة فكان يؤخذ من بيت المال العام . وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التى تحمل إلى بيت مال الخاصة .

١ — الأموال المختلفة التى يتركها الآباء لأبنائهم فى بيت المال . ويقال : إن الرشيد خلف أكبر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ، وكان المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) يستفضل من كل سنة من سنى خلافته بعد النفقات ، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع فى بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج فى تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية . ثم جاء المكتفى بعد المعتضد (٢٨٩ — ٢٩٥) فأبلغ المدخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار .

٢ — مال الخراج والضياع العامة الذى يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات) وبلغ مقدار ذلك فى كل سنة منذ عام ٢٩٩ إلى عام ٣٢٠ هـ (٩١١ — ٩٣٢ م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقى وهو تسعة عشر ألف ألف درهم إلى بيت مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقات الحادثة التى تتطلبها هذه البلاد ، ففى عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) أنفق الخليفة لفتحها مايزيد على سبعة آلاف ألف درهم .

٣ — أموال مصر والشام . وكانت جزية أهل الذمة مثلا تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين لا إلى بيت مال العامة . وهذا مايجب للخليفة نظرياً !

٤ — المال الذى يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع ضياعهم ، والمال الذى يؤخذ من التركات[1] .

٥ — ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب .

---

(١) « كان الخليفة يرث مال الخدم ومن لاولد له من موالى أسرة الخلافة . ولما كان هؤلاء فى الغالب سادة ذوى مناصب تدر الرزق الكثير فإن مالا كثيراً كان يجرى إلى خزانة الخليفة .

٦ — ما كان يستفضله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين فى القرن الثالث الهجرى (وهما المعتضد والمكتفى) يستفضل فى السنة ألف ألف دينار ، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها ، فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار ؛ أعنى نحواً من نصف ماخلفه الرشيد » .

ومن هذا النص يبدو كم عدا من يسمون خلفاء من الملوك على أموال المسلمين العامة ، وكم بعدت سياسة المال عن أصول الإسلام ، وكم ارتفع الثراء والترف فى جانب والبؤس والشقاء فى جانب ، وكم اختلّ المجتمع الإسلامى نتيجة بعده عن النهج الإسلامى ، وتنكره للمبادىء الإسلامية .

***

ولكن الواقع التاريخى للإسلام ـ على الرغم من هذا كله ـ استطاع أن يقرر عدة مبادىء أساسية فى « سياسة المال » ، وأن يحقق الكثير من نظريات الإسلام ومبادئه على الرغم من النكسة التى أصابته فى مطلع عهده ، على أيدى بنى أمية لسوء حظ البشرية .

استطاع الواقع التاريخى أن قرر :

١ — أن الفقراء أولى من أولى السابقة فى الإسلام بالمال العام . وجاء فى مسند أحمد بن حنبل : « حدثنا بكر بن عسى ، حدسا أبو عوانة عن المغيرة عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال : أببت عمر بن الخطاب فى أناس من قومى ، فجعل يفرض للرجل من طيء فى ألفين ويعرض عى . فال فاستقبلته فأعرض عى ، ثم أتيته من حيال وجهه فأعرض عنى . قال : فقلت : ياأمير المؤمنين . أتعرفنى ؟ فال : فضحك حتى استلقى لقفاه ، ثم قال : نعم والله إنى لأعرفك . آمنت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وإن أول صدقة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه أصحابه ، صدقة طيء جئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ يعتذر ، ثم قال : إنما فرضت لقوم أجحفت بهم الفاقة ، وهم سادة عشائرهم ، لما ينوبهم من الحقوق » .

وهذه من عمر الذى آثر أولى السابقة فى تقدير العطاء ، لها قيمتها ، ولها دلالتها . فالحاجة هى المبرر الأول للاستحقاق فى المجتمع الإسلامى . وهو مبدأ عميق الدلالة فى كراهة الإسلام للحاجة والفاقة ، وحثه على إزالتها أولا قبل كل رعاية لأى اعتبار آخر .

٢ — أن الإسلام يكره تكدس الثراء فى جانب والحرمان فى جانب . وفى سبيل إزالة هذه الحالة يبيح لولى الأمر حرية التصرف حسب الوضع القائم . وهذا المبدأ وعاه الواقع التاريخى عن الرسول فى توزيع فىء بنى النضير على المهاجرين الفقراء خاصة ـ عدا رجلين فقيرين من الأنصار ـ حتى يعيد بعض التوازن للمجتمع الإسلامى فى أول فرصة عرضت له . ثم جاء القرآن مصدقاً لهذه السابقة التاريخية : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وهذه السابقة لها دلالتها ولها قوتها . فولى الأمر يملك دائماً أن يخص الفقراء من المال العام ، بما يعيد التوازن إلى الجماعة الإسلامية ، وبما يحقق رغبة الإسلام فى ألا توجد فوارق بين الطبقات تخل بهذا التوازن العام .

مبدأ الضريبة المتفاوتة حسب المقدرة والعجز . . فحين فرضت الجزية على الذميين جعلت بالفئات الآتية :

(ا) أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما عن كل رأس فى العام .
(ب) أوساط ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .
(ح) فقراء مكتسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من عاجز عن العمل ، ولا من أعمى أو مقعد أو مجنون أو ذى عاهة على وجه العموم . ولا تجوز الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء . . فلا جزية على امرأة أو صبى .

وحين وقعت المجاعة فى عام الرمادة بسبب القحط ، لم يرسل عمر جباته ليقبضوا الزكاة ،

بل ترك الناس حتى يرتفع الجدب ، فلما اطمأن الناس وعاد الرخاء ، بعث عماله فتقاضوا من القادرين حصتين : حصة عن عام الرمادة ، وحصة عن العام الحاضر ، وأعفى غيرهم ، ثم أمر أن ترد على هؤلاء إحدى الحصتين ، ويقدم العمال عليه بالثانية .

٤ — مبدأ عدم الحجز على الضروريات وفاء للضريبة ، وعدم استيفائها كذلك بالقوة . . قال على بن أبى طالب لأحد عماله : « . . إذا قدمت عليهم ، فلا تبيعن لهم كسوة ، شتاء ولا صيفا ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ؛ ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عَرضاً فى شىء من الخراج . فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو . . »[1]

٥ — مبدأ « كل وحاجته » بجانب مبدأ « كل وعمله » . . فقد فرض النبى صلى الله عليه وسلم للأعزب حظاً من الغنيمة وللمتزوج حظين . ولهـذا الفرض دلالته فى أن الحاجة مبرر كالجهد للعطاء . فجهد المتزوج فى الجهاد كجهد الأعزب . ولكن حاجته مضاعفة . فضوعف له حظه . فالحاجة وحدها مبرر كاف للتملك فى الإسلام . ولهذا قيمته فى الضمان الاجتماعى .

٦ — مبدأ الضمان الاجتماعى العام لكل عاجز وكل محتاج . فقد فرض عمر للمولود مئة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مئتين ، فإذا بلغ زاده . وكان يفرض للقيط مئة ، ولوليه كل شهر رزقاً يعينه عليه ، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال ، ثم يسويه بعد كبره بسواد من الأطفال . وهذه سماحة من عمر توحيها سماحة الإسلام ، فاللقيط برىء ، لا يحمل وزر أبويه الجارمين . وقد أنسنا من قبل كيف فرض لليهودى الأعمى ؛ وللمجذمين من النصارى . وهى سماحة الإسلام فى نفس عمر للناس جميعاً لا للمسلمين وحدهم ، وتأمين المجتمع من غوائل الحاجة والعجز والحرمان .

٧ — مبدأ من أين لك هذا ؟ فلا حصانة للحاكم تمنع الجماعة أن تحاسبه على ما كسب

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف .

من مال ، ليبين لها إن كان ذلك ماله أو مالها . وتقرير هذا المبدأ كفيل بأن يتردد الحاكم مرتين قبل أن يقدم على اغتيال المال العام . وقد قرره عمر مع ولاته جميعاً ، وأقره على مع بعض الولاة .

٨ ـ مبدأ الزكاة العام الذى لم ينقص حتى فى أشد العهود ظلاماً وفسوقاً عن روح الدين . فما من أحد أنكره نظرياً أو عملياً ، بعد حروب الردة فى أوائل عهد أبى بكر . إلى أن غلبت المدنية الغربية فى عصرنا الحاضر ، فنقص آخر مبدأ حى من مبادىء الإسلام !

٩ ـ مبدأ التكافل العام الذى يجعل كل أهل بلد مسؤولين مسؤولية مباشرة عمن يتلفه الجوع ، مسؤولية جنائية يؤدون فيها الدية ، بوصفهم قتلة لذلك الذى أتلفه الجوع وهو بينهم مقيم . ومما يؤيد هذا المبدأ حق الجائع أو العطشان أن يقاتل من فى يده الطعام والماء حين يخشى على نفسه التلف ، فإذا قتله فلا دية عليه ولا عقاب .

١٠ ـ مبدأ تحريم الربا ، والإنظار عند العسرة للمدين . ولقد ظل الربا محرماً حتى أباحته المدنية المادية ، يحملها إلينا القانون الفرنسى ، وجعلته أصلا من أصول الحياة الاقتصادية العامة ، فى غير ما ضرورة ملجئة إلا انعدام العنصر الخلقى فى الحياة ، وانتفاء روح التعاون والبر من صدور الناس . تلك الروح التى يجعلها الإسلام أساس المجتمع وركن التعاون بين الناس.

وذلك كله غير تقاليد البر والمواساة والتكافل فى المجتمع ـ عن غير طريق التشريع ـ والماضى القريب الذى شهده آباؤنا ـ لا أجدادنا ـ فى الريف الإسلامى فى كل مكان ، والذى ما تزال بقية منه حتى بعد أن طغت الحضارة المادية الغربية على العالم الإسلامى ، يشهد بأثر الروح الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية ؛ حيث كان فيض ذلك الروح يغنى عن التشريع والإلزام . وهذه الأوقاف الكثيرة ، والحبوس المنوعة ، التى صرفت اليوم عن أهدافها ، وانتهبها الناهبون تحت مختلف العنوانات والتعلات ، شاهد بعوامل الرحمة والبر والتكافل والتأمين الاجتماعى فى نفوس

أجيال المسلمين البعيدة والقريبة ، قبل أن تفسدها الحضارة المادية الجامدة ، القاسية القلب والشعور .

ولقد بلغت الرغبة فى الضمان الاجتماعى للضعفاء مبلغاً جعلها تتجاوز الإنسان إلى الحيوان . وقد حبست بعض الحبوس على ضعاف الحيوان لتتخذ لها المأوى ، وتنال الحماية من التشرد والجوع !

* * *

هذا هو الإسلام على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى ، من انحراف فى تصور معنى الحكم كانت له آثار ضخام .

هذا هو الإسلام فى واقعه التاريخى الذى حققه فعلا . فأما الإسلام فى مبادئه العامة ، فهو على استعداد دائم لأن يتبنى أوسع التشريعات والنظم عدالة .

فإعادة توزيع الملكيات العامة ، على أساس تحقيق التوازن الاجتماعى ، وتمكين القادرين على الإنتاج من وسائل الإنتاج .

والتوظيف فى أموال الأغنياء ــ أى الأخذ من أصولها ــ لبيت المال بقدر مايعرض من الضرورات للدفاع عن أمن الأمة ، فى حروبها الخارجية ، أو فى إعدادها واستعدادها للطوارىء .

وتأميم الموارد والمرافق العامة ، وتمليكها للأمة ، لا للمحتكرين والمستغلين ، الذين لا يرعون فى مصالح الشعب إلا ولاذمة .

ووضع حد أدنى للأجور ، تتحقق به العدالة بين الجهد والجزاء ، ويتم به التناسق بين العمل ورأس المال ، ويضمن به حد معقول من مستوى المعيشة ، يليق بالإنسان .

هذا وأمثاله من المشروعات ، يتبناه الإسلام ، بأصوله العامة ، وسوابقه التاريخية الخاصة بلا جدال .

والإسلام بما فيه من مرونة وشمول قابل لأن يبسط ظله على كل تجربة إنسانية صالحة للجماعة البشرية ، لاتصدم مبدأ من مبادئه العامة ، ولا تعترض نصاً من نصوصه الصريحة . وتتفق فى الوقت ذاته مع أهدافه العليا ، فى تنمية الحياة وترقية الحياة .

وليس من مهمة هذا الكتاب أن يتوسع فى دراسة مشروعات اجتماعية معينة ، على ضوء تلك المبادىء الكلية . إذ هو موكل فقط ببيان الأسس العامة للعدالة الاجتماعية فى الإسلام(١) .



(١) يرجو المؤلف أن يقدم للقراء فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » شيئاً من مثل هذه المشروعات .

حاضر الإسلام ومستقبله

نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية ، تحكمها الروح الإسلامية والقانون الإسلامى ؛ وتطابق بين ماندعيه من الإسلام وبين الواقع الإسلامى الصحيح . ولقد عرضنا الأسس النظرية للمجتمع كما يصورها القرآن والسنة ؛ ثم عرضنا لمحات عن المجتمع الإسلامى كما يصوره الواقع التاريخى . وبقى أن نسأل : هل من المستطاع أن نستأنف اليوم وغدا نموذجاً من تلك الحياة الإسلامية ؟

إنه لايكفى أن يكون الإسلام قد عاش فى الماضى ، وكوّن مجتمعا كاملا سليم البناء فى عهد النبوة وعهد الخلافة . فقد وقعت منذ ذلك الماضى البعيد تطورات ضخمة فى الحياة ، فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية . بل وقعت تطورات مادية فى طبيعة الأرض وقواها بالقياس إلى الإنسان . . . وكل هذا يجب أن يحسب حسابه قبل الإجابة على ذلك السؤال .

وهناك اعتبار آخر لاينبغى إغفاله ، فى بحث يواجه الواقع ولا يكتفى بدلالة النظريات . فيجب أن نعرف لماذا توقف مد الروح الإسلامى ، فيما يختص بسياسة الحكم وسياسة المال ، بعد فترة قصيرة من عهد النبوة . فهل كانت هذه الفترة هى أقصى ماتستطيعه حيوية الإسلام المكنونة ، ورصيده المذخور ؟

وقبل أن نناقش هذين الاعتبارين ، يجب أن نقرر الحقيقتين التاليتين :

أولا : أن المجتمع الإسلامى الحاضر ليس إسلامياً بحال من الأحوال . فقد سبق أن أثبتنا نصاً من القرآن لاسبيل إلى تأويله بغير الاحتيال عليه . ذلك قوله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ » ونحن لانحكم بما أنزل الله فى المجتمع الحاضر . وإن أمر السرف والترف الذى يحرمه الإسلام ، وأمر الجوع والحرمان

الذى يقول فيه الرسول : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » والذى يفتى فيه الإمام ابن حزم بأنه إذا مات رجل جوعاً فى بلد اعتبر أهله قتلة وأخذت منهم دية القتيل .. لندع هذا وأمثاله مما قد يجادل فيه بعض المجادلين بالباطل .. فالنص القرآنى ينطبق بدون حاجة إلى هذا وأمثاله . ينطبق بحكم القوانين السائدة فى المجتمع الحاضر .

ثانياً : أن المجتمع الإسلامى لم يضعف ، ولم يتخلف عن ركب البشرية ، وهو يستمسك بالإسلام ؛ إنما ضعف وتخلف بعد أن تخلى عن هذا الإسلام . وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا فى تزييف التهم الباطلة التى يلقيها الغربيون على هذا الدين ، ويستشهدون عليها بواقع المسلمين ؛ والتى يتلقفها بعض المخدوعين وبعض المأجورين فيلوكونها ، وقد يسودون بها مئات الصفحات ، مدعين حرية الفكر ودقة البحث ، وهى باطل يتمسح به المزورون والمخدوعون والمأجورون .

ثم نعود إلى مناقشة الاعتبارين اللذين أرجأنا الحديث عنهما إلى ما بعد هذه السطور : ونبدأ بالإجابة على السؤال الثانى : لماذا توقف مد الروح الإسلامى بعد فترة قصيرة من عهد النبوة ؟

وهنا كذلك نقرر الحقائق التاريخية التالية :

أولا : أن هذا التوقف كان توقفاً جزئياً ، ولم يكن يوماً ما توقفاً كاملا . كان توقفاً فى الدائرة الرسمية ، دائرة الحكم . فاستحالت الخلافة السمحة ملكا عضوضا ، واستبيح المال العام للحكام وأقربائهم وحاشيتهم ومتملقيهم ، وحرم المستحقون له بشريعة الله ورسوله .. ولكن بقية تعاليم الإسلام فى المجتمع ظلت سائدة : البر ، والرحمة ، والتعاون ، والتكافل ، والتسامح ، والتحرر الوجدانى ، والمساواة الإنسانية ، وأداء الزكاة والصدقات ؛ وكثير من الفضائل الإيجابية والسلبية التى حققها الإسلام . وما تزال هذه التعاليم سارية إلى حد بعيد أو قريب فى كثير من المجتمعات الإسلامية . لا بل إن الشريعة الإسلامية ظلت معمولا بها كقانون إلى القرن الماضى ، قبل أن نستعين بالقانون الفرنسى ، وقبل أن نقضى القضاء الأخير على آخر مظهر يربطنا بالعقيدة الإسلامية .

ثانياً : أن الانقلاب الذى أصاب نظام الحكم وطريقته ـ وهو انقلاب جزئى كما

أسلفنا ـ كان وليد مصادفة سيئة كما ذكرنا من قبل . مصادفة أن تلى الحكم أمية ، من وراء ستار أولا فى عهد عثمان ؛ وجهرة صريحة منذ أيام معاوية .

وأنا من الموقنين بأنه لو امتد عهد عمر سنوات أخر ، أو لو كان على هو ثالث الخلفاء بعد الشيخين ، بل ربما لو جاء عثمان وهو أصغر سناً بعشرين عاماً ، لتغير وجه التاريخ الإسلامى إلى حد كبير . فسياسة عمر التى كان يعتزمها هى أخذ فضول أموال الأغنياء وردها على الفقراء أولا ، وتسوية الناس فى العطاء المربوط لهم ، على ما كان معمولا به فى عهد أبى بكر ثانيا ؛ ولو فعل عمر لما ارتفع رأس لينكر عليه سياسة يقرها الإسلام . فضمير عمر كان فوق الشبهات ، وحرص عمر على الدين كان فوق الشبهات ، وهيبة عمر ـ والدين فى جانبه ـ كانت فوق دفعات المطامح والشهوات . . ولو تم هذا لعمر ، لعاد التوازن الاقتصادى والاجتماعى للعالم الإسلامى ، ولطويت الفتنة فى عهدها ، أو تأجلت فترة طويلة على كل حال .

ولو جاء على عقب عمر ، لساس الناس سياسة عمر . وأيا كان موقف قريش منه ، وجرأتها عليه أكثر من جرأتها على ابن الخطاب ، فما كان الأمر ليبلغ حد العصيان والفتنة فى ذلك الحين . فأمية كانت بعد لا ترفع رأسها ، وزعماؤها لا سابقة لهم فى إسلام ، ولا فضل يميزهم فى جهاد ؛ إنما هم من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح حين تقررت غلبة الإسلام ؛ وهم بعد عمال كسائر العمال فى الجيش أو الأقاليم ، لا سلطة لهم ولا منعة ، كالتى اكتسبوها فى ثلاثة عشر عاماً من حكم عثمان .

ولسائل أن يسأل : ولم استطاعت أمية أن تحدث هذا الانقلاب العاجل فى إبان فورة الإسلام ؟ ألا يدل ذلك على أن طبيعة هذا النظام الإسلامى متخاذلة ، أو غير مستعدة للبقاء ، أو لا تحمل فى ذاتها الضمانات الكافية لصيانتها من الانقلاب ؟

وهذه شبهة قوية . ولكنها كذلك شبهة ظالمة .

فيجب أن نحسب حساباً لحالة الدولة الإسلامية فى ذلك العهد ، وأن ثمت عوامل القلقلة الخفية إلى جانب عوامل القوة الظاهرة .

حقيقة إن الإسلام فى ذلك الحين كان فى فورته ، فعجيب أن تصنع به أمية ماصنعت !
ولكنها حقيقة كذلك أن سرعة الفتح الخاطفة التى لانظير لها فى التاريخ ، ضمت إلى المجتمع الإسلامى رقعة عريضة تموج بشتى الأجناس والثقافات والعقليات واللغات والنظم والتقاليد والموروثات . وأياً كانت قوة الروح الإسلامى ، وطغيان مدها على تلك الموروثات جميعاً ، فإن عنصر الزمن ضرورى لتمكين هذه الروح الجديدة ، واستحالة الشعور الوجدانى تقاليد عملية ، ونظماً مرعية ، وأوضاعاً اجتماعية ؛ فمعاجلة أمية لروح الإسلام فى هذا الظرف جاءت فى موعد غير مناسب ، ولو تأجلت فترة أخرى لما استطاعت أن تحدث كل ما أحدثته بالإسلام .

وقد رأينا أن معظم أنصار معاوية كانوا فى الشام ـ فى البلاد المفتوحة ـ لا فى قلب الجزيرة .

وأما أن النظام الإسلامى لايحمل فى ذاته الضمانات لصيانته من الانقلاب ، فيجب أن نقدر إلى جانب مباكرته بالانقلاب قبل تأصله ، أنه لاتوجد فى الواقع ضمانات حقيقية لأى نظام . وإلا فأين ضمانات الديمقراطية فى أوربا مثلا ، وهى نظام استقر وكون بجانبه هيئات رسمية أتاح له الزمن تكوينها ، وامتد تحكم طول الزمن إلى فروع الحياة كلها ؟ أين ضماناتها حين تم الانقلاب النازى والانقلاب الفاشستى والانقلاب الأسبانى ؟ وحرية الرأى فى الولايات المتحدة ، التى هاجر أهلها من أوربا ليكوّنوا مجتمعاً حرًّا ، أين ضماناتها وتضع شركات النشر والإذاعة تحتكر الرأى والتوجيه ولا تسمح لفكرة مخالفة أن تجد طريقها إلى أعين الناس أوأسماعهم أو أفكارهم ؟

الواقع أن اتهام النظام الإسلامى بأنه لايحمل ضماناته ، إغفال للممكنات الواقعة فى كل نظام ! كما أن فيه إغفالا لحقائق التاريخ الإسلامى الذى شهد الثورة الكبرى على عثمان ، وشهد ثورة الحجاز على يزيد ، كما شهد ثورة القرامطة وسواها ضد الاستغلال والسلطة الجائرة ، وفوارق الطبقات . وما يزال الروح الإسلامى يصارع ضد هذه الاعتبارات جميعاً ، على الرغم من الضربات القاصمة التى وجهت إليه فى ثلاثمائة وألف عام .

لم يكن توقف المد فى الروح الإسلامى إذن ضعفاً من هذا الروح عن الامتداد، وكذلك لم يكن قصوراً عن مجاراة أطوار الحياة ـ وسنرى بعد قليل أن هذا الروح مازال يعمل فى كثير من مناحى الحياة وجوانب المجتمع ـ ولكنه كان ثمرة لمصادفة سيئة فى وقت غير مناسب. وما كادت المصادفة تسوق إلى الإسلام خليفة فيه بقية من روح الخلافة فى شخص عمر بن عبد العزيز، حتى عاد المد الإسلامى إلى الظهور، وعادت الحكومة إسلامية حقيقية، ولكن الزمن لم يمتد بالخليفة المسلم ليحاول رجع ماانقطع، ويعمق جذور التقاليد الإسلامية فى نظام الدولة.

وتجربة عمر بن عبد العزيز تمنحنا دليلا قويا على أن الطاقة الكامنة فى الإسلام طاقة حقيقية، وأنها صالحة للاستخدام فى أوقات متفاوتة، فلقد جاءت هذه التجربة بعد عهود أموية ظالمة جارمة، فاتضح بها أن العودة للحكومة الإسلامية ممكنة. وما استطاعه بالأمس عمر بن عبد العزيز تستطيعه اليوم جماهير المسلمين.

على أنه يجب أن نكرر القول بأنه إذا كان مد الروح الإسلامى قد توقف فى دائرة الحكم ـ بل فى بعض هذه الدائرة دون بعض ـ فإنه ظل يفيض فى جوانب أخرى من حياة المجتمع والأفراد، ويحقق كثيراً من المثل، و يبلغ كثيراً من الآفاق، وأنه مازال حتى الساعة يعمل فى هذه الميادين التى لم تتأثر باتجاه الدولة الرسمى.

يقول الفرنسى جوبى فى كتابه « الإسلام حيال الدول العظمى » :

« لايقل عدد مسلمى مدغشقر عن ثلاثة أرباع المليون. وقد رد معظم المحققين الأوربيين انتشار الإسلام فى القارة السوداء إلى كون دين التوحيد يؤمِّن للزنجى المساواة والعدالة اللتين يتوق إليهما، ويحرره نهائياً من سيطرة الكهان والسحرة، وبالتالى من كابوس الأرواح الشريرة » .

ويقول مستر (جب) فى كتابه « حيثما يكون الإسلام » :

« ولكن الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسان خدمة سامية جليلة، فليس هناك

أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقيا والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام مازالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . فإذا ماوضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

ولقد كان سلوك المسلمين فى الحروب الصليبية متأثراً كل التأثر بروح الإسلام القوية ، المترفعة على الدنايا والغدر والقسوة ، المؤمنة بوحدة الإنسانية ، وبالوشائج البشرية الكبرى وراء اختلاف الديانات ، ووراء العداوات الوقتية الزائلة . ولم يكن صلاح الدين وحده هو الذى سجل تاريخ هذه الحروب روحه الإسلامية العالية ، بل كانت مجموعة الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى هذه الحروب الطويلة القاسية ، وذلك على الرغم مما ارتكبه الصليبيون من الفظائع . نذكر نموذجاً منها فى وقعة بيت المقدس يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م (٤٩٢ هـ) فى الحروب الصليبية الأولى ، حيث التجأ المسلمون إلى المسجد المقدس معتصمين به ، فتعقبهم الصليبيون داخله ، وأعملوا فيهم السيوف ، وسالت الدماء فى الحرم الشريف حتى انقلب بركة من الدماء ؛ ونكثوا عهدا بالأمان قطعه قائدهم لجماعة من العرب[1] . ولم يكن ذلك إلا نموذجاً من بربرية الصليبيين ، يضاف إليه هتك الأعراض ، والتمثيل بالأحياء ، وتعذيب العجزة والأطفال .

وبعد ذلك كله ، حينما دارت الدائرة على البرابرة ، كانت معاملة المسلمين لهم مصطبغة بروح الإسلام التى استطاعت أن تكبح فى نفوس المسلمين شهوة الانتقام ، وتلزمهم حدود الإنسانية والدين .

وحين نتحدث عن الحيوية الكامنة فى الإسلام ، يجب أن لانغفل سلسلة

---

(١) عن « الحروب الصليبية الأولى » تأليف الأستاذ حسن حبشى .

الكوارث والحملات العنيفة ـ الداخلية والخارجية ـ التى واجهته فصمد لها كل هذا التاريخ الطويل ، وبقى عنصراً موجهاً فى تاريخ البشرية إلى اليوم ، تتجه إليه أبصار بعض الغربيين أنفسهم ، لإنقاذ البشرية مما تعانى ـ كما أسلفنا من رأى جوبى وجب ـ على الرغم من قصورهما حتماً عن استشفاف روح الإسلام ، ونظرتهما إلى المنفعة فى هذا النظام لا العنصر الروحى العميق ، لأنه يصعب على الغربيين الذين نشأوا فى ظل حضارة مادية عريقة الجذور ـ كما سنفصل فيما بعد ـ أن يستشفوا هذا العنصر النورانى الشفيف !

وقد أشرنا من قبل إلى كارثة الإسلام الأولى الداخلية على يد أمية ، تلك التى عاجلته وهو غض لم تتأصل بعد تقاليده العملية ؛ ولم تتحول توجيهاته الروحية وتشريعاته إلى قواعد اجتماعية ثابتة ، وتقاليد عملية مرعية ، وأوضاع واقعية متأصلة .

فالآن نشير إشارات سريعة إلى أهم الصدمات التى واجهت هذا الدين ، فثبت لها طوال هذه القرون .

ونحن واجدون أولاها فى قيام الدولة العباسية واعتمادها على عناصر حديثة العهد بالإسلام ، لم تخلص نيتها له بعد ، لما يعتمل فيها من عصبية قومية لا تزال جذورها كامنة ؛ فلما تقدم العهد بالدولة العباسية تركت العناصر التى قامت عليها والتى أخذت تندمج فى الإسلام ، إلى عناصر أخرى قلوبها غلف من الترك والشراكسة والديلم وسواها . وهكذا ظلت الدولة تعتمد على عناصر مضادة لروح الإسلام ، وتتأثر بهذه العناصر بحكم اعتمادها عليها . فلم يكن إلا روح الإسلام مقاوماً لهذه العناصر ولسلطان الدولة معها ، بما يحمله من طاقة كامنة ، وحيوية عظيمة .

ثم كانت غزوات التتار المدمرة ، التى طغت على العالم الإسلامى ببربرية متوحشة . لم يلبث الإسلام أن طواها فى تياره ، وابتلعها فصارت بعض رواسبه ؛ ولكن بعد أن هزت هذا الروح الإسلامى هزة عنيفة ، وأثرت حتما فى أوضاعه وتقاليده . إلا أن الأمة الإسلامية ظلت ـ على الرغم من تضعضع الدولة أمام عاصفة التتار ـ قوية

متماسكة الأواصر ، قائمة على أصول الدين مهما ندت عنها فى بعض الجوانب الرسمية الخاصة .

وينبغى أن نذكر هنا أن الإمبراطورية الرومانية التى استغرق بناؤها ونموها نحو ألف عام ، انقرضت وتفسخت فى قرن واحد نتيجة لغزوات الهون والقوط ، فلم يبق منها سوى بضعة معالم و إمارات ، على حين بقيت الدولة الإسلامية قائمة فى رقعة فسيحة ، وهى الدولة التى لم يستغرق بناؤها سوى نيف ونصف قرن ، على الرغم من جميع النزاعات الداخلية بين الأسر الحاكمة ، والضربات الخارجية من التتار وغير التتار ، مما يشهد بحيوية الإسلام العظيمة فى مواجهة تلك الظروف .

فإذا مضينا فى تتبع الصدمات وجدنا صدمة الأندلس فى الغرب ، بعد صدمة الحروب الصليبية فى الشرق . وقد هزم الإسلام فى الأولى وانتصر فى الثانية ، وظل يعانى العداء الوحشى من الروح الصليبية منذ ذلك الحين ظاهراً ومستتراً حتى الآن .

ولكن الكارثة التى أطبقت على الإسلام إنما كانت فى هذا العصر الحديث ، حين غلبت أوربا على العالم ، وامتد ظل الاستعمار الأسود ، وغشى العالم الإسلامى كله شرقاً وغرباً ، وأرصد لقتل الروح الإسلامية كل قواه ، مستمداً دفعته من العداء الصليبى الموروث ، ومن القوة المادية والثقافية التى يحملها ، مضافاً إليهما التضعضع الداخلى فى قوة الأمة الإسلامية ، وابتعادها رويداً رويداً فى هذا المدى الطويل عن تعاليم دينها ووصاياه .

وفى الحديث عن العداء الصليبى الكامن فى النفس الأوربية للإسلام ينبغى ألا تخدعنا الظواهر ، وألا يستغفلنا التظاهر باحترام الحريات الدينيه ، والقول بأن أوربا ليست متحمسة للمسيحيه اليوم تحمسها لها إبان الحروب الصليبية ، فليس هناك ما يدفعها إلى التحمس ضد الإسلام كما كانت فى تلك الأيام .

إنها كلها خدع وأضاليل . وما كان اللورد ألنبى إلا ممثلا لضمير أوربا كلها ، وهو

يدخل بيت المقدس فى الحرب العظمى الماضية فيقول : « اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية » ! وما كان الحاكم العام للسودان إلا ممثلا لهذا الضمير، وهو يضع كل قوى الحكومة تحت تصرف المبشرين فى جنوب السودان ، ويمنع أى تاجر مسلم أن يمر هناك مجرد مرور . وقد حدث أن موظفاً بقى فى الجنوب أمداً طويلا وطلب نقله إلى الشمال فلم يجب ، فهدته الحيلة أن يرفع صوته بالأذان للصلاة فكان هذا إيذاناً بنقله فى الغداة !

وانجلترا هى أشد الدول الأوربية تسامحا و إغضاء ولباقة فى معالجة مسائل الأديان .

وقد يعجب البعض لأن تظل هذه الروح التعصبية ضد الإسلام قوية إلى هذا الحد فى الشعور الأوربى ، بعد ماتنكرت أوربا للمسيحية ، ولم تعد صيحات الحجاج والقديسين هى التى تملأ سمعها كما كانت أيام الحروب الصليبية ، ولكن هذا العجب يزول حين نلقى بالنا إلى حقيقتين واقعتين .

الحقيقة الأولى : « أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شىء وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافيا . لقد نشأ تسميم العقل الأوربى عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . وفى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوربيين ، من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ؛ ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفى ذلك الحين أيضاً نبز الرسول محمد بقولهم « كلبى »[1] .

« لقد بذرت بذور البغضاء . . إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها فى أماكن كثيرة من أوربة ، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من « نير الوثنيين » ! وأما تدمير أسبانية المسلمة (الأندلس) فقد اقتضى قروناً كثيرة حتى تم . ولما

---

(١) « وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahoud . إن Maما : ضمير الملك للمتكلم (ضمير جر) و Hound هاوند — من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب : وقد كان أولئك التابرون يتلاعبون بظاهر اللفظين : ماهومد وما هند » . . . كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف ليوبولد فايس (محمد أسد) وترجمه الدكتور عمر فروخ.

تطاول أمد هذا القتال على وجه الحصر، أخذ الشعور ضد الإسلام فى أوربة يشب جذوره ثم يثبت . ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الإسلامى فى أسبانية بعد اضطهاد بالغ فى الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ؛ وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوبت فى أوربة على إثر ذلك ، مع العلم بأن النتائج التى تلته كانت القضاء على العلوم والثقافة ، والتبدل بها جهل العصور الوسطى وخشونتها .

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت فى أسبانية حدث ثالث عظيم الأهمية ، زاد فى فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الإسلام ، ذلك هو سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك . لقد كانت أوربا ترى بقية من الزهو اليونانى والرومانى القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) وكانت تنظر إليها على أنها حصن أوربة ضد برابرة آسية . وسقوط القسطنطينية فتح باب أوربة على مصراعيه للسيل الإسلامى . وفى القرون التى تلت والتى امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضاً . وهذا زاد فى اشتداد تلك العداوة .

« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع . إن « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل ، وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم » . ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلا كان أو امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الذى حينما انقسمت أوربا شيعا ؛ ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى ؛ ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها . منذئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى

فيه يخبو ، ولـكن العداء للإسلام استمر . وإن من أبرز الحقائق على ذلك أن الفيلسوف والشاعر الفرنسى ڤولتير ، وهو من ألدّ أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر ، كان فى الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام . وبعد بضعة عقود جاء زمن أخـــذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشىء من العطف ؛ أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ؛ وبقى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامى غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً فى التفـكير الأوربى . والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية ؛ وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من « الوثنيين » . غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسىء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية ، بكل مالهـــا من ذيول فى عقول الأوربيين الأولين .

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف تفق أن نفوراً قديماً مثل هذا — وقد كان دينياً فى أساسه وممكناً فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للـكنيسة النصرانية — يستمر فى أوربة فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قصية من قضايا الماضى ؟

« لست مثل هــذه المعضلات موضع استغراب أبداً ، فإنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة — والتى كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة — فى قوتها ، تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهــذه حال الأوربيين مع الإسلام : فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان

السبب فى النفور من الإسلام قد أخلى مكانه فى هذه الأثناء ، لاستشراف حياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقى عنصراً من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين . وأما درجة هذا النفور من القوة ، فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لاريب فيه . إن روح الحروب الصليبية — فى شكل مصغر على كل حال — مازال يتسكع فوق أوربة ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامى موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت فى القتال[1] » .

والحقيقة الثانية : أن الاستعمار الأوربى لايملك أن يغفل من حسابه أن الروح الإسلامى صخرة مقاومة لمد الاستعمار ؛ وأنه لامفر من تحطيم هذه الصخرة أو زحزحتها على الأقل ؛ ولا عبرة بما يقوله بعض المخدوعين أو المأجورين من أن أوربا لايهمها الدين ، ولا تراه مصدر قوة ، ولا تخشى من العالم الإسلامى إلا قوته المادية . فالدين فى حقيقته قوة روحية لها حسابها فى تجديد القوى المادية ؛ فوق أن الإسلام بالذات غير المسيحية ، فهو يأمر بإعداد القوى المادية ويحض على المقاومة والكفاح ، وينذر المستسلمين والمستضعفين بسوء المآل فى الدنيا والآخرة : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ[1] » . « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ[2] » . «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ[3] » . « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ[4] » .

فالدين قوة روحية ودعوة إلى قوة مادية ؛ والدين صخرة مقاومة ودعوة إلى شدة

---

(١) عن كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» تأليف ليوبولد فايس (محمد أسد) وترجمة الدكتور عمر فروخ.

(١) سورة الأنفال . [٦٠] .
(٢) سورة النساء : [١٤٤] .
(٣) سورة النساء : [٧٤] .
(٤) سورة آل عمران : [١٣٩ ، ١٤٠]

المقاومة . فلا مفر للاستعمار الأوربى أن يكون عدواً لهذا الدين . . كل ماهنالك أن مظاهر العـداء تختلف بحسب أساليب كل أمة فى الاستعمار ؛ ثم بحسب الظروف والأحوال . ففرنسا مثلا تعلنها حرباً صريحة سافرة فى المغرب العربى كله على الإسلام باسم « الظهيرالبربرى » أو بأى اسم آخر . و يعلن ممثلوها فى دمشق أنهم أحفاد الصليبيين جهاراً نهاراً . وانجلترا تراوغ فتسلك طريقها خاصة إلى معاهد التعليم فى مصر لتنشىء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية ؛ فإذا تم لها تـكوين جيل من المعلمين بهـذه العقلية ، أطلقتهم فى المدارس وفى دواوين المعارف يصبغون عقلية الأجيال هـــذه الصبغة ، و يضعون المناهج والخطط مؤدية إلى تـكوين هذه العقلية ، مع المحافظة التامة على إبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه فى الوزارة . و بذلك تستغنى عن مواجهة الشعور الدينى بالعداوة السافرة ، إذ تدع هذه المهمة لفريق كبير ذى أثر بعيد فى تـكوين العقلية المصرية العامة . . أما فى السودان الجنوبى فلا تجد حاجة إلى هذه المواربة ، فتقف موقفها الذى وصفناه من المبشرين المسيحيين والتجار المسلمين !

وهـكذا سارت كل دولة مستعمرة على طريقة فى مقاومة هذا الدين وخنقه منذ القرن الماضى وقبله كذلك ؛ وما تزال تسير على خطة متعاونة فى صميمها تبدو فى موقف الأمم الغربية من قضية كشمير بين الهند وباكستان ، وقضية حيدر أباد بين الهند والنظام ، ثم تختمها بموقفها فى فلسطين !

والذين يحسبون أن نفوذ اليهود المالى فى الولايات المتحدة وسواها هو الذى يوجه الغربيين هذا التوجيه ؛ والذين يحسبون أن المطامع الإنجليزية والمـكر الأنجلوسكسونى هو الذى يوجه الموقف ؛ والذين يحسبون أن الصراع بين الـكتلة الشرقية والـكتلة الغربية هو الذى يؤثر . . كل أولئك يغفلون عنصراً حقيقياً فى المسألة يضاف إلى هـذه العناصر جميعاً ، هو الروح الصليبية التى تحملها دماء الغربيين ، والتى تندس فى عقلهم الباطن ، مضافاً إليها الخوف الاستعمارى من الروح الإسلامى ، و يعمل على تحطيم قوى الإسلا

حيث يربط الغربيين جميعاً شعور موحد ومصلحة موحدة فى تحطيمها ، تجمع بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية ! ولا ننسى دور الصهيونية العالمية فى الكيد للإسلام وتجميع القوى ضده فى العالم الاستعمارى الصليبي والعالم المادى الشيوعى على السواء . وهو الدور المستمر الذى قام به اليهود دائماً منـذ هجرة الرسول إلى المدينة وقيام دولة الإسلام !

والعجيب أن روح الإسلام على الرغم من جميع هذه الصدمات التى واجهته منذ الفترة الأولى فى حياته إلى اليوم ، وعلى الرغم من معاجلة الصدمات له وأثر ذلك فى كيانه الوليد ؛ ثم على الرغم من غلبة الحضارة الغربية اليوم بقوتيها المادية والثقافية ، مما أحال بعض المسلمين أدوات هدم وتحطيم للإسلام فى أيدى المستعمرين وهم مستريحون !

على الرغم من هذا كله ظلت روح الإسلام فى ذاتهـا سليمة ، وظلت طاقته الكامنة تؤثر فى مجرى الحياة الإنسانية بصفة عامة ؛ وتؤثر فى صوغ السياسات العالمية وتوجيهها منذ أربعة عشر قرنا إلى اليوم ؛ فما من حركة سياسية أو حربية فى العالم لم يحسب فيها للإسلام حساب ؛ حتى فى عصور الضعف والفرقة وتخلخل الحياة الروحية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى .

ولقد انقضت فترة الخمول والاضمحلال ؛ وأخذ المد الإسلامى فى الظهور ، فتكتل العالم العربى شرقاً وغرباً ، وبرزت كتلتان إسلاميتان كبيرتان فى باكستان وأندونسيا ؛ وهى مظاهر لا يمكن إغفالها على الحيوية الكامنة فى الإسلام ، وعلى أن رصيده المدخر يكفى لاستئناف حياة إسلامية جديدة ، لا تقوم على مجرد الرغبة والتفاؤل ، بل على أسس عملية وواقعية كذلك ظاهرة للعيان ، هى اليوم فى دور التجمع والاستعداد على الرغم مما يبدو أحياناً من عوامل المقاومة والانتكاس . فما هى إلا فقاعات تنفقع ، أو سحابة صيف تنقشع !

ولـكننى على الرغم من إيمانى إيماناً مطلقاً بإمكان استئناف الحياة الإسلامية فى العالم

الإسلامى ؛ و بصلاحية الإسلام لأن يكون نظاماً عالمياً ـ لا محلياً ـ فى المستقبل . . فإننى لا أحب أن أندفع وراء خيال جامح ، فأقرر أن هذا سهل ميسور !

كلا فهناك عراقيل شتى وضخمة ، كما أن هناك أعمالا عظيمة يجب أن تتم قبل أن يصبح استئناف الحياة الإسلامية الصحيحة ميسوراً فى المجتمع الإسلامى ذاته . وتقدير تلك العوائق الضخمة ، والتنبيه إلى هذه الأعمال الواجبة أمر يوجبه الشعور الحقيق بعظمة الغاية التى نهدف إليها ، و بثقل التبعة التى تنتظر من ينهض لهذه الغاية ، كما يوجبه الشعور بتبعة الرأى فى مثل هذه الأمور الضخام .

وليس يكفى أن يبعث المرء بالصيحة المدوية فى حماسة فوارة ، ليصبح الأمل واقعاً والرجاء حقيقة ، إن لم يقدر كل العقبات وكل التبعات ، و ينبه من يبعث إليهم بصيحته إلى الجهد الضخم الذى يطلب إليهم أن يبذلوه .

وطبيعى أن انفراج المسافة بين سياسة الحكم وروح الإسلام فترة طويلة من الزمان ، يجعل العودة إلى السياسة المستمدة من هذا الروح أصعب ؛ لأن جهاز الدولة والمجتمع ، وقواعد الحياة بكل مقوماتها ، والاتجاه النفسى والعقلى . . كلها تقوم على أسس معينة يصعب تغييرها قبل بذل جهود ضخمة طويلة . وكلما امتـد الزمن زادت هذه الصعوبة ، واحتاجت إلى جهود أضخم وأطول .

ثم يضاف إلى عامل الزمن الطويل عامل آخر حاضر ؛ وهو أننا لا نعيش فى هـذا العالم وحدنا ، ولا نعيش كذلك فى عزلة عنه . وتشابك مصالحنا وقضايانا مع هذا العالم الذى تسيطر عليه حضارة معينة ، ذات عقلية مناقضة تماماً لعقلية الإسلام ـ كما سنبين فيما بعد ـ يجعل خطواتنا فى سبيل استئناف حياة إسلامية صحيحة ، خطوات بطيئة من جهة ، وذات تكاليف علينا من جهة أخرى .

ومما يزيد هذا العامل الأخير أهمية ، أن هذا العالم الغربى الذى نتشابك مصالحنا معه أقوى منا فى الوقت الحاضر ، وليست لنا السيطرة عليه أو القوة المكافئة لقوته كما كنا فى أول عهد الإسلام ؛ ثم هو فى الوقت ذاته عدو لنا ، وعدو لديننا بوجه خاص . لذلك لن ندعنا

ننشىء نظاماً إسلامياً من جديد ، ونستأنف حياة إسلامية صحيحة ، ما لم نبذل جهوداً مضاعفة ، كان يمكن الاقتصاد فيها لو كانت لنا السيطرة على العالم الغربى أو القوة المكافئة لقوته ، أو لو كان هو صديقاً لنا ، ولديننا الذى نريد العودة إليه .

إلا أن هذا كله لا يعنى أن العودة إلى النظام الإسلامى مستحيلة . وكل ما يعنيه أنها عمل عسير ضخم ، فى حاجة إلى جهود غير عادية ؛ وقبل كل شىء فى حاجة إلى حماسة فى الإيمان به ؛ وجرأة فى اقتحام العقبات المرصودة فى طريقه ؛ وصبر على الجهد الشاق الواجب له ، وثقة فى ضرورته للمجتمع الإسلامى وللعالم الإنسانى كله ، وعقلية إنشائية مبتكرة ، وليست وظيفتها مجرد ترقيع الواقع ، بل إنشاء واقع جديد كامل غير مرقع !

وعلينا وقد عرضنا الأسس التى يقوم عليها هذا النظام ، أن نوازن بين المزايا التى نجنيها من العودة إليه ، والجهود والتضحيات التى ينبغى أن نبذلها لتحقيقه ؛ فإذا بلغ بنا الإيمان بتلك المزايا إلى الحد الذى تهون فيه هذه التضحيات ، فلنبرم أمرنا ولنعتزم ، ولنتوكل على الله .

ولعله من المصادفات ذات القيمة فى هـذا المجال ، أن نشير إلى أن الحضارة الغربية الراهنة قد قادت العالم إلى حربين شاملتين خلال ربع قرن ؛ كما قادته بعد الحرب الثانية إلى انقسام كامل بين الكتلتين الشرقية والغربية ، وإلى تهديد دائم بحرب ثالثة ؛ وإلى اضطرابات فى كل مكان ، وإلى جوع وعرى وبؤس فى ثلاثة أرباع المعمورة . وأن النظام العالمى كله اليوم فى حالة تخلخل واضطراب وبحث عن أسس جديدة ، وتنقيب عن زاد روحى يرد إلى الإنسانية ثقتها بالمبادىء الإنسانية .

ولا ينبغى — مع هذا — أن نتفاءل أكثر مما يجب باستعداد العالم الغربى لقبول أسس حضارتنا الإسلامية ، فهذا موضوع آخر . . نعم إن رجلا كبرنارد شو يقول : إن العالم الغربى قد أخذ يتجه هذا الاتجاه ، ويتنبأ بأنه فى الطريق إليه فيقول :

« لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا ، وهو قد بدأ يكون مقبولا

لديها اليوم . . لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه و يعدونه خصما للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية ، وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح فى حل مشكلاته ، وأحلّ فى العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم إليهما !

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا فى القرن التاسع عشر ، مالدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء : كارليل ، وجوته ، وجيبون . . . بذلك حدث تحول صالح فى موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدماً كبيراً فى هذا القرن المتمم العشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب فى القرن التالى إلى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها . . وقد دان كثيرون من قومى ومن أهل أوربا بدين محمد فى الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ »[(١)] .

ولكننا نرى أن نبوءة برناردشو لاتزال مجرد نبوءة — إن لم تكن مخدراً لشعور المسلمين ليطمئنوا و ينتظروا اعتناق الأوربيين لدينهم ! — وعلى كل حال فإن انتظار تحققها سابق على الأقل لأوانه لسببين رئيسيين :

أولهما : هو هذا العداء الموروث للإسلام فى أعماق الطبيعة الأوربية ؛ والذى يغذيه فى العصر الحديث تعارض مصلحة الاستعمار الغربى والشرقى مع وجود هذه العقبة فى طريقه .

وثانيهما : أن العقلية الأوربية تأصلت على أسس مادية ، أثر الفكرة الروحية فيها ضئيل ، منذ الحضارة الرومانية إلى العصر الحديث . وهذا القول يحتاج إلى تفصيل لاتقتصر فائدته على دلالته فى هذا الموضع ، بل تمتد إلى الإجابة على هذا السؤال الهام : هل يمكن أن تتعاون الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ؟ وما حدود هذا التعاون ؟

---

(١) عن كتاب [illegible] نقلا عن مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ ص ٢٢٠ سنة [illegible]

لقد قلنا فى أوائل هـذا الـكتاب : إن أوربا لم تـكن مسيحية فى يوم من الأيام . وذلك بسبب أن طبيعة الصراع فيها على رقعة من الأرض صغيرة ضنينة ، جعلت مبادئ المسيحية السمحة لا تمتد جذورها فى تلك التربة العصية ؛ وذلك فوق مافى طبيعة المسيحية من تزهد وعدم احتفال بالحياة الدنيا . فالآن نضيف إلى هذين العاملين عاملا ثالثاً أشرنا إليه هنالك إشارة عابرة ؛ وهو وجود الإمبراطورية الرومانية العريقة فى طريق المسيحية ، وبقاء تعاليم الإمبراطورية أساساً للحضارة الأوربية الحديثة ، على الرغم من انتقال المسيحية إليها ، إذ ظلت هذه على هامش الحياة .

ونقتطف هنا فقرات من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » نجد فيها الـكفاية والغنـاء .

« كانت الفـكرة التى تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية . . الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحـده . وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون فى عنفهم سوءا ، ولا فى ظلمهم انحطاطا . وإن « العدل الرومانى » الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاهاً كهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادى خالص للحياة وللحضارة ، إدراك مادى هذبه على التأكيد ذوق فـكرى ، ولـكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين ؛ وإن آلهتهم التقليدية لم تـكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحاسكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعى ؛ ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية ؛ بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ، ولـكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية !

« تلك كانت التربة التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . ولقد عملت بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها ؛ ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية فى أكثر من ناحية واحدة . ولـكن الحقيقة

الباقية أن كل ماهو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع للمدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيا بحتاً ولادينيا — لاعلى الافتراض بل الحقيقة — فكذلك هو الجو فى الغرب الحديث . ومن غير أن يكون لدى الأوربى برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة لمثل هذا البرهان . . ترى التفكير الأوربى الحديث — بينما هو يتسامح بالدين وأحيانا يؤكد أنه عرف اجتماعى — يترك ، على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية . إن المدنية الغربية لاتجحد الله ألبتة ، ولكنها لاترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى . لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكرى فى الإنسان ، أى من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة . وهكذا يميل الأوربى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . وبما أن قضية وجود الله لاتقع تحت هذا الوجه ولاتحت ذاك ، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية !

« وهنا يعرض سؤال : كيف يمكن لهذا الاتجاه أن يتفق وطريقة التفكير المسيحى ؟ أليست النصرانية — المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحى للمدنية الغربية — عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة كما هى الحال فى الإسلام ؟ لا شك فى أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أن يكون ثمة خطأ أفدح من أن نعتبر أن المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية . إن الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب يجب أن تطلب فى فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ؛ ويمكن التعبير عنها كما يلى : بما أننا لانعرف شيئاً معينا — من طرق الاختبار العلمى والتقدير فى الحساب — لاعن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد . . فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا فى وجوه إمكاننا المادى والفكرى ، من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب إذن فى أن هذا

الاتجاه الذى تتميز به المدنية الغربية الحديثة ، لايجد قبولا فى التفكير الدينى المسيحى كما لايجد قبولا فى الإسلام أو فى كل دين آخر ، وذلك لأنه لادينى فى جوهره . وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخياً عظيما . إن النصرانية ساهمت فى جزء يسير جداً من الرقى العلمى المادى الذى فاق به الغرب ، فى مدنيته الحاضرة ، كل ماسواه . وفى الحق أن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوربا المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة . . ثم إن للنصرانية اليوم فى نظر السواد الأعظم معنى شكلياً فقط كما كانت حال آلهة رومية ، تلك الآلهة التى لم يكن يسمح لها ، ولا ينتظر منها ، أن يكون لها نفوذ حقيقى ماعلى المجتمع . ولاريب فى أنه لايزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ؛ ولكن هؤلاء شواذ فقط . إن الأوربى العادى ـ سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً أم بلشفيا ، صانعاً أم مفكرا ـ يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أوكما يقول التعبير الدارج : « طليقة من ظلم الطبيعة » إن هيا كل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء ؛ وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران . وإن النتيجة التى لامفر منها فى هذه الحال هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ؛ وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ، ومصممة على أن يفنى بعضها بعضاً حيثما تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافى فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادى » . . انتهى .

والخلاصة لهذا كله أن الضمير الأوربى الحالى ليس على استعداد لاستشعار روح الإسلام ، والاستعانة به فى حل مشكلات الإنسانية . وإن يكن ذلك ليس مستحيلا بعد عدة انقلابات وتطورات أخرى ؛ وبعد أن يبدأ العالم الإسلامى ذاته فى استئناف

حياة إسلامية واضحة المعالم، مستقلة الأسس، يجد فيها الغرب الواقعي التفكير، حقائق عملية قائمة تجذب حسه؛ وتعدل تفكيره. وإن كان اعتقادي الخاص أن أجيالا متطاولة ستنقضي قبل أن يستطيع الغرب استشعار روح الإسلام على نحو من الأنحاء.

والخلاصة لهذا كله كذلك أن أسلوب التفكير الإسلامي القائم على الغايات الخلقية للأعمال، لا يستطيع الالتقاء بأسلوب التفكير الغربي الحاضر القائم على الغايات النفعية للأخلاق؛ وهذا ما يجب علينا أن نحسب حسابه، ونحن نعمل لتحقيق حياة إسلامية سليمة، فلا نحاول ترقيع هذه الحياة باستعارات نستوردها من الخارج، لأن هذه الرقع لن تستقيم مع نسيج تفكيرنا الأصيل.

والمسلمون يسلمون بالهزيمة منذ الجولة الأولى حين يحاولون تجديد حياتهم باستعارة الطرق الغربية في التفكير والحياة والسلوك؛ وينتهون إلى وأد الحياة التي يعملون لإحيائها، لأنهم منذ الخطوة الأولى يعدلون عن طريقها الطبيعي الوحيد، وهو أن يفكروا على أسس إسلامية تجعل العنصر الأخلاقي أصيلا في بناء الحياة؛ وتنظر للغايات الخلقية للعمل، ولا تجعل المنفعة هي الغاية العليا للأخلاق.

ولقد رأينا في الفصول الأولى من هذا الكتاب، أن الإسلام يحقق غايات الحياة الصالحة كلها، وهو يحافظ على العنصر الأخلاقي فيها؛ وأن قيمته الكبرى كامنة في أنه لا يجزئ الحياة، ولا يفصل بين الوسائل والغايات؛ ولا يفترض التعارض بين المادي والروحي في كيان الحياة وفي طبيعة الكون والناس، بل يفترض أن الحياة وحدة كلية، تسير بجملتها نحو هذه الأهداف في توافق واتساق.

يقدم الإسلام إذن للبشرية فكرة كاملة عن الحياة. هذه الفكرة قابلة دائما للنمو في التفريع والتطبيق؛ ولكنها غير قابلة للتعديل أو المزج في الأصل أو الاتجاه.

ويجب لكي تؤتي هذه الفكرة الكاملة نتائجها الطبيعية كاملة، أن تطبق تطبيقا كاملا، وإلا فإن أقل تعديل في أساسها واتجاهها يحدث فيها اختلالا، لا تتحقق معه صورة الحياة التي يرسمها الإسلام.

أما النمو الدائم فى التفريع والتطبيق على أساس الفكرة الكلية فهو أمر طبيعى تقره طبيعة الإسلام ، وتدعو إليه ، وتهيىء له وسائله ، وتعترف بها . فالقياس والاجتهاد والسلطات الواسعة المتروكة لولى الأمر . . . كل هـذه وسائل حية لاستمرار النمو فى التفريع والتطبيق لمسايرة الحياة ، وتلبية حاجاتها المتجددة . . . أمر واحد هو الذى يجب التزامه : ألا تخرج هذه التفريعات والتطبيقات على أصول الفكرة الأساسية للإسلام ؛ وألا تسلك اتجاهاً غير اتجاهه ؛ أو تحتال على روح الإسلام وتتلبس بروح أخرى غير روحه القوية المستقيمة .

ومدار قبولنا لأى تفريع أورده ، أن نعرضه على فكرة الإسلام الأساسية وروحه العامة ، فما وافق فكرته وروحه قبلناه ، وما خالفها رفضناه . وبذلك نملك أن ننتفع بكل ثمرات الجهود الإنسانية فى حدود فكرتنا الأساسية عن الكون والحياة والإنسان ؛ ولا نقيم بيننا و بين الجهود البشرية سداً ؛ ولا نقف فى عزلة عن الركب العالمى الدائب المسير . على أن يكون مقرراً فى نفوسنا إلى درجة الإيمان والحماسة : أننا نملك فكرة عن الحياة أكبر مما يملك أتباع أى دين أو فلسفة أو حضارة ، لأنها من صنع الله خالق الحياة .

ولكن هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف العظيم ؛ كما يحتاج إلى تفصيل آخر يتناول الحديث الخاص عن « العدالة الاجتماعية » موضوع هذا الكتاب الأصيل ، فعلى بركة الله إذن نأخذ فى هذا التفصيل .

* * *

إن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم تقوم على أساس الفكرة الإسلامية ؛ فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام دائماً فى إقامة الحياة . أما الركن الثانى فهو تكوين عقلية مشبعة بالروح الإسلامية ، لتنبعث حوافز هـذه الحياه من داخل النفس ، فتلتقى بالبيئة التى تكفلها التشريعات والنظم

والقوانين . أما العدالة الاجتماعية فهى جزء من تلك الحياة الإسلامية ، لا يتحقق كاملا إلا بتحقق تلك الحياة ، ولا يكفل له البقاء إلا بإقامتها على أسسها الوطيدة ، شأنها فى ذلك شأن كل نظام آخر ، لابد أن يعتمد على الإيمان به والثقة بصلاحيته ؛ وإلا فقد أسسه المعنوية ، وقام على القهر التشريعى والنظامى وحده ؛ وهو قهر عمره مرهون بالقدرة على التملص منه .

لذلك كان التشريع الإسلامى أدنى إلى الاتباع والطاعة لأنه يعتمد على عقيدة دينية . ولذلك أيضاً يجب أن نعنى بإحياء هذه العقيدة ، ونفى ما علق بها من تحريفات وتأويلات وشبهات ، لتكون سنداً للنظام التشريعى الذى نشير به ، لتحقيق حياة إسلامية صحيحة . وبذلك تقوم هذه الحياة على التشريع والتوجيه ، وسيلتى الإسلام الأساسيتين فى تحقيق أهدافه جميعاً .

يجب إذن أن نكوّن فكرة إسلامية فى نفوس الأفراد والجماعات ، بجانب التشريع الإسلامى الذى ينظم الحياة . والثقافة هى الوسيلة الطبيعية لتكوين تلك الفكرة .

ولكن كيف ينسنى لنا أن نكون فكرة إسلامية بثقافة ، ووسائل تربية ، وطرق تفكير ، هى فى صميمها غربية ، وهى فى صميمها معادية للفكرة الإسلامية . أولا : لأنها تقوم على أساس مادى مناهض لفكرة الإسلام عن الحياة . وثانياً : لأن محاربة الإسلام جزء أصيل فى تكوينها ؛ سواء ظهر هذا القصد واضحاً أو توارى فى الثنايا والشعاب ؟

إننا كما قلت : نعلن هزيمتنا منذ الجولة الأولى إذا نحن اتخذنا الفكرة الغربية وسيلتنا لإحياء الفكرة الإسلامية . فلا بد أولا من التخلص من طريقة التفكير الغربية ؛ ولا بد من اتخاذ طريقة تفكير إسلامية ذاتية ؛ لنضمن أن يجىء النتاج خالصاً غير هجين !

وليس مدلول هذه الكلمات هو العزلة الفكرية والثقافية والعلمية ؛ فهذا كله تراث إنسانى ، اشتركت فيه أمم العالم جميعاً ، ولنا فيه من قبل نصيب أصيل . وما نزال نشارك فى تكوينه مشاركة حقيقية ، ولو بدا أننا بعيدون عن التأثير الإيجابى ، لأن التفاعل بين الأمم جميعاً على ظهر الأرض تفاعل حقيقى ومستمر .

ليست العزلة إذن عن ركب البشرية مانعنى . ولكننا بصدد بناء فكرة إسلامية وتجديدها ، فى وقت بدا فيه — حتى للمستنيرين من الغربيين — أن فكرة الحضارة المادية الغربية فكرة خطرة على الكيان الإنسانى ، مؤدية بالإسانية إلى هذا القلق الدائم ، والنضال المستمر ، والخصام الدائب ، والانحدار فى الصفات الإسانية إلى الحضيض، على الرغم من كل الفتوح العلمية التى كان يمكن أن تؤدى إلى إسعاد البشرية وإراحتها وكفايتها ، لولا ذلك الانحدار فى الصفات الإسانية ، ولولا أن أساس الفكرة الغربية عن الحياة — وهو أساس مادى — غير صالح لهداية البشرية إلى طريق الكمال .

مادمنا بصدد بناء تلك الفكرة فى هذه الظروف ، فيجب أن نفرق بين مايصح أن نأخذ ، وما يصح أن ندع ، مما عند الغربيين . إلى أن يتم لنا بناء مجتمع إسلامى صلب العود ، لاخطر عليه من التفاعل والتصادم والأخذ والعطاء . وبعبارة أخرى يجب على الأقل أن نكفل الحماية للفكرة التى نكونها فى مدة الحضانة . حضانة الفكرة فى نفوسنا نحن لاحصانة الفكرة فى ذاتها ، فالفكرة الإسلامية فى ذاتها من القوة والوضوح بحيث لايخشى عليها من أية فكرة أخرى غريبة . ولكنا نحن الذين رضعنا وتغذينا ، ولا نزال نقتات ثماراً غريبة عنا . . يجب أن نحترس ونحن فى فترة التكوين !

فأما العلوم البحتة وآثارها التطبيقية بكافة أنواعها ، فيجب ألا نتردد فى الانتفاع بها وبآثارها فى الحياة المادية ، بغير قيد ولاشرط ، وبدون تردد ولا إبطاء .

وأما الفلسفة وهى التفسير الفكرى للكون والحياه ؛ والأدب وهو التفسير الشعورى لها ؛ والتاريخ وهو التفسير الواقعى ؛ والتشريع وهو التفسير لعلاقات الأفراد والجماعات . . فيجب أن نحترس فى الاستفادة منها كل الاحتراس .

فنحن لايؤذينا أن ننتفع بالعلوم البحتة فى جزئيات الحياة ؛ ولكن يؤذينا التفسير الكلى للحياة ؛ لأنه يقوم على فكرة غير فكرتنا ، و تؤدى إلى تكوين صوره للكون

والحياة تصادم الصورة التى يكونها الإسلام عنهما ؛ وتنتهى بنا إلى سلوك طريق غير طريق الإسلام . هو الطريق الذى تشكو البشرية اليوم من سلوكه ، وتعانى بلاياه .

وقد يقال : إذا كان الأمر كذلك ، فالعلوم البحتة ذاتها ليست مضمونة ، لأنها ليست منفصلة فى صميمها عن طريقة التفكير الغربية . فالطريقة التجريبية قائمة على أساس من فلسفة معينة ، وهى غير الفلسفة العقلية والفلسفة الروحية . ولو لم تستقر الطريقة التجريبية فى الأذهان ماسار العلم فى خطواته التى سار بها أخيراً . كما أن العلم بدوره لايقف فى معزل عن الفلسفة ، ولايكتفى بالتأثر بها دون التأثير فيها . إذ أن الفلسفة تنتفع بتجارب العلم ونتائجه ، وتتأثر بها فى اتجاهها وطريقتها . فاقتباس العلوم البحتة لايخلو إذن من اقتباس قسط من الفلسفة التى تأثرت بها هذه العلوم ، وأثرت فيها كذلك . . وهذا فضلا على أن نتائج العلم التطبيقية تؤثر فى الحياة المادية ، ووسائل المعيشة ، وتوزيع الثروة . . وهذه بدورها تنشىء مجتمعات جديدة ، ذات فلسفة جديدة ، أو على الأقل ذات فكرة عن الحياة متأثرة بهذه التطورات فى واقع الحياة .

وكل هذا صحيح وواقع . ولكن لابد مماليس منه بد . فالانعزال عن العلم وثمراته لاسبيل إليه ، وضرره أكثر من نفعه . وليس فى هذه الحياة خير خالص ، ولاشر محض . والإسلام لايصد عن العلم والانتفاع به ؛ فليس فى تناول الثمرات العلمية من حدائق الإنسانية جميعها مايعارض روح الإسلام . ونحن حين نضمن التأثرات الكلية فى عالم الفلسفة والأدب والتاريخ والتشريع ؛ ومايتبع ذلك من طرق التربية ، وطرائق التفكير والشعور ؛ ونبنى هذا كله على أسس إسلامية ، نأمن إلى حد كبير ألا تؤثر نتائج العلوم وآثارها المادية ، فى صميم الفكرة الكلية التى نكونها عن الحياة والسلوك .

وعلى ذكر طرق التربية يحسن أن ننبه هنا إلى أنها لاتنفك أو تنفصل عن الفلسفة العامة للأمة . وأما حين نقتبس طرق التربية الغربية ونظم التعليم وبرامجه ، نقتبس معها

طريقة التفكير العامة ، والفلسفة الكامنة وراء تلك الطرق والنظم والبرامج ، أردنا ذلك أم لم نرد .

فالاعتقاد بأن هذه مسائل « بيداجوجية » بحتة ، ومن ثم فهى « إنسانية » لا تختلف فى بلد عنها فى الآخر ، هو اعتقاد ساذج قصير النظر ، يملى له غرور النفسيين والتربويين واستكبارهم بمادتهم أن يلحقوها بالفلسفة ، بعد ما انفصلت عنها فى هذا القرن الأخير .

ولكن هذا شيء والواقع شيء آخر . فعلم النفس قد يصبح يوماً علماً بحتاً يدرس فى المعمل . ولكن توجيه نتائجه والانتفاع بها فى طرف التربية ، وترتيب البرامج . . كل هذا سيظل متأثراً بالفلسفة العامة عن الحياة ، خاضعاً لهذه الفلسفة مؤدياً إليها فى النهاية . . لا بل إن خضوع علم النفس للمعمل ، إن هو إلا أثر من آثار الفلسفة التجريبية ، أو الطريقة التجريبية ، التى شملت العقلية الغربية المادية فى السنوات الأخيرة . فلا استقلال لعلم النفس عن الفلسفة السائدة ، إلا الاستقلال الظاهرى الذى لا يؤثر فى النتائج النهائية ! وكذلك يقال عن طرق التربية وفلسفاتها .

وحين ننظر مثلا فنرى البرامج الأمريكية ، وطرق التربية والتدريس ، تميل إلى التدريب العملى أكثر مما تميل إلى التفقه العلمى ؛ وترمى إلى تقديم المهارة العملية على الفروض النظرية . . يجب أن نلتمس علة هذا الاتجاه عند فلسفة « البراجماتزم » التى وضع أساسها « تشارلس بيرس » سنة ١٨٧٨ وكونها « وليم جيمس » ثم عدلها « جون ديوى » الفيلسوف المربى المعاصر . وهذه الطريقة هى انقلاب فى وسائل التفكير والبحث ، وعدول كامل عن الأفكار المجردة ، والمعانى النظرية ، والبحث عن الأشياء فى ماهيتها وحقيقتها ، وحصر البحث فى مدلولاتها العملية وآثارها .

« فالفكرة (Idea) عند تشارلس بيرس أو عند البراجماتزم إنما هى مشروع ، أو خطة للعمل والنشاط ، وليست حقيقة فى ذاتها . فعندى مثلا فكرة عن سير السيارة التى تسير

فى الشارع ؛ ولا معنى لأن أبحث فى حقيقة هذه الفكرة : أصلها ومنشئها : هل هى حقيقة أم من خلق العقل . وهل هى من عمل الأذن والجهاز العصبى ، أم هى من عمل النفير أو السيارة أو غيرهما ؛ وإنما يجب أن يكون معناها الانحراف يميناً أو يساراً ، وإفساح الطريق للسيارة وراكبها . معناها أن أشرع فى تغيير خطة سيرى ، والتوجه إلى جهة غير التى كنت أسير فيها . ومن هذا تزعم البراجماتزم أن الفكرة هى مشروع للعمل ، أو خطة للتأثير فى البيئة . هى خطوه فى سبيل العمل . لها مابعدها[1] » .

فمذ هذه النظرية أو هذه الطريقة فى التفكير هو الذى أنشأ طرق التربية الأمريكية وبرامج التعليم ونظمه ، لتؤدى إلى تكوين عقلية تنظر للأشياء هذه النظرة ، وتفكر فى الحياه هذا التفكير . بل هى التى طبعت الحياة الأمريكية هذا الطابع ، ووجهتها إلى الإنتاج العملى ، وكفتها عن الثقافة الفنية والنظرية إلى حد كبير .

وهكذا يجب أن نحسب للفلسفة العامة حسابها ، ونحن نقتبس طرف التربية ، ونظم التعليم وبرامجه ، فهى كامنة وراء هده الوسائل جميعاً ، وهى التى تخلقها وتوجهها ، مستعينة بنتائج الدراسات النفسية البحتة بطبيعة الحال ، وإن كانت هـذه الدراسات فى طرقها ونتائجها متأثرة بتلك الفلسفة أيضاً .

* * *

طرىقنا إذن من الوجهة النظرية ـ لتكوين فكره إسلامية مستقلة ـ أن نسير بحرص وحذر فى اقتباس الفلسفة ومايتبعها من طرف التربية ، ونظم التعليم وبرامجه ، والأدب ، والتاريخ ، والتشريع . . . وسنقول كلمة مجملة عن كل من هذه الثقافات .

* * *

فأما الفلسفة فقد أشرنا من قبل إلى فكره الإسلام الكلية عن الكون والحياه

---

(١) « البراجماتزم أو فلسفة الذرائع » تأليف الدكتور يعقوب فام

والإنسان . وهي فكرة تختلف في صميمها عن طبيعة الأفكار الكلية الأخرى في الفلسفات الغربية — منذ الإغريق إلى اليوم — وليس هذا مجال تفصيل هذا الاختلاف ، فبحسبنا أن نعرف هنا أن هناك اختلافاً أصيلاً[1] .

ولقد كانت للأزهر بصفة خاصة رسالة لم يقم بها في هذا المجال . . أن يبحث عن هذه الفكرة الكلية للإسلام ، وأن يعرضها عرضاً قوياً ، بلغة العصر وأسلوبه ، وأن يوازن بينها وبين المذاهب الفلسفية الأخرى . وبدلا من أن ينهض الأزهر بهذه الرسالة راح يدرس في كلية أصول الدين مايسمى خطأ بالفلسفة الإسلامية ، من كتب ابن سينا وابن رشد . . . هذه الانعكاسات للفلسفة الإغريقية ، التي لاصلة لها بحقيقة الفكرة الإسلامية الكلية . وكان هذا إمعاناً في إهمال الرسالة الملقاة على عاتق الأزهر ، وإعلاناً للهزيمة الروحية والفكرية في المعقل الأول للفكرة الإسلامية !

يجب إذن لتكوين فكرة إسلامية صحيحة عن الكون والحياة والإنسان ، ألا ندرس الفلسفة الغربية — وما يتبعها من مبادىء الأخلاق — في القسم الثانوي من مدارسنا إطلاقاً . ولا تدرس في الجامعة أيضاً إلا بعد السنتين الأوليين في قسم الفلسفة على أقل تقدير . وبطبيعة الحال لاتدرس في الكليات الأزهرية إلا أخيراً . ويجب أن تسبقها في كل معهد تدرس فيه ، دراسة إسلامية خالصة ، تقرر الفكرة الإسلامية الحقة ، مبرأة مما يسمى « الفلسفة الإسلامية » .

فإذا ماتكونت في نفوس الطلاب وأفكارهم أسس وطيدة لروح الإسلام وفكرته عن الكون والحياة والإنسان ، والخير والشر ، والعمل والجزاء . . . إلى آخر مباحث العقيدة الإسلامية الخاصة في الميدان الفلسفي . . . أخذنا في السنوات الأخيرة من الدراسات الجامعية نقدم لطلاب الفلسفة المتخصصين ، زاد الفلسفة الإغريقية وانعكاساتها في الفلسفة

---

(١) يرجو المؤلف أن يقدم لقراء العربية بحثاً كاملا في « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان » .

الإسلامية ، وزاد الفلسفات الأوربية والأمريكية الحديثة ، مع الموازنات والمقارنات فى كل مرحلة بينها و بين فلسفة الإسلام ؛ ضامنين إلى حد ما ألا تؤثر فى شعورهم ووجدانهم ؛ وأن تقتصر آثارها على أفكارهم وأذهانهم بعد استعدادهم للجدل والمناقشة ، ورد ما لا يوافق طريقة التفكير الأصيلة لقوم مسلمين . عندئذ لا تضر المعرفة بل تفيد . لأنها تصبح معرفة عقلية مبرأة من التأثير الوجدانى فى الضمير ، وفى تصور الحياة والشعور بها ، والسلوك فيها ، إلى حد كبير .

ولقد عرضنا مثالا من فلسفة « البراجماتزم » فى النظر إلى الأشياء . وقد لا تبدو فى هذا المثال خطورة تلك الفلسفة أو الطريقة ، فنحب أن نتابع هذه الفلسفة فى نتائجها البعيدة ، لنرى الآثار الخطيرة لطبع عقلية الجيل بطريقة كهذه فى التفكير .

« معظم الناس يؤمنون بالله . وهذه فكرة (Idea) إما أن تكون خطأ أو صواباً فى حكم المنطق . فالنظرية العقلية تقول : إن الله موجود حقاً إذا تبين منطقياً وجوده .

« أما البراجماتزم ، فتعالج هذه المسألة من ناحية أخرى ، ونقربها بشكل آخر . ففى رأيها أن صواب هذه الفكرة لا يتوقف على الضرورات المنطقية ، وإنما يتوقف على صلاحية هذه الفكرة فى حياتنا الراهنة ، وفى تصرفاتنا اليومية ، وفى اختباراتنا . فإذا كانت هذه الفكرة تؤدى إلى نتائج مرضية فى الحياة فهى صحيحة وصائبة . وبذلك يكون الله موجوداً . بغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نحكم على هذه الفكرة أولا ، ثم لا نستطيع أن نتحقق من حكمنا ثانياً [1] » .

وطريقة الإسلام تختلف قليلا أو كثيراً عن النظرية العقلية ذاتها ، فى أنها لا تكل إلى المنطق الذهنى وحده كل القضية ، بل تشرك معه الإلهام . ولكنها تتناقض تناقضا مع « البراجماتزم » لأننا حين نسير مع هذه إلى النهاية ، نجد أن فكرة الله قد يأتى عليها حين

(١) البراجماتزم أو فلسفة الذرائع .

لا تؤدى وظيفة ظاهرة فى الحياة المادية ، وعندئذ تنبذ الفكرة من أساسها لأنها لاتدير آلة ولاتحرك جهازاً !

ثم نسير خطوة ، فإذا المنفعة الظاهرة وحدها هى المحكمة ، لا فى قبول الأشياء أو رفضها ! بل فى تصور وجودها أو عدمها ! وهى مرحلة تفقد فيها الإنسانية كل مقوماتها الكريمة ؛ و يستوى الإنسان عندها بالآلات .

ولا ينفصل السلوك فى الحياة عن هذه الأفكار . ولعلنا لا نبعد إذ نقول : إن سلوك الولايات المتحدة فى قضية فلسطين ، وموقفها كذلك فى مجلس الأمن من قضية مصر ، إنما كانا أثراً من عقلية البراجماتزم ! — بالإضافة إلى العوامل الأخرى — ففكرة الحق والعدل ، ليست لها وظيفة فى الحياة الأمريكية المادية . ومن هنا لا معنى لإثباتها والاعتراف بها فى السلوك الدولى . وهو تفسير كاف لهذا الموقف المريب !

فما لم نكن نبغى أن نكوّن عقلية فى مجتمعنا الإسلامى كهذه العقلية ، فيجب أن نحترس من دراسة الفلسفة الغربية ، قبل أن نكوّن فكرة قوية واضحة عميقة فى نفوس الناشئة والشباب ، ترتكن إلى فكرة الإسلام الكلية . كما ينبغى أن نحترس فى اقتباس طرق التربية و برامج التعليم ونظمه ، لأن هذه جميعها خاضعة للفلسفة العامة فى بلادها ، مؤدية إلى الأهداف التى ترسمها هذه الفلسفة من قريب أو من بعيد .

* * *

فأما الأدب فهو التفسير الشعورى للحياة . وهو منبعث من المنبع الذى تصب فيه جميع الفلسفات والديانات والتجارب والمؤثرات فى بيئة من البيئات .

ولقد يكون الأدب أشد المؤثرات فى تكوين فكرة وجدانية عن الحياة ، وفى طبع النفس البشرية بطابع خاص.ومن هنا يجب أن يكون لنا أدب نابع من التصور الإسلامى. ولعله يحسن أن نقول هنا كلمة مفصلة عن منهج الأدب الإسلامى :

الأدب — كسائر الفنون — تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان . هذه القيم

قد تختلف من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن عصر إلى عصر ، ولـكنها فى كل حال تنبثق من تصور معين للحياة ، والارتباطات فيها بين الإنسان والـكون ، وبين بعض الإنسان وبعض .

ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التى يحاول التعبير عنها مباشرة ، أو التعبير عن وقعها فى الحس الإنسانى . فإننا لو أفلحنا ـ وهذا متعذر ـ فى تجريدها من هذه القيم ، لن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية ، أو خطوط جوفاء ، أو أصوات غفل ، أو كتل صماء .

كذلك من العبث محاولة فصل تلك القيم عن التصور الـكلى للحياة ، والارتباطات فيها بين الإنسان والـكون ، و بين بعض الإنسان و بعض . و يستوى أن يشعر الإنسان بأن له تصورا خاصا للحياة أو لا يشعر ، لأن هذا قائم فى نفسه على كل حال ، وهو الذى يحدد قيم الحياة فى نظره ، ويلون تأثراته بهذه القيم . . .

والإسلام تصور معين للحياة ، تنبثق منه قيم خاصة لها . فمن الطبيعى إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم ، أو عن وقعها فى نفس الفنان ، ذا لون خاص .

وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة ، تملأ فراغ النفس والحياة ، وتستنفد الطاقة البشرية فى الشعور والعمل ، وفى الوجدان والحركة ، فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة ، ولا للتأمل الضائع الذى لا ينشىء سوى الصور والتأملات .

وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى فى مجال التأملات والأشواق . فـكل تأمل هو إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الـكونية أو الإنسانية ، وتوكيد للصلة بين الخالق والمخلوق ، أو بين مفردات هذا الوجود . وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف ، أو لتحقيق هدف ، مهما علا واستطال .

وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها ، لا للرضى بواقعها فى زمان ما أو فى مكان ما . ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح ، ومن نزعات وقيود ، سواء فى فترة خاصة ، أو فى المدى الطويل .

مهمة الإسلام دائما أن يدفع بالحياة إلى التجدد والتطور و لرقى ، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع .

ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة ، قد لا يحفل كثيرا بتصوير لحظات الضعف البشرى ، ولا يتوسع فى عرضها ، و بطبيعة الحال لا يحاول أن يبررها ، فضلا على أن يزينها بحجة أن هذا الضعف واقع ، فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه.

إن الإسلام لا ينكر أن فى البشرية ضعفا ، ولكنه يدرك كذلك أن فى البشرية قوة . و يدرك أن مهمته هى تغليب القوة على الضعف ، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها ، لا تبرير ضعفها أو تزيينه .

والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة قد يلم أحيانا بلحظات الضعف البشرى ، ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات ، و إطلاقهامن عقال الضرورة وضغطها .وهو لا يصنع هذا متأثرا بالمعنى الضيق لمفهوم «الأخلاق» إنما يصنعه متأثرا بطبيعة التصور الإسلامى للحياة ، و بطبيعة الإسلام ذاته فى تطوير الحياة وترقيتها ، وعدم الاكتفاء بواقعها فى لحظة أو فترة .

والنظرية الإسلامية لا تؤمن بسلبية الإنسان فى هذه الأرض ، ولا بضآلة الدور الذى يؤديه فى تطوير الحياة . ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى لا يهتف للكائن البشرى بضعفه ونقصه وهبوطه ، ولا يملأ فراغ مشاعره وحياته بأطياف اللذائذ الحسية،أو بالتشهى الذى لا يخلق إلا القلق والحيرة والحسد والسلبية . إنما يهتف لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة ، ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التى تطور الحياة وترقيها . سواء فى ضمير الفرد أو فى واقع الجماعة .

وليست الخطب الوعظية هى سبيل الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى ، فهذه وسيلة بدائية وليست عملا فنيا بطبيعة الحال .

كذلك ليست وظيفة هذا الأدب أو الفن هى تزوير الشخصية الإنسانية أو الواقع

الحيوى ، و إبراز الحياة البشرية فى صورة مثالية لا وجود لها . إنما هو الصدق فى تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة فى الإنسان.والصدق كذلك فى تصوير أهداف الحياةاللائقة بعالم من البشر ، لا بقطيع من الذئاب !

الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى أدب أو فن موجه ، بحكم أن الإسلام حركة تطوير مستمرة للحياة ، فهو لا يرضى بالواقع فى لحظة أو جيل ، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع . فمهمته الرئيسية هى تغيير هذا الواقع وتحسينه ، والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة .

وقد يلتقى فى هذا مع الأدب أو الفن الموجه بالتفسير المادى للتاريخ . يلتقى معه لحظة واحدة . ثم يفترقان . .

فالصراع الطبقى هو محور الحركة التطويرية فى ذلك الفن . أما الإسلام فلا يعطى الصراع الطبقى كل هذه الأهمية ، لأن نظرته إلى أهداف البشرية أوسع وأرقى . إنه لا يرضى بالظلم الاجتماعى ولا يقره ، ولا يهتف للناس بالرضى به أو التذاذه ! وهو يعمل ـ فيما يعمل ـ لمكافحته وتبديله . ولكنه لا يقيم حركته التطويرية على الحقد الطبقى ، بل على الرغبة فى تكريم الإنسان ورفعه عن درك الخضوع للحاجة والضرورة ، و إطلاق إنسانيته المبدعة من الانحصار فى الطعام والشراب وجوعات الجسد على كل حال .

فالمحور الذى تدور عليه حركة التطوير فى الفكرة الإسلامية هو تطوير البشرية كلها، ودفعها إلى الانطلاق والارتفاع ، و إلى الخلق والإبداع . وفى الطريق يلم بآلام الطبقات وقيودها ، ليحطم هذه القيود ، و يزيل تلك الآلام .

إنه لا يحقر آلام البشر ، ولكنه لا يستخدم الحقد الطبقى لإزالتها ، لاعتباره أن الحقد ذاته قيد يحول دون انطلاق البشرية إلى آفاق أعلى !

أما كيف يعالج هذه الآلام علاجا واقعيا عمليا،لا وعظيا ولا خياليا،فقد تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع . إنما المهم أن نقرر هنا أن الأدب أو الفن الإسلامى أدب أو فن موجه . موجه

بطبيعة التصور الإسلامى للحياة وارتباطات الكائن البشرى فيها ، وموجه بطبيعة الفكرة الإسلامية ذاتها ، وهى طبيعة حركية دافعة للإنشاء والإبداع ، وللترقى والارتفاع . ولست أعنى التوجيه الإجبارى على نحو ما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادى للتاريخ ، إنما أعنى أن تكييف النفس البشرية بالتصور الإسلامى للحياة ، هو وحده سيلهمها صورا من الفنون غير التى يلهمها إياهاالتصور المادى ، أو أى تصور آخر ، لأن التعبير الفنى لا يخرج عن كونه تعبيرا عن النفس ، كتعبيرها بالصلاة أو السلوك فى واقع الحياة .

وأخيرا فإن الإسلام لا يحارب الفنون ذاتها ، ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون . ويقيم مكانها — فى عالم النفس — تصورات وقيما أخرى ، قادرة على الإيحاء بتصورات جمالية إبداعية ، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالا وطلاقة ، تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة التصور الإسلامى ، وتنكيف بخصائصه المميزة .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا تحريم الآداب الأوربية على الناشئة . فالذى نعنيه هو مجرد الاختيار والانتقاء . ففى هذه الآداب مايلتئم روحه مع الروح الإسلامية . لا لأنه حث على الفضائل وتقبيح للرذائل ؛ فالأدب ليس منبراً خطابياً للوعظ والإرشاد . ولكن لأنه ينظر إلى الحياة نظرة روحية محلقة أرفع من المادة ؛ ولأنه يعترف بالقيم المعنوية للحياة . فهذا اللون من الأدب يتفق فى روحه مع الفكرة الإسلامية فى عمومها . ولا يؤذى وجدان الناشئة ، ولايفسد جهازهم الشعورى والتفكيرى وهو بعد غض . وهذه الغضاضة تستمر على الأقل إلى السنة الثالثة فى الكليات الأدبية ، إن لم تكن إلى سنة الليسانس . ولابأس — بل يجب — أن تتضمن دراسات التخصص كل ألوان الأدب العالمى بلا تحفظ ولا استثناء ، فالغرض الأول من الاختيار والانتقاء فى سن معينة ، هو حماية فترة الحضانة من التلوث والانحراف .

* * *

والتاريخ فرع من الأدب ، ولكنه ذو طبيعة خاصة ، وذو خطورة خاصة كذلك . فالتاريخ تفسير لوقائع الحياة ، ولابد أن يتأثر بالفلسفة والتصور العام للحياه . وستؤدى

تفسيراته على هذا النحو إلى تكوين فكرة عن الحياة تختلف اختلافا رئيسيا عن التصور الإسلامى لاتجاه الحياة والتاريخ .

وفوق ذلك فإن المؤرخين ـ لأنهم أوربيون فى الغالب ـ جعلوا محور التاريخ العالمى هو تاريخ أوربا . وهم فى هذا معذورون بحكم الفطرة البشرية . وذلك إذا أغضينا عن الأثرة الغربية والغرور الأوربى . فدراسة ناشئتنا لتاريخ تلك روحه وهذه طريقته ، يجعلهم يخرجون بفكرتين باطلتين :

الأولى : أنه لاأثر للعوامل الروحية فى سير خط الزمن ، أوأن هذا الأثر ضعيف ضئيل.

والثانية : أن أوربا هى محرك خط الزمن ، وأن الشرق والإسلام ليس لهما إلا أثر ضئيل ضعيف .

وأثر كل من هاتين الفكرتين مؤذ وخطير ، سواء فى تكوين فكرة عامة عن الحياة والخلق والسلوك ، أو فى الشعور بالعزة الإسلامية أمام التيار الأوربى الجارف .

فلكى نقى ناشئتنا هذا الشر يجب أن نتخذ الخطوتين التاليتين :

أولا : أن نأخذ فى وضع تاريخ عالمى عام ، من وجهة النظر الإسلامية ، فى تفسير الحوادث والوقائع ، فلا تنفرد طريقة النظر الأوربية بهذا العمل الخطير . على أن نضع أوربا فى هذا التاريخ فى موضعها الحقيقى لاتتجاوره ، وعلى أن نبرز دور الشرق بصفة عامة ، ودور الإسلام بصفة خاصة فى خط سير التاريخ .

ثانياً : أن نغير برامج التاريخ الحاضرة فى مدارسنا ومعاهدنا ؛ فنبدأ أولا نعرض التاريخ الإسلامى فى جميع الرقعة الإسلامية ، ونفسيره من وجهة النظر الإسلامية . فإنه لايكفى أن ندرس لأبنائنا تاريخ الإسلام مكتوباً بأقلام غربية ، أو مفسراً بطريقة التفكير الغربية . فإذا امتلأت نفوسهم بتاريخ بلادهم ، سقنا لهم تاريخ العالم المكتوب بأقلامنا فى مرحلة التعليم العالى . فإذا انتهوا منه سقنا لهم فى مراحل التخصص نقة الطرف فى التاريخ . ولعله يحسن أن نقول هنا كلمة مفصلة عن منهج التاريخ الإسلامى .

التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان .

ولكى يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغى أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقعها فى مداركه ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد .

وعلى ذلك فإن التاريخ الإسلامى يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر . يجب أن ننظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة ، لكى تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها ، وننكشف بكل عناصرها ومقوّماتها .

وفى هذه الدراسة الجديده يجب أن تكون المصادر العربية هى المرجع الأول ، والدراسات الغربية هى المرجع الثانى . على أن ينتفع من هذا المرجع الأخير بتحرير النصوص وتنسيقها ، وببعض الموازنات بين شتى الروايات من جهة السند . ولاشىء بعد ذلك أبداً . فبقية العمل يجب أن تكون ذاتية بحتة ، غير متأثرة إلا بمنطق الحوادث ذاتها ، بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام . وفى جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية . وهذه الحياة فى هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ إدراكه جميعاً ، لالفهم تلك الحياة فحسب ، بل لإدراكها ككائن حى ، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع فى جسم هذا الكائن الحى .

وإنه ليعز على الباحث فى أية فترة من حياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقياً داخليا إلاأن ينجاوب معها بكل ذاتيته ، وأن يعش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها . فليست هذه خصيصه قاصرة على الحياه الإسلاميه ؛ وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى الحياة الإسلامية لأن مقومات هذه الحياة تختلف فى كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات الفترة الحاضرة وبخاصة فى العالم الأوربى .

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان ، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل تلك العقيدة . وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير عربى بوجه عام ، ولا عند غير مسلم على وجه التخصيص ، وهى الخصائص التى لابد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامى .

إنه لابد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس فى خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية ، وعلاقة هذه البواعث بالحوادث ، والتطورات ، والانقلابات . ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية ـ لا فى شكلها الخارجى وخطواتها العملية فحسب ـ ولكن فى تفسيرها للعلاقات الكونية ، والعلاقات الإنسانية ، والعلاقات الاجتماعية . وفى تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع ووسائل التنفيذ . . الخ . وهى كلها من مقومات الحياة ، وبالتالى من مقومات التأريخ لهذه الحياة .

إن المعارك الحربية ، والمعاهدات السياسية ، والاحتكاكات الدولية . . وما إليها مما يعنى به التاريخ غالبا أكثر من سواه . . إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ . . هذه العوامل هى التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها : كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره ، أى لطريقة إدراكه للحياة فى عمومها . وللباحث المسلم مزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية ، لأن طريقة إدراكه للحياة تمت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ . ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستنبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة .

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها ، يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية ، والقيم الإنسانية الكامنة فيها ، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة . وأن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات

الإنسانية فى مهد الإسلام الأول وفى البلاد التى انساح فيها ، فيضم إلى الجوانب الظاهرة التى لايدرك الغربيون سواها فى الغالب ، كل الجوانب الروحية الخفية التى يعدها الإسلام واقعا من الواقع ، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان وتشكل الحياة فى كل زمان ومكان .

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ، والمسلمون جماعة من بنى الإنسان فى حيز من الزمان والمكان ، والإسلام رسالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان والمكان . . فإن التاريخ الإسلامى لايمكن فصله من التاريخ الإنسانى .

وقد تأثرت تلك الفترة ـ من غير شك ـ بتجارب البشرية كلها من قبل ، وبخاصة تلك العوامل التى كانت واقعة عند مولد الإسلام . ثم أثرت بدورها فى تجارب البشرية من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التى امتدت إليها أو جاورتها . فلابد إذن عند كتابة التاريخ الإسلامى من الإلمام بالصورة التى انتهت إليها تجارب الإنسانية قبل مولد الإسلام ، والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية وسائر مايتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات ، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية ومايتعلق بها من نظم الحكم وسياسة المال وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار ، كى تتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام وطبيعته ، ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولا أو رفضا ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل والتدافع والتلاقى والانعكاس على مر الأيام .

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضروريا ، فإن الإلمام بوضع الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها من كافة نواحيها أكثر ضرورة بوصفها مهد الإسلام الأول من جهة ، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى .

فهل كانت مصادفة عابرة أن يظهر هذا الرسول بهذا الدين فى هذا الموضع من الأرض فى هذا الزمان ؟ أم إن هنالك نظاما مقدورا ، وقصدا مقصودا ، وتدبيرا معينا ، وترتيبا

موضوعا ، لتلتقى هذه الظواهر كلها حيث التقت ، كى تؤدى دوراً معينا ، ليس أقل نتائجه تخطيط خريطة العالم فى عالم الظاهر وفى عالم الشعور على هذا الوضع الذى صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد ؟!

ولعل هذا الخاطر أن يسوق إلى دراسة « محمد الرسول » فى هذا السياق الكونى للتاريخ . فلعل فى شخصه ، وفى نسبه ، وفى بيئة حياته ، وفى تقاليد بيئته . . وفى سائر مايحيط بالفرد الإنسانى من مقومات ، عوامل مقصودة ، وموافقات مدبرة ؛ وأنها لم تكن مصادفة عابرة أن يشار إليه من بين الجموع البشرية الحاشدة ، وأن يقال له : أنت . فانتدب لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير .

ولعله كذلك أن يسوق إلى دراسة طبيعة هذا الحدث ، والفكرة الكلية التى يتضمنها ، قبل البدء فى دراسة الأحداث والانقلابات العالمية التى تمت على أساسها . .

وبذلك تتهيأ للقارىء لمثل هذا التاريخ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التى نشأت عنها الاستجابات التى وقعت بالفعل فى تاريخ الإسلام فى الفترة التى تلت ظهوره ، كما يتهيأ له تفسير هذه الاستجابات تفسيرا صحيحا ، مستكملا لكل عناصر الحكم والتقدير .

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص . والأزمان والأحداث . ويتصل بناموس الكون ، ومدارج البشرية ، ويصبح كائناً حياً . ومادة حياة .

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج الذى أسلفنا ، و برزت تلك المقومات الأساسيه لطبيعة الدعوه ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة البيئة التى استصعبت الدعوه واستقبلت الرسول ، وطبيعه المجتمع الإنسانى الذى كان يعاصر مولد الإسلام ؛ وطبيعة العقائد والأفكار التى كانت تسوده يومذاك . .

متى برزت تلك المقومات الأساسية ، سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصيرورتها ، وأمكن

تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . هذه الخطوات التى تسير متأثرة بتلك المقومات كلها ، وتفاعل بعضها مع بعض ، وتيسر لنا وللناس فى هذا الجيل أن نعرف كيف اختار الرسول رجاله ، ومن أية طينة كان هؤلاء الرجال ؛ وكيف صاغ الرسول رجاله ، وكيف أعدهم للمهمة العظمى ؛ وكيف بنى الرسول نظامه ، وعلى أى الأسس قام هذا النظام ؛ وكيف تحولت الجزيرة العربية مهدا لهذا الدين الجديد ، أو لهذا النظام الجديد ؛ وماذا كان فى طبيعتها وفى ظروفها وفى رجالها وبيوتها وعشائرها ، وفى علاقاتها الاجتماعية ، وملابساتها الاقتصادية والجغرافية والحيوية . . من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته .. إلى آخر هذه المباحث التى تصور المرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، أو من تاريخ الإسلام، والتى تصح تسميتها باسم : « الإسلام على عهد الرسول » .

ثم تجىء المرحلة الثانية : مرحلة « المد الإسلامى » . ذلك عند ماانساح الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . عند ما فاض ذلك الفيض الانفجارى العجيب الذى لم يعرف له العالم نظيرا فى سرعته وقوته . لامن ناحية الفتح العسكرى وحده ، ولكن من ناحية التأثير الروحى والفكرى والاجتماعى أيضاً . أى من الناحية الإنسانية الشاملة ، التى شهدت تحولا كاملا فى خط سير التاريخ على مولد هـذا الدين الجديد ، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب !

وهنا تبدو قيمة المنهج الذى أشرنا إليه ، ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء ، التى قام بها الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة التى امتد إليها ، وتفاعله مع الأفكار والعقائد التى كانت سائدة فيها ، ومع النظم الاجتماعية التى كانت تظللها ، ومع الظروف الاقتصادية ، والمخلفات التاريخية ، والملابسات الإنسانية ، فى أخصب بقاع الأرض ، وأكثرها حضارة فى ذلك الزمان .

والمد الإسلامى لم يقف عند الحدود التى وصلت إليها فتوحاته العسكرية . فلقد امتدت الموجة الفكرية ، والحضارة التى كونها إلى ماوراء حدود العالم الإسلامى قطعاً . ولابد من

دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود . دراستها طردا وعكسا فى حياة العالم الإسلامى ذاته ، وفى حياة العالم غير الإسلامى كله . فقد أخذ هذا العالم من الإسلام وأعطى ، وقد تأثر به وأثر فيه . ودراسة هذه التفاعلات فى ضوء المنهج الذى صورنا خصائصه ، كفيلة بأن تنشىء صورة من التاريخ غير مسبوقة ، ذات حيوية خاصة ، وذات طابع خاص ؛ بل كفيلة بأن تنشىء صورة للعالم الإنسانى وخطواته الحية مختلفة قليلا أو كثيرا عن الصورة التى اعتاد الغربيون أن يرسموها ، والتى اعتدنا نحن أن نراها !

ثم يجىء دور « انحسار المد الإسلامى » . وعلى ضوء المنهج وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعاً : كم من هذه العوامل من طبيعة العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى ، وكم منها من صنع المسلمين أنفسهم ، وكم منها لرد الفعل فى العالم غير الإسلامى ؟ ثم هل كان هذا الانحسار شاملا أم جزئياً ؟ وسطحيا أم عميقا ؟ وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ ، وفى تكييفه أحوال البشر ، وفى قواعد التفكير والسلوك ، وفى العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وماوزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامى وظهور هذا المد الأوربى الذى ماتزال تظللنا بقاياه .

ومن ثم يصبح الحديث عن « العالم الإسلامى اليوم » طبيعيا وفى أوانه ، وقائماً على أسسه الواضحة الصريحة ؛ وليس حديثنا تمليه العاطفة أو التعصب من هذا الجانب أو ذاك ، ويصبح التاريخ الإنسانى — فى ضوء منهجنا الخاص — مسلسل الحلقات ، متشابك الأواصر، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ فى الماضى وفى الحاضر ، وتتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر .

* * *

وأما دراسة التشريع : فهى كذلك متأثرة بوجهة النظر الغربية ، وبالفلسفة الغربية ،

وبالتاريخ الغربى ، وبالتشريع الغربى ، وبالمجتمع الغربى . . . فالقانون صورة للمجتمع ، أو أثر من آثاره . والمجتمع وليد هذه العوامل جميعا .

فيجب لتكوين فكرة إسلامية صحيحة أن ندرس التشريع الإسلامى دراسة كاملة موسعة قبل البدء بدراسة أى تشريع ؛ ويجب أن تكون دراسة التشريع الإسلامى من صنع أساتذة مسلمين ، فلا تتدخل وجهة النظر الغربية إلى الشريعة الإسلامية إلا فى مرحلة التخصص . كما لاتتدخل دراسة التشريع العالمى إلا فى هذه المرحلة أيضاً .

على أن من مقتضيايات الحياة الإسلامية أن يسود التشريع الإسلامى ، وهذا بطبيعته سيؤدى إلى اتباع ماأشرنا به فى دراسة الشريعة الإسلامية ، بحكم الواقع والحاجة والاتجاه . وهناك واجب ضخم ينتظر أساتذة الشريعة فى هذا المجال ، وهو أن يتابعوا الخطوات الجبارة التى خطاها الأئمة وتلاميذهم فى تنمية التشريع الإسلامى .

* * *

فإذا انتهينا من وسيلة التوجيه الفكرى ، بقيت أمامنا وسيلة التشريع القانونى ، لتحقيق حياة إسلامية صحيحة ، تكفل فيها العدالة الاجتماعية للجميع . وفى هذا المجال لايجوز أن نقف عند مجرد ماتم فى الحياة الإسلامية الأولى ؛ بل يجب الانتفاع بكافة الممكنات التى تتيحها مبادىء الإسلام العامة وقواعده المجملة . فكل ما أنتجته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية ، ولا تخالف أصوله أصول الإسلام ، ولاتصطدم بفكرته عن الحياة والناس ، يجب ألا نحجم عن الانتفاع به ، عند وضع تشريعاتنا ، مادام يحقق مصلحة حقيقية للمجتمع ، أو يدفع مضرة متوقعة . ولنا فى مبدأ المصالح المرسلة ، ومبدأ سد الذرائع ، وهما مبدآن إسلاميان صريحان ، مايمنح ولى الأمر سلطة واسعة لتحقيق المصالح العامة فى كل زمان ومكان .

ولقد كان هذا حسبنا فى كتاب عام عن « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » . الغرض

الأول منه هو إبراز « فكرة العداله الاجتماعية فى الإسلام » أكثر من الحديث التفصيلى عن التشريعات والمشروعات التى يمكن أن تقوم على أساس هذه الفكرة .

ولكننى أحب أن أضرب بعض الأمثلة على مايستطيع الإسلام تحقيقه فى الحاضر والمستقبل فى هذا المجال ، من التشريعات التى لا أقصد بها أن تستوعب كل حاجات المجتمع ، بل أن تكون نماذج يقاس عليها ، ومعالم تشير إلى الطريق .

وأنا أعلم أن إبراز « الفكرة العامة » شىء غير بناء المشروعات الاجتماعية عليها ، فليكن نصيبى اليوم هو ماحققته . والمستقبل كفيل ببناء المشروعات العملية الكاملة متى وضع الأساس ، ووضح الاتجاه .

* * *

١ ــ تشريع الزكاة: الزكاة فريضة مقررة فى الإسلام تتراوح فى الأموال بين العشر وربع العشر ــ وهى نسبة ضئيلة على كل حال ــ وإنه ليحق للإنسان أن يتساءل : كيف كان هذا القدر الضئيل ينهض بالمجتمع الإسلامى ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نراعى الحقائق التالية :

١ ــ أن صغر النصاب الذى تجب فيه الزكاة جعل مجموعة الأمة تدفع ، فالقدر المعفى من الزكاة فى حدود اثنى عشر جنيهاً ، لذلك يشترك سواد الشعب فى إخراج الزكاة مما يجعل الحصيلة سبيباً كبيرة ، وبخاصة أنها تساول رأس المال لاربحه .

٢ ــ أن موارد الزكاه تصرف لطوائف معينة محدودة العدد . أما الاعتماد فى المعيشة لسواد الشعب فكان على العمل ، الذى يعده الإسلام مصدر الرزق الأول .

٣ ــ وهذا هو الأهم : أن حياة المجتمع لم تكن قائمة على تلك الحصيلة ، فقد كانت هناك الغنائم الضخمة أيام الوقائع التى امتدت أكثر من نصف قرن . وهذه الغنيمة كان يشترك فيها المحاربون ــ وغالبيتهم من الفقراء ــ فينالهم أربعة أخماسها .

أما الخمس فكان وقفاً على جماعات من المحتاجين : من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . فلما آثر عمر بن الخطاب ألا يوزع الغنيمة من الأرض المفتوحة واستبقاها لأهلها ، وفرض عليها الخراج ، فاض هذا الخراج ، حتى عم الفقراء جميعاً .

أما اليوم وقد انقطع هذا المورد الأساسى ، فإن الزكاة لاتغنى ، ولا بد من التفكير فى موارد أخرى تسد مسد الغنائم والفىء ، وتوفر لجمهور الناس وسيلة الحياة والارتزاق .

على أنه يجب قبل التفكير فى موارد جديدة ، أن نستنفد مورد الزكاة ، لأنها فريضة مقررة لابد من أدائها لتكمل للمجتمع صفة الإسلام ؛ ولتؤدى الزكاة وظيفتها الروحية بجانب وظيفتها الاقتصادية ، كما يجب أن نتصرف فى موارد الزكاة بحيث تشمل جميع أنواع المال التى لا تشملها الآن ، لأنها لم تكن معروفة فى صدر الإسلام .

ومن المفيد أن ننبه إلى أن الأموال التى تتناولها الزكاة لم يقررها القرآن إلا إجمالا فى قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ؛ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ »[1] : فإذا فرضت الزكاة فى الأموال التى كانت على عهد النبى معروفة ، فليس مايمنع أن تفرض اليوم فى كل مايسمى مالا أو كسباً وكل مايغل غلة ؛ ولو لم يكن من الأنواع التى فرضت فيها الزكاة .

كذلك يجوز التصرف فى مصارف الزكاة ـ قياساً على تصرف عمر فى منع المؤلفة قلوبهم ـ فلا تعطى إلا لطوائف معينة ، ولا تعطى نقداً أو عيناً لمن تصرف لهم ؛ بل تؤسس لهم بها مثلاً مصانع ومعامل ؛ أو تشترى لهم بها حصص فى ممتلكات أو مؤسسات ، تصبح مورد رزق دائم لهم ؛ وتبعد عنه معنى الإحسان الوقتى الضائع الذى لايتفق مع مقتضيات الحياة الحاضرة .

---

(١) سورة البقرة [٢٦٧] .

وعلى أية حال فهذه مباحث تفصيلية ليس موضعها هذا الكتاب . ومجال التفكير فيها واسع للتعديل والتحوير ، عندما تتجه الأمة الإسلامية إلى استئناف حياتها الإسلامية .

٢ ـ تشريع التكافل الاجتماعى: يقول عليه الصلاة والسلام : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » فيقرر فى أقصر لفظ مبدأ التكافل الاجتماعى الذى أكثرنا عليه من النصوص والشواهد فى مطلع الكتاب . وقد كان هذا المبدأ موكولا إلى الضمير الفردى والجماعى . فاليوم يجب أن يتولاه الشارع مادام أصلا مقرراً فى الإسلام .

عندئذ يحل للسلطان أن يحقق ما كان عمر بن الخطاب موشكا أن يحققه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » فيفرض ضرائب لاحد لها إلا تحقيق التوازن فى المحيط الاجتماعى ، ورفع الحرج والضرر عن جمهور الأمة ، وتوفير المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعلاج والدواء والعلم لكل فرد من أفراد الشعب . مهما احتملت رؤوس الأموال ، فى الحدود التى لا تعجزها عن العمل والنمو المعقول ، لأن استمرار دولاب العمل يحقق من جانبه مصلحة لا يجوز إغفالها ، لصالح المجموع .

وعندئذ يحل للسلطان أن يضع فى أيدى الفقراء قطعاً من أرض الملاك يستغلونها بلا أجر أصلا ، أو بأجر ضئيل ، ليستطيعوا الحياة ، إذا كان هذا مورد الرزق ووسيلة العمل الوحيدة فى محيطهم . ويحقق بذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لأن يمنح أحدكم أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجاً معلوما » رواه أحمد عن عفان عن حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن طاووس عن عبد الله بن عباس (١) .

وعندئذ يحل للسلطان أن يحدد أجر العامل فى المجتمع والحد [illegible] من الربح والمحصول . [illegible] الأدنى كفايته للأكل والمشرب والملبس والدواء والعلاج فى الحدود

(١) حديث [illegible]

المعقولة ، حسب متوسط المعيشة الذى تبيحه نسبة السكان إلى الثروة العامة فى البلاد . . ولانهاية لما يستطيعه الشارع فى هذا المجال ، فذلك مرهون بالحاجات المتجددة فى شتى الأحوال .

٣ — تشريع التكاليف العامة : كل فرد فى الأمة الإسلامية مكلف أن يشترك فى تكاليف الدولة العامة بقدر استطاعته ؛ وقد أسلفنا رأى المالكية فيما إذا خلا بيت المـــال أو ارتفعت حاجات الجند ، وأن للسلطان أن يوظف بقدر الحاجة فى أموال الأغنياء . ومثل حاجات الجند سائر حاجات الدولة كإصلاح المرافق العامة ؛ وإحياء الأرض الموات ، وتعليم أفراد الشعب وتطبيب غير القادرين . . فهذه كلها قوى من قوى الأمة يجب الاحتفاظ بها وتحديدها وجوب النفقة على الجند ، والاحتفاظ بقوتهم وفوه الثغور والحصون . وبخاصة فى هذه الأيام التى تشمل فيها الحروب جميع موارد الأمم وجميع مرافقها ، ويعد الجميع مجندين فى حالة الحرب ، مؤهلين لها فى حالة السلام .

٤ — تشريع تأميم الموارد والمرافق العامة : قرر الإسلام شيوعية الماء والكلأ والنار بوصفها ضروريات أولية للحياه . والضروريات ليست توقيفيه ، فهى تختلف فى عصر عن عصر . ورعاية هذا المبدأ الإسلامى العام تقتضى مايسمى فى عصرنا الحاضر تأميم الموارد والمرافق العامة كالمناجم وينابيع البترول ومياه الشرب والكهرباء ووسائل النقل العام والمصانع . . وما إليها ، فهذه يجب ألا تكون فى أيدى أفراد أو شركات ، تتحكم فيها بالاحتكار ، وتفرض على الجماهير إرادتها ، وتستغلها ذلك الاستغلال الشنيع الذى نراه .

وأولى الأمر المسلم الذى سند شريعة الإسلام أن يجعل هذا كله ملكا للدولة ؛ وأن يجعل أجوره وأثمانه فى حدود الطاقة لأفقر الناس . فتتقاضى أجوراً عما يعادل التكاليف بلا زيادة عن التكاليف وبذلك يحقق أهداف الإسلام من منع الاحتكار .

٥ — تشريعات المصالح المرسلة وسد الذرائع : كل مايؤدى إلى جلب مصلحة عامة أو دفع ضرر عام فهو واجب على السلطان : وكل ماأدى الى الواجب فهو واجب ، وكل

ماأدى إلى الحرام فهو حرام . فتطبيقاً لهذه المبادىء المقررة فى الإسلام يمكن تعديل الأوضاع الاقتصادية بوسائل شتى منها :

(ا) سحب الأموال الفائضة من أيدى أصحاب رؤوس الأموال المتضخمة : فوجود هذا المال الفائض فى أيديهم يؤدى إلى جملة آثام : فى أولها الترف الذى يحرمه الإسلام . والترف مسألة نسبية يحددها العرف العام فى كل زمان ومكان ، وحدّه المضبوط أن لا يتجاوز المتوسط الذى تبيحه الثروة القومية بالقياس إلى السكان . ومنها الغلاء الفاحش الذى ينشأ من القدرة الفائقة على الشراء من فريق من الشعب ، بينما السلع المعروضة أقل من قوة الشراء . ومنها الرذائل الاجتماعية التى تنشأ من فيضان المال فى أيدى بعض الناس عن حاجتهم ، فيبحثون له عن مصارف آثمة ، ومتاع شهوى داعر تنحط به أخلاقهم ومشاعرهم ، ويكون وقوده المحتاجين والمحتاجات فى المجتمع غير المتوازن .

(ب) منع الفقر المدقع : لما ينشأ عنه من آثام ومضار . فهناك جملة رذائل اجتماعية لاتحيا إلافى مخاضن البؤس والشقاء : السرقة ، والذل ، والسقوط الخلقى فى مهاوى الدعارة .. الخ

وذلك فضلا على ماتخلقه الفوارق الضخمة بين الواجدين والمحرومين من أحقاد واضطرابات اجتماعية يجب أن يحول السلطان دون وقوعها ، بالحيلولة دون أسبابها .

أما كيف يمنع الفقر المدقع : فتوفير العمل لكل قادر وتوفيته أجره ، والتأمين الاجتماعى لكل عاجز والتعجيل بإسعافه . . هو الطريق المسلوك بصفة عامة . أما التفصيلات فمجالها المشروعات التفصيلية التى تبنى على هذا الأساس .

(ح) مكافحة المرض والجهل : لما تؤديان إليه من ضرر بالأفراد ، وضرر بالجماعة ، وإضعاف لقوتها العامة وتمكين للأعداء منها . وهذا حرام فالطريق إليه حرام . ولن يكافح المرض والجهل إلا الاكتفاء والاستغناء . فليست مشروعات البر وسواها إلا مراهم تستر الدمّل ولا تشفيه . إن العلاج الحقيقى هو أن يصبح كل فرد قادراً بماله الخاص من

دخله الخاص ، على التداوى والعلم . أو أن يصبح الدواء والعلم مباحين لكل فرد من أفراد الشعب بنسبة واحدة ودرجة رعاية واحدة . فلا ينال الغنى بماله فوق مايناله الفقير فى دور العلم والاستشفاء .

٦ ـ تشريع التركات : « وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُو ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَٱرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا(١) » ذلك نص القرآن ؛ وهو صريح فى أن فى التركة نصيباً لأولى القربى واليتامى والمساكين . وللشارع بطبيعة الحال أن يتصرف ، فيغير المصارف أو يخصصها ـ كما صنع عمر فى المؤلفة قلوبهم ـ وللشارع أن يعين الفريضة فى التركة بحسبها ، وبحسب حالة المجتمع . ويجب أن ننبه إلى أن معنى الحضور يمكن أن ينصرف إلى الحضور الحكمى ، أى الوجود . وفى كل مجتمع يتامى ومساكين ، فليس من الضرورى أن يحضروا بأشخاصهم فى كل تركة ، فهم حاضرون فى الزمان والمكان . وعلى الشارع أن ينفذ بحكم السلطان كل فريضة لاينفذها الناس بحكم الوجدان .

٧ ـ تشريع التعاون والربا : لقد اقتلع الإسلام الربا من جذوره ، وحاربه فى جميع أشكاله وأوضاعه . ولا يمكن أن تستقيم حياة إسلامية أساس الاقتصاد فيها مؤسسات ربوية . وقد أسلفنا بيان الأسباب التى تجعل الإسلام لا يطيق الربا ، وهى تتلخص فى قتل الربا لروح التعاون والتآلف ، وتحقيقه فائدة لصاحب رأس المال بدون عمل وبلا توقع خسارة .

فيجب أن يقام الاقتصاد القومى على أساس التعاون لاعلى أساس الربا ؛ وكل الاعتراضات التى يمكن ذكرها على هذا الأساس نكمل بالرد عليها إجمالا مولاى محمد على فى كتابه : « الإسلام والنظام العالمى الجديد(٢) » مما يكفينا نحن إعادة الحديث قال :

« ويعترض بأن تحريم الفوائد يعوق سير الأعمال والصفقات التجارية كما يعوق

(١) سورة النساء : ٨ .
(٢) ترجمة الأستاذ أحمد جوده السحار .

تنفيذ المشروعات الأهلية الهـامة . ولنفرض جدلا أنه يعوقهما حقاً ، فهو يعوض هذا بأحسن تعويض . إذ يمنع الحروب فى العالم ، تلك الحروب التى لا تجلب للجنس البشرى غير الشقاء ، ولا يذكيها ولا يشعل أوارها غير القروض والديون الربوية . وتعالوا بنا نلتمس الحقائق ، فإن التجارة سارت سـيرها الطبيعى ، واستمرت أوسع انتشار ، كما ازدهرت المشاريع الأهلية الهامة ، وعمت الحدود الشاسعة فى دول صدر الإسلام إبان عصورها الأولى ، حتى أصبحت هذه الدول فى طليعة الدول العظمى المتسابقة فى سباق المدنية العالمية .

« وهـذا التحريم لا يتلاءم حقـا مع ظروف العالم الجديد الذى جاءت به مدنية الغرب المـادية ، ولـكن النظام الأمثل الذى وضعه الإسلام نصب عينيه ، نظام عملى نجح تطبيقه عملياً قروناً عدة فى صـدر الإسلام ، فربح رؤوس الأموال التى لا تسير الأعمال إلا بهـا يختلف عن الديون العادية قليلا ، فهو فى الواقع حالة يشترك فيها العمل ورأس المال ، وهـذه المشاركة غير محظورة ، فإن النظام الاجتماعى الإسلامى يقول : إن رأس المـال والعمل يجب أن يشتركا معاً فى الربح وفى الخسارة ، فإن معنى دفع فائدة ثابتة هو أن رأس المال يربح دائما حتى ولو كان العمل لا يؤدى إلا إلى الخساره .

« و يعترض أحياناً بأن اشتراك العمل ورأس المـال فى الغنم وفى الغرم غير عملى ، إذ يحتاج دائمـا إلى إمساك دفاتر . مع أن إمساك الدفاتر ضروره من ضرورات التجاره ، إذ الحسابات التجارية فضلاً عن ذلك يجب أن يعنى بهـا لتقدير الضرائب ودفعها ، وإن جميع الشركات المساهمة التى تقوم بالمتاجره على نطاق واسع تمسك دفاتر ، وهذا النظام أنفع للصالح العام من نظام إضافة الفوائد إلى رأس المال : ذلك النظام الذى يكثر من شرور الرأسمالية ، وهو عين الظلم للعمل : والقروض التى تعقدها الحكومات أو الشركات لتمويل المشروعات الكبيرة ، كمد السكك الحديد [illegible] تقتضى نفس الأحكام .

« وإذا ما قام نظام البنوك العام على أسس تعاونية ، يقرها نظام الإسلام الاجتماعى كان نعمة عظمى للبشرية » .

وهذا كلام مجمل ، وتفصيله لا يتسع له كتاب يتناول الفكرة العامة ، ولكن لا بأس هنا من ضرب مثال يهدى إلى الاتجاه التنفيذى حين يراد :

فلنفرض أن الدولة سنت تشريعاً يلغى فوائد المال فى البنوك والشركات والمشروعات العامة والاستقراضات الشخصية ، فما الذى يقع حينئذاك ؟

يقع أن أصحاب رؤوس الأموال لا يجدون أمامهم لتنمية أموالهم إلا طريقين عامين : الأول أن يستثمروها بأنفسهم فى صناعة أو تجارة أو زراعة . والثانى أن يستثمروها بطريق التعاون فى شركات مساهمة تربح أسهمها أو تخسر . وكلا الطريقين يقرها الإسلام ، ولا تخسر بهما الحياة الاقتصادية شيئا .

ولكن قد يخشى أن يحجم الممولون عن إيداع أموالهم فى البنوك ، وهذه البنوك هى التى تمول المشروعات الضخمة فى العالم . وهذا خطر وهمى ، راه مجسما لأنا لا نرى إلا الطرف الأوربيه فى استخدام المال . . فهناك أولاً الميل الفطرى إلى تنمية المال ، وهو لا ينمو إلا باستغلاله على وجه من الوجوه . وهذا الميل الفطرى ضمان لعدم حبس رأس المال . فإذا كنا حريصين على أن نخلق مشروعات ضخمة تحقيقاً لما يسمى « الإنتاج الكبير » ففى وسعنا أن نسن تشريعات لبعض أنواع الصناعات الضخمة نحتم فيها ألا يرخص بإقامة مشروع منها إلا برأس مال حده الأدنى كذا . . عندئذ تتجمع رؤوس الأموال بالمساهمة وتخضع لحساب الربح والخسارة . فلا تبقى حاجة إلى بنوك غير بنوك الإصدار . فإذا شاءت البنوك الأخرى أن تربح ، فعليها أن تساهم بأموالها وأموال المودعين — بعلمهم ورضاهم — فى مشروعات استغلالية تخضع للربح وللخسارة ، فالفائدة المضمونة ربا لا شك فيه . ولن يمنع هذا تدفق رؤوس الأموال الأهلية والأجنبية ، لأن معظم رؤوس الأموال لا يودع فى البنوك إنما يستغل فى المشروعات .

أما شركات التأمين فيمكن أن تصبح مؤسسات إسلامية ، بأن تصبح الأموال المودعة بها قابلة للربح والخسارة والنقص والزيادة ، فتشغل هي رؤوس الأموال المودعة بها في مشروعات استغلالية تحت الربح والخسارة . وتدفع لكل مُؤمِّن فيها مبلغاً يزيد على مادفعه أو ينقص ، وتخصم من المودعين مقدار ماخسرت بحسب نسبة أموالهم . وبذلك يصبح المؤمنون جماعة تعاونية ، يدفعون من مالهم كله للمنكوب منهم عند نكبته ؛ وينالون جميعاً نوعاً من الأمان ينتفعون به عند الضرورة والحاجة . ويطبق هــذا على صناديق التوفير وما إليها فتستحيل جميعها مؤسسات تعاونية تستغل أموالها في مشروعات منتجة ، قابلة للربح والخسارة ، وليس لها فائدة ثابتة . وبذلك ينجو نظامنا الاقتصادي من وصمة الربا ، وتضطر جميع رؤوس الأموال للعمل المنتج طلباً للربح والنمو .

وعلى العموم فإن القول بأن الربا ضرورة لا فكاك منها في النظام الاقتصادي قول يكذبه الواقع في العصر الحديث نفسه ؛ وهاهو ذا النظام الشيوعي قد أمكن أن يقوم على أساس غير هذا الأساس ، ولقد أخذ بعض الاقتصاديين في العالم الغربي نفسه يرى بوضوح أن نظام الربا نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة ، ويشير بنظام أقرب مايكون إلى النظام الإسلامي . وفي مقدمة هؤلاء الاقتصاديين الدكتور شاخت الألماني المعروف .

٨ ــ تشريع القمار . إن المقامرة عملية روحية دنيئه ، لأنها محاولة للكسب بلا جهد ؛ فوق ماتوقعه بين المتقامرين من عداوة وبغضاء ، وماتحدثه في بناء المجتمع من خلخلة واضطراب . وأنواع المقامرة كثيرة . وليس « اليانصيب » إلا نوعاً من أنواعها ، فليست روح البر هي التي تدفع بالناس إلى شراء أوراق اليانصيب ، ولا الرغبة في مساعدة المستشفيات والمبرات ؛ إنما هي الرغبة في الحصول على مبلغ من المال بلا جهد . وهي عملية روحية دنيئة كما قلت . تعوِّق وجدان الرحمة أو تلوثه . ولا حاجة إلى ذكر الحفلات الداعرة الحمراء ، التي تدعى حفلات خيرية ! فإنما هذه ثمرة الترف وما ينشئه في نفوس المترفين من تعفن ، وقعود عن الخير ، وحب للشهوات ، وضن بالمال أن يبذل إلا في لذة حيوانية أو متاع غليظ .

فيجب أن نحظر المقامرة إطلاقاً ، بموائدها الخضر ، وأوراق نصيبها المغرية ، بصدورها العارية ، ومبهراتها الملوثة . فلا حاجة بالحياة الإسلامية إلى شيء من هذا كله ؛ والإسلام يرفض أن تقوم العلاقات بين الناس على هذا الأساس ، أو أن ينبت البر فى مقاذر الشهوات !

٩ ــ تشريع البغاء : البغاء هبوط روحى وعوز مادى . يجتمعان أو يفترقان . وقد حرم الإسلام الزنا بكل صنوفه ، وأحقر صنوفه البغاء . والدعارة سمة المجتمع المختل التوازن . فالمال الفائض والحاجة المذلة يتقابلان . وإذا قيل مرة : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . فإنها قد تأكل بثدييها ولا تموت ! ولا يجوز أن نعرض الناس للبلاء بالحاجة فى ناحية وإغراء المال وغير المال فى ناحية ؛ ثم نطلب إليهم جميعاً أن يكونوا من أولى العزم أو الأنبياء ! وسد الذرائع يحتم على السلطان أن يمنع أسباب البغاء من أصولها . كما أن نص الإسلام يحتم أن يتولى التشريع منع الفعل ذاته . فتشريع البغاء إذن واجب بالنص لا مجال للتصرف فيه . وإزالة أسبابه واجبة بتشريع سد الذرائع لا شك فيها .

١٠ ــ تشريع الخمر : وهــذا التشريع لاحاجة إلى الحـديث فى شأنه . فالخمر محرمة تحريماً لا شك فيه . والمجتمع الإسلامى لا يطيق إباحتها يوماً من الأيام . ثم هى صنو البغاء فى الغالب ، وحليفته فى البيئة ، أو صنو الترف والتعطل الناشيء عنه ، والخمول النفسى الذى يصاحبه ، والحاجة إلى تحريك الخيال والنشاط عن طريق مسكر من المسكرات .

والخمر ، كسائر المخدرات ، تتعارض مع أصل كبير من أصول الفـكرة الإسلامية : فـكرة اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على ضمير الفرد وعقله . فضلاً على أنها وسيلة للهرب من مواجهة الوقائع والحقائق ، والإسلام لا يقبل هذا الهرب ولا يوافق عليه ؛ لأنه جبن ، ولأنه تزييف للحياة .

***

إن الإسلام نظام مرن يستطيع دائما قيادة الحياة وهو محتفظ بروحه ومبادئه

العامة ؛ وهو كفيل بتحقيق حياة فاضلة صحيحة نامية قوية ؛ كفيل بتحقيق عدالة اجتماعية شاملة تقوم على أسس إنسانية كاملة ؛ وتهدف إلى إعطاء كل ذى حق حقه ؛ دون أن تقف فى طريق النشاط الفردى المثمر ، ودون أن تطلقه كذلك ليستحيل إلى نشاط أنانى ضار .

وفكرة الإسلام عن الحياة أكمل فكرة عرفها العالم ، لأنها تجمع كل العناصر المادية والروحية وتكوّن منها وحدة تتجه بها إلى أفق أعلى . وتهدف إلى مثل يبلغها الواقع ، وإن تراءت من نسج الخيال .

والبشرية التى قفزت قفزة ضخمة عالية على هدى الإسلام فى أثناء موجته الأولى ، التى تجاوز أثرها العالم الإسلامى إلى الإنسانية كلها . . هذه البشرية بعد تجاربها الطويلة ، أكثر استعداداً اليوم للانتفاع بالنظام الإسلامى والفكرة الإسلامية منها فى أى وقت مضى . فهذا النظام الذى جاء ليقود البشرية إلى نهايتها لم يكن بد أن تتدرج البشرية فى مدارجه ، وأن تكون أقدر على الانتفاع به كلما ارتقت ، وكلما جربت ، وكلما اتسعت مداركها على مدى العصور . وهى اليوم أقرب إليه منها فى أى يوم مضى . وستكون فى الغد أقرب مما هى اليوم . بمقدار ماتتعلم ، وبمقدار ماترقى ، وبمقدار ماتتألم كذلك فى ظل النظم الأخرى .

والعالم الحائر المضطرب ، الخائف الوجل ، لن يرده إلى السلام والطمأنينة ، ويشمله بالأمن والعدالة ، إلا أن يفىء إلى هذا النظام الكامل حين يشاء الله .

فى مفترق الطرق

والآن فإلى أين نحن نسير ؟

يجب أن نقف لحظة لنسأل أنفسنا هـذا السؤال ؛ ولنوجه حياتنا فى الاتجاه الذى نريد .

إن العالم بعد حربين متواليتين ينقسم اليوم إلى كتلتين كبيرتين : كتلة الشيوعية فى الشرق ، وكتلة الرأسمالية فى الغرب . . هـذا مايبدو فى ظاهر الأمر ، وما تلوكه الألسن ، ويقر فى الأذهان . . فأما نحن فنعتقد أنه انقسام ظاهرى لاحقيقى ؛ وأنه انقسام على المصالح لاعلى المبادئ ؛ وأنه صراع على السلع والأسواق لاعلى العقائد والأفكار . فطبيعة التفكير الأوربى الأمريكى لاتفترق فى حقيقتها عن طبيعة التفكير الروسى . كلتاهما تقوم على تحكيم الفكرة المادية فى الحياة . وإذا كانت روسيا قد صارت شيوعية ، فإن أوربا وأمريكا تسيران فى الطريق ، ومن الحتم أن تصلا إلى نهايته مالم تقع أحداث غير منظورة .

فليس وراء التفكير المادى الذى يسود الغرب ، ويرد الأخلاق إلى المنفعة ، ويدعو إلى التناحر على الأسواق والمصالح . . ليس وراء هـذا التفكير الذى ينفى العنصر الروحى من الحياة ؛ وينفى الإيمان بغير المعمل والتجربة ؛ ويحتقر المثل العليا المجردة ؛ وينكر وجود حقائق للأشياء إلاوظيفتها ــ على نحو ماتصنع فلسفة البراجماتزم ــ ليس وراء هذا التفكير إلاالشيوعية حين تتغير الأوضاع الاقتصادية بعض التغير فى البلاد الغربية .

إنه لايوجد اختلاف فى طبيعة التفكير الأمريكى والروسى ، ولكن توجد اختلافات فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية . والذى يمسك الأمريكى العادى أن يكون شيوعياً ليس فكرة عن الحياة ترفض التفسير المادى للكون والحياة والتاريخ ، بل لأن الفرصة مهيأة أمامه ليصبح ثرياً ، ولأن أجر العامل مرتفع كذلك . فإذا انتهت الرأسمالية فى أمريكا إلى أقصى خطواتها فتمت حلقات الاحتكار ؛ وأحس الرجل العادى أن الفرصة ليست مهيأة أمامه ليصبح من أصحاب رؤوس الأموال ؛ وانخفضت الأجور بسبب إغلاق حلقة الاحتكار ، أو لأى سبب آخر ، فسيتجه العامل الأمريكى حتما إلى الشيوعية ، لأنه لا عاصم له يومئذ ، من فكرة عن الحياة أعلى من الفكرة المادية ، ولاعاصم له من عقيدة روحية ، ولامن مثال أخلاقى .

فلا يخدعنا أن نرى الصراع قوياً وعنيفاً بين كتلتى الشرق والغرب : فكلتاهما لا تملك إلا فكرة مادية عن الحياة ، وكلتاهما قريبة فى طبيعة تفكيرها من الأخرى ، وكلتاهما لاتتصارعان على مبدأ أو فكرة ، إنما تتصارعان النفوذ فى العالم ، والربح فى الأسواق ! ونحن هذه الأسواق !

أما الصراع الحقيقى العميق ، فهو بين الإسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعاً . فالإسلام هو القوة الحقيقية التى تقف لقوة الفكرة المادية التى تدين بها أوربا وأمريكا وروسيا على السواء . الإسلام هو الذى يتضمن الفكرة الكلية المتناسقة عن الكون والحياة والإنسان ؛ ويقيم التكافل الاجتماعى فى المحيط الإنسانى مقام الصراع والتطاحن ؛ ويجعل للحياة فكرة روحية تصلها بالخالق فى السماء ؛ وتسيطر على اتجاهها فى الأرض ؛ ولاتنتهى بالحياة إلى تحقيق أغراض مادية بحتة ؛ وإن كان النشاط المادى المثمر عبادة من عبادات الإسلام .

وحقيقة إن الأديان الروحية — وفى مقدمتها المسيحية — تنكر المادية الأوربية الأمريكية ، كما تنكر المادية الشيوعية الروسية ، لأنهما من طبيعة واحدة تتعارض مع الفكرة الروحية فى الحياة . ولكن المسيحية — فيما أرى — لاتحسب قوة إيجابية

فى مواجهة الأفكار المادية الجديدة ؛ فهى ديانة فردية انعزالية سلبية ؛ لا تملك الحياة أن تنمو فى ظلها النمو الدائم الفعال . ولقد أدت المسيحية دورها المحدود فى حياة البشرية ، ثم عجزت عن مسايرة الحياة العملية فى الأجيال المتلاحقة ، لأنها جاءت لفترة زمنية محدوده بين اليهودية والإسلام ؛ فلما استمسكت بها أوربا لظروف تاريخية معينة ، عجزت عن مسايرة الحياة المتطورة ، وانعزلت فى المعبد وفى الوجدانات الفردية ، ولم تسيطر على الحياة الواقعة ، لأنها لا تملك قوة الاستمرار والتطور والنماء .

والمسيحية لا تستطيع — بغير تمحل — أن تجارى النظم الاجتماعية والاقتصادية الدائمة التطور ؛ لأنه ليس فى صميمها أية فكره عن الحياة الواقعة العملية . فأما الإسلام فهو نظام كونى كامل ؛ فيه العقيده ، وفيه التشريع ، وفيه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الخاضع للوجدان والتشريع ، القابل للنمو فى الفروع والتطبيقات .

وهو يقدم للبشرية فكره متكامله شاملة عن الكون والحياة والإنسان ، فيتسع فيها احتياجات الفكر . ويقدم للإنسانية عقيده واضحة بسيطة عميقه ، فيشبع حاجات الوجدان . ويقدم للمجتمعات أسسا تشريعية واقتصادية ، فيرضى حاجات العمل والنظام .

وهو يقيم نظامه على أساس فكره روحية عن الحياة ترفض التفكير المادى ، ويقيم السلوك على أساس العنصر الروحى الأخلاقى ، ويرفض فكره المنفعة القريبة . وبذلك يصطدم اصطداما مباشرا بالعقلية المادية السائده فى الكتلتين الشرقية والغربية ؛ ويرفع الحياة إلى أفق أعلى من تلك الآفاق القريبة ؛ التى تستسرفها أوربا وأمريكا وروسيا على السواء .

* * *

من ذلك الاستعراض السريع يبدو أننا فى العالم الإسلامى ، فى حاجة إلى مراجعة موقفنا كله . فنحن نملك عن الحياة فكره كلية أرقى من كل فكرة تملكها أوربا أو أمريكا أو روسيا . ونحن نملك أن نقدم للبشريه هذه الفكره التى تهدف إلى تعاون

إنسانى كامل ؛ وإلى تكافل اجتماعى صحيح ؛ وترمى إلى رفع قيمة الحياة إلى المستوى اللائق بعالم يصدر عن الله ! ومكاننا إذن ليس فى ذيل القافلة ولكن فى مأخذ الزمام !

ولكننا لن نصل إلى مكاننا الطبيعى فى يسر ؛ ولن نبلغه إلا على تلال من التضحيات لابد أن نبذلها ، لخيرنا ولخير البشرية . وقد تقع أعباء كثيرة على أصحاب رؤوس الأموال ، وعلى المستمتعين الذين مردوا على المتاع . . ولكن هذه الأعباء لابد منها . فنحن إما أن نسير على درب الإسلام وإما أن نسير على درب الشيوعية ، ولامفر من إحدى الطريقين فى النهاية . فأوربا وأمريكا اللتان نتمسك بأنظمتهما ، ونختارها على نظامنا الإسلامى ، صائرتان حتما إلى الشيوعية طال الزمن أو قصر ؛ بحكم أن طبيعة تفكيرهما هى طبيعة التفكير الشيوعى ، وفكرتهما عن الحياة هى فكرتها ، والاختلاف فى ظاهر الأمر ، لافى حقيقته العميقة !

وإن أصحاب رؤوس الأموال والمستمتعين ليعرفون ماذا تعنى الشيوعية ؛ وإنهم ليفرقون من اسمها كما يفرق الهمجى من الجن والغيلان ! فليعلموا إذن أن لاعاصم لهم ، ولاعاصم للبشرية كلها إلا فى الإسلام . الإسلام الحقيقى الصحيح الذى عرضنا مبادئه هنا ؛ وضربنا الأمثال من نظمه وتكاليفه فى النفس والمال .

ألا وإننا اليوم فى مفرق الطريق . فإما أن نواصل السير فى ذيل القافلة الغربية التى تسمى نفسها « الديمقراطية » ! فنصل معها فى النهاية إلى القافلة الشرقية المسماة عندهم بالشيوعية ! وإما أن نرجع إلى هذا الإسلام نحكمه فى حياتنا الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ؛ ونستمد منه القوة ؛ ونمى تفريعاته فى حدود فكرته الكلية الشاملة ؛ ونحتمل تكاليفه فى النفس والمال .

ألا وإننا إن لم نصنع ذلك اليوم فلن نصنعه غداً : فالعالم المحطم بعد حربين متواليتين ، المضطرب العقيدة ، المزعزع الوجدان ، الحائر بين شتى الاتجاهات والأفكار ، أحوج مايكون اليوم لأن نقدم له عقيدتنا ونظامنا وفكرتنا العملية الروحية عن الحياة . ولن نقدمها حتى نطبقها فى حياتنا ، فيراها العالم حقيقة واقعة فى الأرض ! لا فكرة نظرية فى الخيال !

والعودة إلى الإسلام لا تمنحنا مجرد تحقيق العدالة الاجتماعية فى حياتنا ، ورد الاطمئنان والثقة إلى النفوس المضطربة الحائرة ، الباحثة عن الخلاص فى شتى المبادىء وشتى الاتجاهات .

إنما هى تمنحنا مع العدالة الاجتماعية فى الداخل ، ذاتية شخصية فى الخارج ، وطابعاً مميزاً فى المجتمع الدولى ، تحسب الكتلتان المتنازعتان حسابه ، وتقيمان له وزناً فى سياستهما الدولية .

بل إنها لتمنح العالم السلام ، وتتيح له فرصة للأمن يتنفس فيها ، ويتقى الكارثة التى تفغر فاها لتلتهم الأخضر واليابس فى حرب عالمية جديدة ، ذلك أن بروز كتلة ثالثة إلى الوجود ، ذات فكرة مستقلة عن الحياة ، وذات طابع مميز بين هؤلاء وهؤلاء . . بروز هذه الكتلة الثالثة بين الكتلتين المتنازعتين ، هو الحل الوحيد الأخير لتحقيق التوازن الدولى فى العالم الحائر المضطرب بين هؤلاء وهؤلاء .

والظرف اليوم مهيأ ، على مولد الكتلتين الإسلاميتين الضخمتين فى أندوسيا والباكستان . وعلى يقظة العالم العربى فى الشرق والغرب . وعلى الله قصد السبيل . وعلينا الثقة به والإيمان .

فهــرس

الموضوع	الصفحة
الدين والمجتمع بين المسيحية والإسلام	٣
طبيعة العدالة الاجتماعية فى الإسلام	٢٠
أسس العدالة الاجتماعية فى الإسلام	٣٢
التحرر الوجدانى	٣٤
المساواة الإنسانية	٤٨
التكافل الاجتماعى	٥٩
وسائل العدالة الاجتماعية فى الإسلام	٧٢
سياسة الحكم فى الإسلام	٨٨
سياسة المال فى الإسلام	١٠١
الملكية الفردية	١٠٣
حق الملكية الفردية	١٠٣
طبيعة الملكية الفردية	١٠٥
وسائل التملك الفردى	١١٠
طرق تنمية الملكية	١١٧
طرق الإنفاق	١٢٣
فريضة الزكاة	١٣٢
فرائض غير الزكاة	١٣٦
من الواقع التاريخى فى الإسلام	١٤٤
حاضر الإسلام ومستقبله	٢٢٠
فى مفترق الطرق	٢٧٣

كتب المؤلف

	ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
	ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	» » » »
٣	ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤	ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥	ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦	ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» رابعة)	دار المعارف
	ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثالثة)	» »
	ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
٩	ـ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
	ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
	ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
٢	ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
٣	ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
٤	ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
٥	ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
٦	ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »
	ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)